وليام غولدينغ

نوبل 1983

رجالٌ مِنْ وَرَقٍ



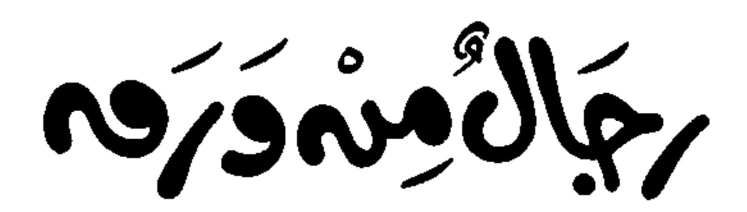
ترجمة: عبد الكريم ناصيف



رواية

وليام غولدبنغ

الحائز على جائزة نوبل للآداب سنة 1983



رواية

ترجمة:

عبد الكريم ناصيف




MOHAMED KHATAB



Men of Papers
by
William and Golding

وليام غولدينغ ؛ رجالٌ من وَرَق ؛ رواية

ترجمة : عبد الكريم ناصيف

الطبعة الأولى، 2012

لـ دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر
هاتف: 00963 112236468
فاكس: 00963112257677
ص. ب: 11418، دمشق. سوريا
www.attakwin.com
info@attakwin.com

الفصل الأول

علمت في الحال أنها كانت واحدة من تلك الليالي. فالسكْر، بالشكل الذي كان عليه، كان يتلاشى من دماغي مخلفاً وراءه نوعاً من رواسب الغضب، الانزعاج الغامض، بل حتى توبيخ الضمير. لا، لم تكن، بالحقيقة، حفلة مرح صاخب أو إفراط في السكر. وبممارسة دفاع خاص عن نفسي كان باستطاعتي أن أقنع الآخرين أن قضائي لتلك الليلة بتلك الطريقة لم يكن غير معقول إذا ما أخذنا بعين الاعتبار واجبات المضيف: كاتب إنكليزي يسلي ضيفاً قادماً من وراء البحار هو أستاذ للأدب الإنكليزي. كذلك كان باستطاعتي أن أدافع عن نفسي بأنه كان عيد ميلادي الخمسين وأننا كنا نتناول، اقتباس، واحدة من تلك الوجبات الطويلة التي تشتهر بها القارة الأوروبية والتي تقع في الصميم من حضارتها، انتهى الاقتباس. (والحقيقة إذا أمعنت النظر جيداً لا أدري إن كانت تلك الجملة اقتباساً أم لا، لكن لندعُها لقطة). غير أن ذلك المحلل الذي لا يتعب لشخصيتي ـ أعني أنا نفسي ـ قد أخذ شيئاً منها. كنت قد تناولت تلك الكؤوس من الشراب مع الغداء. وكانت تلك هي الخطوة القاتلة الأولى، متضمنة في ذاتها الفترة الخالية الواقعة بين الساعة الرابعة والساعة الخامسة حين يشعر المرء أنه غير مبرأ من الإثم فتدفعه، تجرفه، ترغمه العملية التي بدأها عند الظهيرة لأن يندفع في الساعة السادسة كي يعرض على ضيفه

كأساً من الشراب تعويضاً عن الساعة الخامسة، وهذا بدوره يدفع لتناول كأس أخرى، وهلم جرا. وإذا كنت قد هنأت نفسي على احتفاظي بدرجة معينة من الصحو في الساعة الثالثة والنصف من الصباح، فإن ذلك لم يكن إلا انتصاراً بالغ الضآلة إلى درجة يمكن لمعظم الناس أن يعتبروه هزيمة.

كان البروفسور الشاب المضجر ريك تكر قد حضر عند الإفطار، تذكرته فأجفلت وأنا في السرير، ثم انهرت مرة ثانية مطلقاً أنة. فمن نعم الله أنه جاء وحيداً، بلا زوجة، وإلا ربما كنت سأقوم بمحاولة معها، أو على الأقل ربما كنت سأثير ذكرياتها وعواطفها. وكنا سنشرب من جديد. لا، أنا كنت سأشرب من جديد، انتهازاً لتلك الفرصة وهرباً من الضجر، وبذلك أضرب عرض الحائط بالموقف الأخلاقي الرفيع والامتناع التام عن المسكرات ذاك الذي بدا من المتعذر كثيراً خرقه منذ الاثنين الماضي.

ثمة شيء آخر. فجوة سوداء في ذاكرتي المتعلقة بالليلة الماضية، حين كانت أمسية الصيف الطويلة قد انقلبت إلى ليل. لا، هي ليست فجوة سوداء كبيرة ـ بل لطخة تمتد بين شراب ما بعد الغداء و ـ نعم، هي الآن أصغر، أعني الفجوة السوداء، ذلك لأنني على حافتها تماماً نهضت، على ما أذكر، لأحصل على زجاجة أخرى ثم أفتحها رغم احتجاجاتهم وـ ماذا تراني فعلت؟ تفحصت بلعومي، فمي، رأسي، معدتي، فكان من المستحيل أن أصدق أن تلك الزجاجة التي أغير عليها

هي الخامسة وإلا فإن رأسي سيكون... معدتي ستكون... الفجوة السوداء ستكون...

في تلك اللحظة بالذات ـ وإذا ما أزعجت نفسي قليلاً بتقليب أوراق تلك الرزمة من اليوميات الملقاة هناك والتي أنوي أن أحرقها، يمكنني أن أحدد الساعة والتاريخ أيضاً ـ أقول في تلك اللحظة خطرت لي الفكرة، وهي أن النقطة التي يمكن أن نعتبر بها الشراب إدماناً على الكحول هي بالضبط حيث تغدو الفجوة السوداء جزءاً لا يتجزأ من الشراب. كذلك أتذكر أنني فكرت، في ذلك الوقت المبكر من ذلك الفجر ذي الجلاء المخيف، أن الأعراض تتضمن أيضاً أن المرض غير قابل للشفاء. فهو جزء من هروب العقل، من العملية الشاملة. جلست في فراشي، لكن ببطء. كانت النافذة أشد ضياء فانتقلت إلى هراء عاطفي آخر، عرض آخر، ربما، فطغى علي إحساس بالواقعية الجافية القاسية من كل جانب، حشد من قوانين غير مكتوبة ربما أثار في خينه مخاوف يصعب التفكير بها، كما هي الحال في كل ما يروى عن حالات الإدمان على المخدرات. لم يكن من الصعب علي أن أتخيل ذلك الجفاف والقسوة نفسيهما باعتبارهما الوحش ذاته، ذاك الذي لم يكن قد ظهر بعد ـ والذي لم يكن، كما فكرت باندفاعة يأس حقيقي، ليظهر قط لو تمكنت من الامتناع عن الشراب. كنت سأصارع الفجوة السوداء، أكافحها على شواطئ الاصطياف، في المقاهي العامة، المطاعم، النوادي، المشارب، في الحل، في الترحال، في الزجاجات اللذيذة اللعينة ذاتها، آملاً في

النهاية أن أجد المتعة ذاتها دون أن أدفع مالاً، أو، على نحو بديل، أن أجد المتعة في قضاء نهار هادئ وأنا أتمتع بصحوي الذهني التام بدلاً من ذاك الإحساس الشديد بالجفاف والقسوة - كنت خائفاً، على ما أذكر، خوفاً عميقاً شديداً، مروعاً، «لا»، «لا»، احتججت على النافذة المضيئة، «لا يمكن أن يكون الأمر بهذا السوء!» لكن كلمات الرجل الحكيم عادت تطن في رأسي: تذكر أن كل ما يمكن أن يحدث للإنسان يمكن أن يحدث لك!

أخيراً تماسكت. ليس هناك ما يدعى الضمان الشامل. قد تكون هناك فجوة سوداء، لكن أول ما ينبغي على الإنسان الصاحي جيداً أن يفعله هو أن يفتش عن تلك الفجوة، أن يجد ضوءاً يوجهه هنا وهناك إلى أن تغدو الفجوة التي اكتشفها لا تتعدى حالة نسيان تزداد سنة بعد سنة مع تقدم السن. ولقد دلتني حصافتي على أن هناك أداة يمكن استخدامها. كان علي فقط أن أهبط إلى الطابق السفلي، أتفحص الزجاجات الأربع الفارغة والزجاجة الخامسة الفارغة جزئياً، أتطلع حولي بطريقة شارلوك هولمز أو ميغريت وأعيد تصور الفترة الزمنية الواقعة بين العشاء والنوم بدليل الكؤوس والزجاجات، فربما هي سكرة حتى العظم وربما لا، إذ قد أجد الزجاجة الخامسة ما تزال ملأى، لم أفعل بها شيئاً سوى فتح سدادتها - في تلك اللحظة سمعت اليزابيث تنقلب في الفراش الآخر مطلقة ذاك الأنين الذي يطلقه النائم. هي ستعلم - أوه، أجل بالحقيقة! لا شك أنني كنت سأسمع كل شيء في وقت لعين ما، فلماذا

أوقظها وأسألها؟ الطريقة الوحيدة لاكتشاف الحقيقة هي أن أتسلل خارجاً بمبذلي وخفي، أجل، وبمصباحي الجيبي الذي أبقيه جاهزاً إلى جانب سريري نظراً لأن منطقتنا مشهورة بانقطاع التيار الكهربائي دائماً. كذلك علي ألا أخدع نفسي بأن أقوم بأية محاولة من تلك التي يقوم بها السكارى لإخفاء الأدلة. علي أن أتفحص الزجاجات. أسألها، أدقق فيها، وإذا لزم الأمر، أنسل من الباب الخلفي ـ لا، باب الحارس أهدأ ـ وأتوجه إلى صندوق الفضلات، علبة الرماد، القمامة، أياً كان الاسم، ثم أدقق، أعد الفوارغ. فالحقيقة أنني لم أكن أعتقد، فعلاً، بوجود زجاجة ما تزال ملأى، مفتوحة السدادة فقط. فتلك ستكون معجزة، والمعجزات، رغم أنها قد تحدث، لم تكن على ما يبدو لتحدث لي. مع ذلك، كنت أشعر بوهن شديد في ذهني أكثر مما هو في جسمي إلى درجة بدا معها التفكير بإيقاظ اليزابيت يحوِّل عن غير قصد فكرة الخروج من السرير إلى نوع من اختبار قوة الإرادة شأنه شأن الغوص في الماء البارد تماماً، وأنا لم أحب الماء البارد قط.

في تلك اللحظة وجدت ذهني المتموج يستقر ويثبت. كان الغطاء البلاستيكي لصندوق القمامة المنتصب خارج الباب الخلفي قد سقط، الأمر الذي جعل المسألة كلها واضحة بشكل من الأشكال. لم أعد سكيراً نادماً، بل غدوت رب منزل مغضباً. يا سيد، إلى متى ينبغي علينا، تحت ستار المحافظة المتنورة، أن نتحمل عمليات السلب والنهب التي تقوم بها تلك المخلوقات السمجة وفي الوقت نفسه نتعرض لخطر العدوى

بمرض حسبنا ذات يوم أننا قد قضينا عليه؟ يا سيد، في الوقت الذي ينبغي علينا أن نفكر فيه، يا سيد ـ يا سيد، يا سيد، يا سيد...

حيوان لعين ذاك الذي يدعونه الغرير. وثبت من فراشي، دون أن أهتم إن كانت اليزابيث ستستيقظ أم لا. البندقية الوحيدة الموجودة في منزلي كانت قديمة لكنها بندقية ضغط قوية كنت قد حصلت عليها مع علبة من الخرطوش في ظروف أتفه وأكثر من أن تستحق التسجيل. كاتب ـ لا، كاتب مشهور ـ لا، ياللعنة! ويلفريد باركلي يطلق النار على غرير. هل كان ثمة قانون يمنع ذلك، شيء يعود لعهد الملك جون أو ما شابه؟ أليس مسموحاً لك أن ترمي غريراً يعيش في أرضك؟ كان ذهني قد استعاد جلاءه على نحو خارق للعادة وكانت آثار الشرب الباقية قد اندفعت اندفاعاً مدهشاً نحو المؤخرة. فأحسست بأنني نلت الغفران. لعل إمكانية قتل كائن ما هي الامتياز المتوارث الذي يتمتع به ابن الريف. لففت نفسي بمبذلي ولبست خفي، ثم تسللت على رؤوس أصابعي باتجاه السلم، ماراً بغرفة النوم الاحتياطية التي كان ضيفنا ينام فيها وحيداً. اختطفت البندقية من الخزانة القريبة من موقد غرفة الطعام ثم حشوتها وجهزتها. بعدئذ سرت على أصابع قدمي عبر المستنبت الزجاجي الدافئ، فتحت الباب ودققت النظر في كل مكان من الزاوية.

هناك كان المأزق، ترى كيف تطلق النار على غرير

وليس باستطاعتك أن تتبين أكثر من الإطار العام لصندوق القمامة؟ كان ذلك المخلوق يمسك بمخالبه الحافة غارزاً رأسه في الأسفل منقباً بكل قذارة وشره في فضلاتنا. ربما كان يلحس قطعة من المعجنات أو يقضم شريحة من لحم خنزير عتيق أو عظم خنزير مقدد. إنها طبيعة الوحش فيه وربما الطبيعة القابلة للانخداع لكن فقط من جهات خاصة. بعد ذاك (ترى هل كانت البرودة في الجو تستمر طوال أيام السنة؟) أقول، بعد ذاك عاد السؤال من جديد: ترى هل حيوانات الغرير خطرة ـ ليس فقط بسبب نقلها للأمراض، بل هي فعلاً خطرة الأنياب والمخالب؟ هل يمكن لغرير جريح أن يهاجم؟ هل يمكن لغرير مصاب أو غرير مع صغيره (هل كان معه صغيره؟) أن ينشب أنيابه في عنقي؟ لم يكن الموقف بسيطاً وقد زاده تعقيداً منظري المضحك، فقد كنت أرتدي منامة عتيقة وكنت قد ربطت حزام مبذلي في مكان أعلى قليلاً من المكان الذي ينبغي أن تنشد فيه منامتي على خصري إلا أنها كانت أعتق بكثير من أن تفعل ذلك. ففعلت ما كانت تفعله دائماً أي حتى في الظروف المتعاكسة، فتنزلق للأسفل سواء خف وزني أم زاد. كنت أحمل البندقية المحشوة بيد وباليد الأخرى المشعل ولم يكن لدي يد ثالثة أمدها للبنطال الذي سقط في تلك اللحظة وعلى نحو مفاجئ إلى أسفل رجلي دون أن أستطيع إيقافه إلا بضم ركبتي معاً. وهكذا لم يكن وضعي بوضع القادر على مواجهة غرير مهاجم. وبصعوبة ميزت لمسة ذاك الشيء الذي كنت أحياناً أحسبه نقمتي الشخصية، أي روح السخرية.

من صندوق القمامة جاءني صوت جديد. فشرعت أجر قدمي بطريقة معقدة، البندقية بيد وباليد الأخرى المشعل وفي الوقت نفسه أشبك أعلى البنطلون. هب نسيم مفاجئ فحرك أغصان الشجر في البستان مصدراً بذلك خشخشة واضحة. وصلت إلى الصندوق في اللحظة ذاتها التي كان ذلك الصوت المفاجئ قد نبه الغرير فتجمد متوقفاً عن عمليات بحثه. كان يقف في مواجهتي وليس بيننا سوى الصندوق. رفع الغرير ناظريه إلي ثم أطلق «الصرخة المخنوقة» الحقيقية الوحيدة التي سمعتها طيلة حياتي خارج عالم القصص والروايات. وكانت تلك الصرخة بداية صوت حاد يعبر عنه في الرسوم الهزلية على شكل ازدراد بلعة كبيرة. فمن الحافة الأخرى لصندوق القمامة كان قد ارتفع أمامي وجه البروفسور، ريك تكر ينيره ضياء الفجر. وكان ينبغي أن أنزعج عليه لكنني لم أشعر بأي انزعاج. كان قد أصابني بالسأم وكان قد جاء متطفلاً، مبدياً كل علامة من علائم التجسس علي كي يصنع مني وجبة مهنية له. وهاقد أمسكت به متلبساً بما لا يخطر ببال إنسان. تكلمت بصوت طنان رنان، وليستيقظ العالم كله. ما يهمني؟ بل لماذا ينبغي أن أخفي حقيقة كتلك الحقيقة وهي أنني وجدت بروفسوراً كاملاً في الأدب الإنكليزي ينقب في برميل قمامتي؟

«لابد أنك جائع ياتكر. أنا أسف لأننا لم نطعمك على نحو أفضل»، فلم ينبس ببنت شفة. كان باستطاعتي أن أرى باب المطبخ خلفه مفتوحاً لكن يدي الاثنتين كانتا مشغولتين

ولم أكن قادراً على الإشارة بواحدة منهما فأشـرت بالبندقيـة باتجاه الباب الأمر الذي جعل إصبعي تشد علـى الزنـاد (أنـا الذي لم أكن معتاداً كفايـة علـى استخدام البنـادق في تلـك الأيام). وفي الحال انطلقت البندقية بصوت ربما لم يكـن في النهار سيبدو أشد من فرقعة سدادة فلين لكنه في هدأة ذلـك الفجر بدا أشبه بالطلقة الأولى ليوم بدء العمليات. ولعل تكر أطلق صرخة مخنوقة ثانية لو كان بإمكاني أن أسمع. لكن مـا سمعته حينذاك هو صوت الطلقة وصداها ثم صيحات بـدت أشبه بصيحات جميع الطيـور الموجـودة علـى مـدى أميـال. استدار تكر ثم تحرك كـالغرير، متثـاقلاً داخـلاً إلى المطـبخ. فحجلـت وراءه ثم أشـعلت النـور، بعدئـذ أغلقـت البـاب ووقفت واضعاً البندقية بجانبه. وعلى كرسـي ثلاثـي القـوائم بجانب طاولة المطبخ وجدتني أغوص، كمـا لـو أن المقابلـة أو تتمة المقابلة السابقة كان لابد منها، فيما غاص تكر علـى كرسي آخر في الجانب المقابل مـن الطاولـة. وكـان وضـعي المثير للسخرية وكذلك عدم كفاءتي قد قلبا غضبي إلى ثوران «بحق الله ياتكر!».

على أحد خديه كانت لطخة مـن طعـام مـا، وعلـى قفـا كفه كانت بقعة من مربى وورقة شاي أو اثنتان. وكان ذلك أكـبر دليل على مقدار بحثه وتنقيبه في برميل القمامة بـل علـى فتحـه الأكياس البلاستيكية التي أخرجت ليلتقطهـا رجـال البلديـة، أو كما يمكن لتكر أن يقول، المهندسون الـصحيون حـين يمـرون بنا في ما كنت أدعوه عادة بمهرجـان قريتنـا. كانـت يمـنى تكـر

تمسك بكومة من الورق المجعد المختلط، ورق أحسب أنني كنت قد تخلصت منه قبل أربع وعشرين ساعة فقط. وكانت هناك قطعة من الورق قد علقت بمبذله، قطعة كتبت عليها خربشات صبيانية.

«يا إلهي! تكر! أنت ـ هل تعتقد أنني ألقي ـ؟ حسناً ـ».

وتذكرت وقد عراني ضيق مفاجئ، فالأمر لم يكن بسيطاً.

«مالقيته هناك ياتكر هو ما يدعى عموماً ببريد المعجبين. أنا لا يأتيني الكثير منه لكن ما يأتيني لا يزيد قيمة عن ورق مرحاض جيد. بإمكانك أن تأخذ بعضه إن شئت».

«رجاء، ويلف».

«لقد جرحت نفسك. لابد أنه كان في برميل القمامة زجاج مكسور». فتأرجح على الكرسي ذي القوائم الثلاث.

«بل الطلقة...».

وكان ذلك أشبه بسماع الصرخة المخنوقة للمرة الأولى، أشبه بسماع كلمة «طلقة» للمرة الأولى.

«يا للمسيح!».

ثم وثبت ملء طولي، فخطوت خطوة وتمسكت بالطاولة لأنقذ نفسي. كان بنطال منامتي قد سقط حتى كاحلي، فرفسته متخلصاً منه وكأن جدية الموقف الفظيعة قد لمعت فجأة في

ذهني. إنه انقلاب مفاجئ طغى على كل التطورات الأخرى فبعد أن كنت على صواب مطلق بت على خطأ مطلق.

«هيا، دعني أرها».

«لا لا أنا على ما يرام».

«هراء، يا رجل، تعال».

«أظن أنني سأتجاوز ذلك».

هنا أمسكت برباط مبذله، ففككت العقدة ثم سحبت كل ما يلبسه كاشفاً كتفيه، فبدا أمام عيني صدر كثيف الشعر، ثم دغل من الشعر يضيق وهو ينحدر من الصدر حتى ذلك العش الخاص ذي الشعر الأشد كثافة.

«أين هي، بحق الله؟».

لم يحر ريك جواباً بل اكتفى بالتمايل ذات اليمين وذات الشمال. كان المبذل قد سقط على ذراعه من العضد حتى الزند. وكنت قد شجعت نفسي لتقبل ذلك الكشف اللعين. أنزلت المبذل حتى معصمه. وهناك رأيت كدمة وخدشاً، وكان خط من دم قد سال حتى قفا يده.

«تكر، أيها الأحمق!! أنت لم تصب بأذى على الإطلاق؟».

في تلك اللحظة، وكأن ذلك بإشعار محدد، فتح الباب إلى اليسار. ثم دخلت اليزابيث ماسحة بنظرة سريعة من عينيها صدر تكر الأشعر العاري وبنطال منامتي الملقى أرضاً.

«أنا لا أود أن أكون فضولية لكنني أظن أن الوقت صار متأخراً ومن الصعب كثيراً أن ينام المرء أو يقعد هناك. أليس بإمكانكما أن تكونا أكثر هدوءاً حول ذلك؟».

«حول ماذا، ياليز؟»

«حول ما تفعلانه، أياً كان».

ألا تستطيعين أن تري؟ لقد أصبته بالنار. فقد كان في برميل القمامة، صندوق النفايات علبة الرماد... ـ أوه، يا إلهي، أنا عاجز عن الشرح».

ابتسمت اليزابيث بعذوبة مخيفة «لا أشك البتة أنك تستطيع الشرح حين تعطى الوقت الكافي يا ويلفريد».

«ظننته غريراً. وقد انطلقت بندقية الضغط بصورة عرضية، كما ترين...».

«نعم، أنا أرى». قالت اليزابيث على نحو ساحر «حسن، إن كان في نيتكما الاستمرار، فالرجاء لا تخيفا الخيول».

«ليز».

لكنها انحنت ثم التقطت قطعة ورق كانت قد سقطت من تكر في مكان ما. وبيد ارتفعت حتى مستوى شعرها فتحت الورقة، قرأتها بصمت أولاً ثم بصوت عالٍ.

«... بغاية الشوق للقياك. لوسيندا».

عند ذاك قلبت الورقة ثانية ثم تشممتها فعل الخبير المتمكن «ومن هي لوسيندا؟».

بعدئذ، وكأنما بدلت الأقنية، أصبحت ضيفة بكل ما في الكلمة من معنى، عليها أن تتأكد من أن صدر تكر المخفي تحت الشعر لم يكن قد أصيب، مشيرة إلى أن الأمر كله إنما هو نوع من المزاح الذي كانت معتادة عليه وتستمتع به. بعد ذاك سرعان ما تركتنا ونحن نجلس بهدوء إلى الطاولة. كان أثر الشراب الباقي قد عاودني، بل ازداد إلى درجة لم يكن بالإمكان تحمله لولا شدة الغضب الذي كنت أشعر به.

«أتمنى من ربي لو أنني قتلتك!».

فأحنى تكر رأسه علامة الخضوع، راغباً من كل قلبه أن يقتل رمياً بالرصاص في سبيل العلم والبحث، بل مانحاً إياي الحق في أن أفعل ذلك، الأمر الذي أدهشني كل الإدهاش. كان الرجل على استعداد تام لأن يستسلم لحقي العجيب في السيطرة على كل شيء في العالم الواسع ما عدا الكلمات التي كتبتها أو تلقيتها، تلك التي كانت بطبيعتها، لا بطبيعتي - أوه، ياللعنة! فحتى هذه اللحظة، يمكنني أن أتذكر كراهيتي لتكر، خوفي من ليز وغضبي من لوسيندا الحمقاء المجنونة. كنت أفور غضباً من نفسي وسخطاً محضاً من لا معقولية الواقعة كلها، من سخفها المثير للضحك. فخلف أحابيل الورق، مناورات الحبكات، تحليل الشخصيات، حلول العقد والقرارات، هناك، في ذلك العالم الحقيقي، كان برميل قمامة حقيقي، حيث الأعمال المخزية لأحد الناس قد أظهرت للنور جملة ظروف كنت أحسب أنني أخفيتها عن صاحبة العلاقة

وأنني تخلصت منها كلية. وفي هذا كله، لم أكن قد حصلت على الراحة التي يقدمها لك الموقف الأخلاقي، بل اللا أخلاقي فقط.

«تكر».

«كنت تدعوني ريك، يا ويلف».

«اسمع تكر، غداً تغادر. أعني اليوم. ولا تعد أبداً. أبداً. أبداً، أبداً، أبداً، أبداً».

«إنك تجعلني في منتهى الشقاء يا ويلف».

«اذهب إلى فراشك، بحق الله!».

ثم استندت بمرفقي إلى الطاولة واضعاً جبهتي بين راحتي، ذلك أن قنوطاً قاتماً كان قد أصابني فجأة.

«اذهب إلى فراشك، انصرف، اخرج. دعني وحدي، وحدي ـ».

فأجابني من أعماق سخفه المشبع بالاحترام.

«فهمت يا ويلف. إنه الشعور بالذنب».

أخيراً أغلق باب المطبخ خلفه. كان الإشفاق الخالص على الذات يملأ التجويفين المظلمين خلف أجفاني بالدموع. لوسيندا، اليزابيث، تكر، الكتاب الذي كنت أعمل فيه بصورة بالغة السوء ـ الماء المراق في راحتي، الطريقة التي سال بها الدم من تكر. وعلى غصون الأشجار كانت جوقة الفجر قد بدأت معزوفتها فرحة جذلى.

في الحال فتحت عيني. أجل، بالطبع، كنت سأعرف. فالدليل كان يحدق إلي وجهاً لوجه. هناك بجانب المجلى، كانت الزجاجة التي فتحتها ولم أستطع إقناع أحد بشربها فارغة وإلى جانبها زجاجة أخرى، فارغة أيضاً.

وللتو غدا الصداع، إثر الشراب الباقي، غير محتمل. فمضيت أفتش عن أقراص مسكّنة سرقت بعضها من أقراص ليز التي أثبتت فعاليتها في السابق وبجانب الباب الخلفي كانت علبة القمامة قد سقطت فتعثرت بها وأنا أخرج غاضباً - في تلك اللحظة كان مخلوق أسود وأبيض ذو مظهر مزبئر الشعر يجري محاذياً لضفة النهر، متجهاً نحو سد الطاحونة حيث يمكنه عبور النهر إلى الغابة المقابلة. كان برميل القمامة، الدليل، ملقى على جانبه وكان هناك أثر من فضلات منزلية، بقايا، علب كرتون، زجاجات، نتف لحم، قشور بيض، يمتد بدءاً منه، لاحقاً أثر الغرير وفي قلب تلك الفوضى كان هناك ورق مخربش عليه، ورق مطبوع، أسود وأبيض، ملون - ورق، ورق، ورق!

كان ذلك أكثر من أن أحتمل، فمهرجان القرية، ذاك التجميع الأسبوعي لفضلات أماسينا كلها، كان ينبغي أن يجري. مع ذلك عدت إلى الداخل أزحف، حسب اعتقادي، بكل لطف وهدوء، ثم فتحت باب «مخدعنا» لنور الفجر الأغبش فالتفتت اليزابيث.

«أنا لست نائمة».

«انظري، ليز -».

«بغاية الشوق للقياك. لوسيندا».

وجدت نفسي أشد بؤساً من أن أتكلم. لممت اللحاف عن فراشي ثم شققت طريقي، نصف أعمى، إلى الجحر الذي أدعوه أحياناً مكتبي. كانت جوقة الفجر قد اختفت، فأدركت أن ضجة صباح الإثنين ستبدأ قبل أن يكون رأسي قد وجد مكاناً ينجو فيه من الدمار. في تلك اللحظة ـ لا، ليس اللحظة بل الوصلة ـ ميزت شيئاً ليست بدايته سوى نوى من التشنج. في برميل القمامة كانت هناك صور فوتوغرافية ممزقة أيضاً. لماذا يا ترى فتشت تلك الصناديق لأتخلص من مصادر خزيي القديمة، من ماضيّ، ثم ألقيها كلها في برميل القمامة بدلاً من حرقها؟ لماذا أخبرت تكر؟اذا كان هو مصمماً، عازماً ذلك العزم كله، أحادي البعد، أحمق؟ لولا ذلك، إذن لكانت الآن في مكان ما من تلك النفايات المنثورة الممزقة المجعدة المشعثة، الملوثة بالمربى أو الدهون ـ ولم يكن أحد يعلم بها سواء من أهل البيت أم الخدم أم خارج أهل البيت، من زبالين أو باعة حليب ـ بل ربما كانت قد وجدت طريقها إلى جوف غرير أو برازه: النقطة الأساسية هي أن ريك تكر وغريراً مشهوراً بغرائب سلوكه كانا قد عرضاني عند الفجر لخطر فقداني زوجتي وكرامتي في الوقت نفسه. الجد والتصميم الوضيع اللذان كانا في البداية يبدوان مثيرين للسخرية باتا في تلك اللحظة يهددانني كالوباء. كان كل الورق على ما يبدو، قد أصبح دبقاً بطبيعته وسواء كان ذلك شحماً أم مربى لم يكن باستطاعتك أن تتخلص منه إذا ما علقت به. كان ذلك ورق ذباب وكنت أنا الذبابة.

كان شركاً أشبه بخناق الذباب أو الندية[1]، وكانت آثار الخطا التي يتركها المرء على رمال الزمان هي التي رأيت حينذاك أنني أود ألا أتركها ورائي.

* * *

(1) نبات عشبي تفرز أوراقه عصارة تعلق بها الحشرات.


Twitter: @alqareah

الفصل الثاني

«ومن هي لوسيندا؟».

تلك كانت بداية النهاية لزواجي أنا وليز. أبداً لا تتزوج امرأة تصغرك بعشر سنوات. لقد ظللنا سنوات في حال أشبه بتلك التي يدعوها القانون بالطلاق. إذ كنا وما نزال وسنظل دائماً مرتبطين بذلك الارتباط العميق، لا ارتباط الحب أو الكراهية ولا تلك الصيغة السخيفة من ارتباط الحب/الكراهية. أياً كانت التسمية، فقد كان ثمة ارتباط نستمتع به، نكافح ضده، نعاني منه. لقد كنا غير متلائمين البتة وغير قادرين على صنع أي شيء سوى التنافر، فليز طالما كانت صحتها سليمة معافاة كنت تراها مندمجة وأخلاقية أما أنا فقد كنت أعيش ضمن قناعة بسيطة كما أرى الآن، وهي أنني لا أستطيع أن أبقى مندمجاً إلا بفضل اللا أخلاقية، هذه اللا أخلاقية حملت معها ضرورة الإخفاء ـ لكن من تراه يعلم الآن ما الذي كانت ليز تعرفه أو تشك فيه؟ تلك القطعة القذرة من الورق كانت الخميرة الحفازة ولو أنني كنت واعياً إلى حد كاف فربما كنت سأرى في ظهورها من صندوق القمامة جانباً من نموذج عام كان علي أن أبرهن أنه شامل. فعلاقتي بلوسيندا يعود تاريخها لما قبل زواجي بليز أما في فترة صندوق القمامة فقد كنت متورطاً في علاقة مع فتاة نجحت تماماً في إخفائها، أهي سخرية القدر؟ أم هي عين أوزيريس؟

بعد أن ضبطت في المطبخ مع ريك تكر وقطعة الـورق، انقدت إلى الـشيء الوحيـد الـذي لم أكـن قـد اعتدتـه قـط أي الإفضاء بكل شيء. وخلافاً لكل التوقعات (خاصة ما يكتـب في الروايات) فقد اسـتوعبت اليزابيـث المـسألة لكنـها لم تغفـر لي وبعد تفكير ملي (عجوز يجلـس تحـت الـشمس) أظـن أنهـا لم تكن تريد إلا مبرراً، باتت شجاراتنا أعنف من المبـارزات. فقـد كنا مصقولين لكننا لم نكن متحضرين. وهكـذا رحلـت وأقمـت في أرخـص نـاد مـن نـوادي بعـد أن أخبرتهـا بـأنني أسـامحها بالمنزل، الحديقة، الترويض، الخيول، السيارات، الـزورق، الشركة المحدودة، بكل شيء، إذ لم يعد باستطاعتي التحمـل. غير أن تعليمات النـادي لم تكـن تـسمح إلا بعـدد محـدد مـن الليالي يمكن للمـرء أن يقـضيها فيـه. وهكـذا حـين عـدت إلى البيت لأطلب السماح، وجدتها هي نفسها قـد رحلـت، تاركـة ملاحظـة تقـول إنهـا تـسامحني بـالمنزل، الحديقـة، حقـول الترويض، الخيول، السيارات، الزورق، الـشركة المحـدودة، وكل شيء إذ لم تعد تستطيع التحمل.

لكن حتى في تلك المرحلة كان مـا يـزال باسـتطاعتنا أن نجتمـع معـاً ونتـابع علاقتنـا الـشكلية إلى أن تمنحنـا الـسن واللامبالاة حس الدعابة المتبادل. غير أنه ظهر في الأفـق ذلـك المخلوق البهيمي كابستون باورز، فقام جوليان في حينـها بفـرز كل شيء ـ المباني، الأثاث، الممتلكات وكـل شـيء ـ وانتـهى الزواج كما ينتهي كل زواج بعمر زواجنا عادة. الطـرف الوحيـد المتضرر، حسب اعتقـادي، إنمـا كـان ابنتنـا الـصغيرة اميلـي.

قابلت همفري كابستون باورز مرة واحدة فقط، بناء على موعد وفي النادي الرخيص نفسه، الرانـدوم، حيـث كـان أعـضاؤه ـ أقصد نحن الأعضاء ـ غريبين تماماً لا يربطنـا إلا الـورق، بـدءاً من الإعلانـات وهزليـات الأطفـال وانتـهاءً بـالأدب الإبـاحي. ويمكنك القول إنه، إذا وضعتني جانباً، فإن أهـم عـضو بينـهم إنما كان آنون. رمق كابستون باورز من طرف أنفه الحشد ولابـد أنه لم يكن قد رأى قط ذلك القدر من النـاس. ولـشدة ضـغطي عليه، لاحظ أننا كنا كلنا أشبه بالـدغل. ولكـي أعطيـك صـورة أكمل عن الرجل أقول إنه كان يصطاد الحيوانات الكبيرة في كل أنحـاء العـالم، ويـشترك في مباريـات البيـزلي[1]. وعنـد انتـهاء مقابلتنا القصيرة التي أجريناها، كما قلت، «كـي نـضع الأمـور في نصابها»، كنت أعد نفسي للوصول إلى النقطة التي يمكـنني فيها أن أستخدم ثروتي اللغوية الكافية لكي أقول له رأيـي فيـه، لكنه في تلك اللحظة قال وبكـل مـا في الـصراحة المطلقـة مـن بساطة «تدري يا باركلي؟ أنت خراء...».

من هذا يمكنك أن ترى أي صنف من الرجال هو، أعـني كابستون باورز.

حسن.

حرية في الثالثة والخمسين!! أي هـراء! أي هـراء لعـين! فالحرية هي ما واجهتني. ونصيحتي هي: لا تجربهـا. إن رأيتـها قادمة صوبك، اهرب. وإن أغرتك بالهرب، امكث حيث أنـت.

---

(1) نوع من البنادق.

وصدق أو لا تصدق، كان رأسي مليئاً بالجنس الذي ينتظرني، بصور الفتيات الصغيرات في السن إلى درجة تكفي ليكن حفيداتي، تقريباً. ولعل ذلك هو السبب في أنني لم أبال بإقامة كابستون علاقة مع ليز. إذ لم يعد لي شأن بها ولم يكن هناك ما يهمني بالنسبة إلى رابطتنا المتعذر تحطيمها والمتعذر تحملها. غير أن الصغيرة المسكينة كانت مهتمة ففرت من المنزل وكانت الشرطة هي التي أحضرتها. وكان باستطاعتي أن أفهم حجتها، فما سمعته منذ ذلك الحين، كانت حتى الخيول تكره كابستون باورز.

بدأت التطواف. كان لي معارف كثر إنما القليل من الأصدقاء. وقد أقمت لدى واحد أو اثنين منهم. بل إن أحد هؤلاء الأصدقاء كان امرأة لكنها برهنت أنها أكثر أكاديمية وجدية وبنيوية من أن يقيم معها المرء. يا إلهي! ربما كان من الممكن أيضاً أن أحيا مع ريك تكر!

رحلت إلى إيطاليا وفي الحال لعبت سخرية القدر دورها، إذ وجدتني أصادق امرأة إيطالية من عمري تقريباً. وأغرمت بها على ما أظن، لكن ما أبقاني هناك مدة تزيد على السنتين إنما هو بيانو من نوع نوبل أشبه بمتحف وخدم يخفون سخريتهم. ولقد كنت فظاً، على ما أذكر ـ أوه باركلي، باركلي، أي متغطرس مغرور أنت! ـ إلى درجة هتفت معها لإليزابيث وطلبت إرسال إميلي إلي فترة من الزمن. لكن إميلي كرهت إيطاليا، كرهت مكان إقامتي، كرهت صديقتي ويوسفني أن أقول إنها كرهتني أنا أيضاً. لذلك عادت ولم نلتق بعد ذلك طيلة سنوات.

طوال ذلك الوقت ظل البروفسور تكر، رغم أنني لم أكن ألاحظ ذلك إلا لأنه يثير غضبي قليلاً، ظل يرسل لي رسائل حرصت اليزابيث على توجيهها من جديد نظراً لأنها كانت تعطيها مبرراً لمناكدتي فيما يتعلق بأوراقي، تلك التي كانت متناثرة في أرجاء المنزل كله وكانت تتزايد يوماً بعد يوم وهي تأتي من هذا المصدر أو ذاك. وكنت أتجاهل تلك الرسائل. لكن حين أرسلت لي برقية تقول: «بحق الله يا ويلف. ماذا علي أن أفعل بأوراقك؟» حينها فقط أجبت «احرقيها تلك الأوراق اللعينة» غير أنها لم تحرقها، بل قامت بتعبئتها في صناديق شاي وحفظها في قبو الخمور. وكان كابستون باورز، خارج دنيا الصيد والبواريد، جاهلاً إلى درجة لا يستطيع أن يفهم قط ما يمكنها أن تساوي في المزاد أو، على أسوأ تقدير في السوق العادية.

انتهت علاقتي الإيطالية. والحقيقة هي أن الدين، الذي اتخذ شكل بادري بيو، هو الذي أنهاها. فذات مرة، وبدافع الفضول وحسب، ذهبنا إلى واحد من تلك القداسات الصباحية التي تنتهي دائماً بنوع من الفرار الجماعي للمؤمنين التواقين لأن يلمحوا بأعينهم لمحة سريعة علامات الصلب البادية على الرجل قبل أن يأخذه مساعدوه بعيداً. ولقد صدمت بعض الشيء حين رأيت تلك المرأة المتحضرة الباردة تنخرط مع بقية الحشد في الزحام. أخيراً عادت إلي، وقد أنزلت حجاباً على وجهها تسيل الدموع من خلفه مدراراً. كما غدا صوتها أجش مشحوناً بذلك النوع من الحزن المنتصر.

«والآن، هل يمكنك أن تشك؟».

فأثار ذلك غضبي.

«كل ما رأيته هو عجز مسكين أخذوه شبه ـ محمول من المذبح. وهذا كل شيء».

لم تنبس بكلمة أخرى في الكنيسة لكن الجدل بدأ من جديد حين جلسنا في المقعد الخلفي من السيارة ونحن في طريقنا إلى «المنزل». والآن أعلم أن الأمر المهم في رد فعلي وكذلك في رد فعلها هو أننا تورطنا كلانا في النقاش، الأمر الذي ساقنا لأن نتشاجر شجاراً مريراً. حجتي التي انطلقت منها هي أنه ليس هناك معجزات.

«انظري، ذلك جنون، الأمر كله جنون».

«لقد رأيتها، أقول لك، أنا رأيت الجروح بعيني. لتسامحنا يا رب، فنحن لسنا جديرين حتى بأن ننطق الكلمة».

«لنفترض أنك رأيتها، ماذا يعني ذلك؟».

«ليس هناك افتراض».

«في أمور كهذه، يمكن أن يخيل للناس أشياء وأشياء. إنه أشبه بالحمل الزائف ـ حين تظهر على المرأة أعراض الحمل كلها ولا يكون ثمة طفل. ثم تذكري القصة التي رويتها لك حين كنت موظف مصرف».

«أنت مقرف، يا ويلفريد باركلي».

«فبعد ذلك، بعد سنوات، ها هي ذي يدي انظري إليها! لقد كنت منوَّماً تنويماً مغناطيسياً. أعني كنت، وبكل ما في الكلمة من معنى، منوماً من قبل رجل محترف. كان ذلك في حفلة وكنت في...».

«آه... يالي منك! يالي منك!!».

«هل ستسمعين؟ أجل... الأنانية. فأنا لم أكن أظن أن باستطاعة أحد أن يفعل بي شيئاً كهذا، لكن ماذا حدث؟».

«ليس لدي رغبة في التحدث عن ذلك».

«هناك، على قفا يدي، كانت الأحرف الأولى من اسمي تلتهب مثل ندوب، تلتهب مثل حروق».

«قلت لك لا أرغب في التحدث عن ذلك».

(لكن الرجل كان يعلم. فتلك هي نقطة انتصاره، قوته. إذ كان في ابتسامته نوع من الرضى الذاتي الذي يثير السخط. «لديك استعداد كبير لتقبل الإيحاء التنويمي. تصفيق للسيد باركلي، أيها السيدات والسادة!»).

«انظري يا عزيزتي. أنت لا ترغبين في التحدث عن ذلك وأنا لا أرغب في إيذائك ـ لكنك ترين أن الإيحاء يفعل أشياء كهذه!».

«عجوز ينزف دماً يوماً بعد يوم، سنة بعد سنة. إنه يتيح للإله أن يتخلص منه في مكانين في آن معاً لأن محبته الإنسانية أكبر بكثير من أن يستنزفها مكان واحد، الجسم المسكين ـ».

ثم انفجرت المرأة الخارقة للعادة بالبكاء.

بعد ذلك، لم نشتبك طبعاً في أي عـراك. بـل سـاد بيننـا نوع من الهدنة على ما أعتقد. فقد بدأت أعاملها بكياسة شـديدة بعيدة عن التفهم، مبتعداً عنها ما استطعت. كذلك انسحبت هي نفسها من وجودي، باتت تعاملني معاملة ليز، أي مضيفة بكـل ما في هذه الكلمة من معنى. عندئذ بات الخطر في المـسألة هـو أن يأتي ناس إلينـا، وأنـا أرغـب دائمـاً أن يـأتي التـصرف مـن المرأة.

بل حتى والأمور هكـذا، كـان بالإمكـان أن تنتـهي علـى نحو مختلف لو لم تلفت انتباهي مسألة أخرى. فقد كان علي أن ألقي محاضرات، وهو أمر مسلٍ بمعـنى أن امـرءاً أنهـى تعليمـه في الصف الخامس كان يجد نفسه وسط باحثين وعلمـاء. لكـن الحقيقة أن ما بدأ يدغدغ مشاعري على شـكل إطـراء ومجاملـة بات يسبب لي البرم والضيق ـ بل ما هو أسوأ. فقد كنـت، كمـا سبق وذكرت، أدعـى أحيانـاً لإلقـاء محاضـرة لـصالح بـلادي. وكنت أفعل ذلك عن طواعية، في تجمعـات مـن الأكـاديميين. ورغـم أنـك، كمـا تـرى، قـد تتـهم ويلفريـد بـاركلي بجهلـه باللاتينية قليلاً وبالإغريقية أكثر، إلا أنه كان خبيراً بعض الـشيء بعـدة لغـات، عميـق الاطـلاع علـى الكتـب الـسيئة أكثـر مـن الجيـدة، بـل لديـه موهبـة خاصـة في ذلـك. وقـد اضـطر الأكاديميون للاعتراف بأنني، بعد كـل تحليـل، كنـت بالـضبط الشخص الذي يبحثون عنه. هنا أكرر أنني لم أستفيد شيئاً سـوى

ذلك الشعور بالإطراء، وربما ذلك الإحساس الضئيل السخيف بأن بلادي بحاجة إلي، إضافة إلى ما أحسه في نفسي بين الحين والحين من اهتمام بمكان غريب جديد علي. كان قد مضى وقت طويل على خلاصي من البنس، والبنس هو من بين كل الأشياء، من بين كل الناس، ذلك الغرير الذي وجدته في صندوق القمامة، أي ريك تكر.

في فترة الشجار الذي دار حول علامات الصلب مع صديقتي الإيطالية التي تصرفت تصرف سيدة رفيعة المقام رائعة، كنت على وشك السفر إلى إسبانيا. وكنت قد ناقشتها صاداً إياها دون أن أراها إلا وهي تصل بسرعة إلى النهاية التي كانت ستزيد الطين بلة. وكم أود الآن لو تركت الأمور في ذلك الحين على حالها وصمتّ، محافظاً على كرامتي.

«حسن، أنا راحل».

فلم تلتفت التفاتاً كاملاً لتواجهني، بل لفتت رأسها بحيث أرى جانب وجهها ثم قالت «يكفي».

«ماذا تعنين؟».

«نحن الإثنين».

«لماذا؟».

«يكفي، وحسب».

فكرت بأن أطرح عدداً من الاستفسارات، كما فكرت بأن أعترف بقسوة ردي على بادري بيو وأن أعرض فكرة

الذهاب إلى العجوز المسكين وأمنحه فرصة إهدائي إلى الدين القويم حين أعود من سفري، فالزمن، كما كنت أعتقد، هو وحده حلّال المشاكل العظيم.

«حين أعود، نتحدث».

«اذهب! اذهب! اذهب!».

وبما أن ذلك لم يكن كافياً فقد ألحقته بعاصفة من الكلام الإيطالي البذيء، على ما أعتقد، والذي لم أفهم منه سوى التغير العام لموقفها مني، من البروتستانت، من الرجال ومن الإنكليز الذين كنت أمثلهم في نظرها.

وهكذا غادرت إلى مؤتمر في إشبيلية، أقيم في المصنع القديم للتبغ الذي يتذكر من يعرفه من قبل أنه هو نفسه ذلك المكان الذي كانت كارمن تهز وركيها فيه، رغم أنه الآن ليس سوى جامعة. كان من عادتي في المؤتمرات أن أبقى في الزاوية حتى آخر يوم، حين يأتي دوري لأظهر ككاتب. لكن البروفسور الذي دعاني قال حين سألته إن كانت هناك أية كارمن «أجل، يوجد الكثيرات» ثم انطلقت معه، ناسياً أن ذلك سيستغرق زمناً يزيد عن الوقت المحدد.

فيما بعد، تشرفت بأن رأيت أن من يقف على المنبر إنما هو ريك تكر الذي بدا أضخم جسماً من أي وقت سابق. كان يقرأ صفحات من مخطوط ضخم، وكان عدد من الأساتذة، المحاضرين، الخريجين، يحاولون، وهم يكافحون النعاس، أن يبذلوا أقصى جهدهم للبقاء مستيقظين، فيما كان البروفسور

تكر يجعل لهم الأمر أشد صعوبة. وهكذا غصت في كرسي خال في مؤخرة القاعة مهيئاً نفسي لأن أغفو.

ما دفعني لأن أستيقظ هو سماعي لاسمي يلفظه تكر بلهجته الأمريكية الخالية من أي لحن على الإطلاق. كان رأسه منكباً نحو الأسفل وكان يقرأ من المخطوط وكان ما يقرأه يدور حول جملي الوصلية. كان قد عدها، على ما يظهر، في كل كتاب. كما كان قد أعد مخططاً بيانياً، وإذا عاد المرء للملحق رقم 27، من ضمن الأشياء التي سلمتها له هيئة الإشراف على المؤتمر، سيكون بإمكانه إيجاد ذلك المخطط البياني ومتابعة استنتاجاته. نظرت حولي فرأيت بين المستمعين رؤوساً تنحني غافية ثم تنتفض من جديد، بينما كانت بعض النسوة يسجلن ملاحظات. وكان رأس أحد الذكور الجالسين أمامي قد سقط إلى الوراء مطلقاً شخيراً ضعيفاً. أما البروفسور تكر فكان قد توصل، بصوته الرتيب، لأن يشير إلى الفوارق الهامة بين مخططه البياني والمخطط الذي وضعه البروفسور الياباني هيروشيجي (هكذا بدا لي أنه لفظ الاسم) نظراً لأن البروفسور هيروشيجي لم يكن، على ما يبدو، قد أدى مهمته كما ينبغي، فارتكب، وهو الأمر الذي أدهشنا، أشنع خطأ وهو الخلط بين جملي المركبة وجملي المعقدة. والحقيقة أن هيروشيجي كان سيخسر المعركة ويخلي الساح للخبير المعترف به الذي سمع من لسان الكاتب نفسه أنه لم يكن يتحمل ذلك التأويل المفضوح، في تمثيله للمطلق أو للكلمات بذلك المعنى.

كنت جالساً هناك، مرتاحاً، وأنا أشعر أن يداً تدغدغ ذاتي، تمسدها تمسيداً لطيفاً، حين حدث ونظر ريك تكر، وهو يقلب إحدى صفحات مخطوطه، إلى جمهور مستمعيه. فقد عاد مشهد صندوق القمامة كله مرة ثانية. وجاءني صوت الازدراد أو البلع. من تلك اللحظة خفت صوته واكمد لونه. كان باستطاعتي، وأنا أصغي بكل انتباهي، أن أقول السبب. إذ كان قد سحب ذقنه إلى الوراء مخفياً إياها في قبته. لم يكن تكر من ذلك النوع من الرجال الذين يمكنهم مفارقة النص أمامهم. وهكذا ساقه تيار الكلمات المطبوعة، وبصورة لا مفر منها، إلى حيث لم يرد الوصول، حسبما سمعت. فقد زعم، كما سمعته يغمغم، أن ثمة علاقة شخصية وطيدة بينه وبيني، كما زعم (الأمر الذي لم يكن يرغب بقوله أكاديمي أكثر خبرة، لعلمه بشدة المنزلق الذي يسير عليه) أنه حصل على موافقتي الشفهية على كل ما يقوله في تلك اللحظة لجمهوره اللامبالي. بعدئذ حاول، ربما بعد أن واجهه كلام أكثر إثارة للسخط عن صداقتنا الحميمة المزعومة، أن يرتجل، متحرراً من كل قيد أو حد، فقلب صفحتين معاً مما أدى لانزلاقه كله عن المنبر وتناثر أوراقه هنا وهناك على أرض الغرفة، الأمر الذي نبه الجمهور من غفلته فتسللت، في تلك الفترة الفاصلة، خارجاً من القاعة محاذراً ألا يراني أحد. في اليوم التالي، قدمت القطعة التي كانوا قد دفعوا لي لقاء تقديمها، ثم فتشت بناظري بين الجمهور بحثاً عن أثر لريك، آملاً أن أريه ما يمكن أن يفعله قول ارتجالي لرجل يزعم أنه تربطه بي علاقة شخصية وطيدة لكنني لم أجد له أثراً. تساءلت لماذا؟ فحساسية كهذه لم تكن تليق به. بعدئذ غابت

المسألة برمتها عن ذهني نظراً لأنني عندما عدت إلى إيطاليا أخذت الأمور تسير مساراً جديداً باتجاه اللامعقول، الأمر الذي صدمني صدمة لم أكن مستعداً لها البتة. إنها مزيج من الغرابة والخسة والجنون الفظيع. كنت قد هيأت نفسي لأن أكرَّم، مع ذلك غفرت لهم أنني نزلت من الطائرة فلم أجد سيارة تنتظرني لكنني لم أستطع أن أغفر لهم حين وصلت فوجدت الباب مقفلاً بالمزاليج والقضبان. وكان إلى جانب الباب عربة مغطاة بغطاء أخضر فيها عدة حقائب رتبت كلها بعناية ويمكنك القول إنها كانت تحمل في داخلها أمتعتي الشخصية كلها. آه يا للخدم، كم تراهم ضحكوا مني!! قبعت في السيارة، إلى جانبي الملف الذي يضم أوراق المؤتمر كلها، وأنا أتساءل ما تراني أفعل، أين أذهب. فقد كنت أواجه مقلباً إيطالياً.

لحسن الحظ أن كتاب «المرفأ البارد» كان ما يزال رائجاً كما هو الآن، هذا إن لم نقل شيئاً عن كتاب «كلنا نحب الغنم» ولم تكن النقود مشكلة بالنسبة إلي. كذلك لم يكن مشكلة بالنسبة إلي في ذلك الوقت إبداع شيء جديد لكنني رأيت وأنا أقلب الأوراق التي عدت بها من المؤتمر أنني لم أكن بحاجة لذلك. هنا إذن نقطة الانعطاف لتلك القصة المضطربة كلها، علاقتي الإيطالية، بادري بيو، علامات الصلب، ريك تكر ومخططه البياني عن جملي الوصلية ـ ثم الانتقال إلى ما أرى الآن أنه أصبح التيار الرئيسي لحياتي. ذلك، أنني وأنا أجلس ذلك المساء في غرفة الفندق، كنت وحيداً وكانت الأوراق كل ما أملك وكان علي أن أقرأ. ولقد قرأت الكثير.

«المرفأ البارد» كان كتاباً رديئاً لكن الكتب التي أعقبته لم تكن رديئة بذلك القدر. فقد كانت هناك أشياء، لحظات تنبؤ، لحظات يقين، وإن شئت، كل القصص التي توهجت في ذاكرتي أو آذتني أو عانيت منها ـ ثم هُدِرت. لذلك كتبتها، لا لأحد بل لنفسي أنا الذي لم أقرأها مرة ثانية قط. كان المؤتمر قد عمل انطلاقاً من معتقدات معينة أحدها هو أن باستطاعتك أن تفهم الكل بتفريقه إلى أجزاء منفصلة. الثاني هو أنه لا جديد تحت الشمس. فالسؤال الذي ينبغي طرحه حين تقرأ أي كتاب جديد هو: من أي كتاب آخر أخذه الكاتب؟ أنا لا أقول إن هذا كان ضوءاً يعمي النظر ـ وأي شيء آخر ينبغي على الأكاديميين أن يفعلوه يا ترى؟ بل أقول إنني اكتشفت الطريقة الاقتصادية المناسبة لكتابة كتابي التالي. ولقد فعلت ذلك وأنا أعيش على شاطئ بحيرة تراسيمين. لم أكن بحاجة لأن أخترع، أغوص، أعاني، أتحمل ذلك الألم الضروري على نحو غامض وأنا أتابع ذلك ـ الذي لا يمكن قراءته. هناك، على أطراف جبال الأبنين، كان التاريخ العائلي لصديقتي السابقة قد جعل الاختراع أمراً غير ضروري. وهكذا كتبت كتابي «الطيور الجوارح» في زمن لا يستحق الذكر تقريباً وبما لا يزيد عن خمسة بالمائة من طاقتي ـ علماً أنها ليست الخمسة المئوية العليا أيضاً ـ ثم أرسلته إلى وكيلي جنباً إلى جنب مع بعض العناوين التي ينبغي إرسال بريدي إليها لاحقاً ثم ركبت سيارة أجرة ورحلت.

كانت الكهولة تغادرني وكان شيء ما أكثر تقدماً يقترب

مني ولم أكن أحب كثيراً منظره. فالذاكرة، مثلاً، باتت تخونني بين الحين والحين بعد أن كانت حسنة عادة. وهكذا نسيت صديقتي السابقة بسرعة كبيرة، كما نسيت كتابي الجديد «الطيور الجوارح» بسرعة أكبر. كذلك أصبح أصدقائي معارف. إذ لم يعد أحد منهم يكتب لي رسائل وسرعان ما كفوا حتى عن كونهم معارف.

وهكذا رحت أطوف. مدة سنتين ظللت أطوف، أو هذا ما أحسبه، فأنا سيء في كل ما يتعلق بالتواريخ، المواقيت، الأعمار، بما في ذلك عمري ذاته ـ فأنا أعرف عن شبكة الطرق الرئيسية في أوروبا أكثر مما أعرف عنها. لقد تعرفت إلى الطرق الرئيسية، طرق الدراجات النارية، الطرق الوحيدة الاتجاه، الطرق ذات الاتجاهين الطرق الدولية وكل أنواع الطرق الأخرى الممتدة من فلندا حتى قادش. وفي الفترة التي كان ما يزال مسموحاً لي بذلك، طفت بالسيارة أيضاً شواطئ الشمال الأفريقي كله بل وجزءاً من غربي أفريقيا أيضاً. لكن أوروبا كانت تستأثر بمعظم وقتي وكنت أستأجر سيارات. بين الحين والحين، كنت أشتري آلة كاتبة، إذا ما اضطررت لأن أكتب شيئاً. كما احتفظت بدفتر يوميات في حقيبتي اليدوية لكنني كنت أجد إذا ما قلبت أوراقه أنه مضجر كثيراً وغالباً ما كان يجعلني أشعر بنوع من الغثيان ـ مع ذلك ظللت أحتفظ به حتى ولو لم أسجل فيه سوى جملة واحدة في اليوم. إنه نوع من الإلزام، كإلزامك مثلاً بأن تتجنب الصدوع بين حجارة الرصيف. وهكذا فإن الوسط المبتذل نسبياً، إنما المناسب،

ذاك الذي وجدته في عالم الطرق والترحال في كل بلد، بكل ما فيه من خواء روحي، ادعاء بأنه ينقلك إلى مكان آخر بينما يبقيك طوال الوقت، وبلا حراك في مكانك الجامد نفسه ـ ذلك النوع من الوسط الأممي بات أسلوبي في الحياة، موطني إن شئت. أبداً لم تكن يدي تصل إلى فتاة حسناء مغرية وكنت أوفرها «فالزمن دون أن يلحظه أحد، يعمل عمله الأغبر». لقد مرت سنوات كانت النساء فيها ينظرن إلي أولاً ثم يقال لهن من أنا. أما في ذلك الحين وفي المناسبات النادرة التي كنت أجد نفسي فيها بين جماعة من الناس فقد بات يقال للنساء من أنا ثم ينظرن إلي. كانت تلك الفترة نسخة غريبة أخرى عن تلك السنوات التي أعقبت كتابي الأول «المرفأ البارد» قبل أن ألتقي بليز. في تلك الأيام ظللت أطوف بالسيارة مدة سنتين في الولايات المتحدة ـ بلاد نابوكوف، إن شئت أن تدعوها ـ وأنا أبيع محاضراتي في الأوساط الأكاديمية. بعدئذ شرعت بالطوفان في أمريكا الجنوبية ـ لكن، حسناً، لا تفكر بذلك. الآن، ثمة أوروبا وامتداداتها. فقد كان لدي هواية. تلك الهواية بالمناسبة، ليس لها أصل، تماماً مثل كتابتي للكتب. إنها تصيد الزجاج الملون لا لسبب على الإطلاق، سوى الدعابة، فأنا أحب تأمله وحسب، والواقع أنني أجد الثقات في ذلك الميدان، رغم أنه ما من أحد يعلم ذلك. إذ يمكنني أن أحدد تاريخ صنعه ضمن عقد من السنين أو على الأقل أدافع عن التاريخ الذي أحدده رغم أنني لم أحاول ذلك قط. هذه الهواية الغريبة جعلتني أتحول إلى رجل مولع بزخرفات الكنائس،

الأمر الذي قد يثير في نفسك أشد الشكوك حولي، أنت الذي تعرف علاقتي بالكنائس وبادري بيو، لكنني مضطر لأن أوضح أنني على الرغم من أنني قضيت ساعات كثيرة في كاتدرائية شارتر، مثلاً، فإنه لم يكن هناك أية صبغة دينية لاهتمامي بالكنائس. بل هو الفن، الطريقة الذكية لمنع الضوء من دخول مبنى حين لا تريده أن يدخل. كذلك فإن الكنائس هي في الغالب الأماكن الأشد برودة وظلمة وملاءمة كي تتخلص من أثر الشراب الباقي، وأظن أن علي أن أذكر أنني كنت أشرب كثيراً من حين إلى آخر، أو على الأقل كنت أشرب أكثر من «قليل» معظم الوقت.

بتأثير «الطيور الجوارح» أو على الأقل بتأثير الفيلم الذي أخذ عنه، كتبت بعض مقالات تدخل في أدب الرحلات وبعض القصص القصيرة التي كانت نوعاً من التمرين على كيفية غش الناس. إذ كانت موجهة لمفسر كلمات عويصة. وكانت تعتمد بصورة كاملة تقريباً على غرابة الأمكنة التي كنت أجمع منها أخباراً ونقوداً وبريداً من العناوين التي أتركها خلفي. تلك القصص كانت بارعة الوصف، تحوي أقل قدر من الأحداث أو الشخصيات لكنها كانت مبهرجة تماماً، كما يمكن للفرنسي أن يقول، مزخرفة بالزخارف الوطنية المحلية رغم انقضاء فترة زمنية طويلة على استخدام مثل تلك الزخارف إلا في المهرجانات الشعبية. كنت قد كففت، مذ قطعت صديقتي الإيطالية علاقتنا، عن بذل أي جهد لأن أكون مصدر سرور للنساء، ونميت ما يمكنك أن تدعوه باللامبالاة الشاملة.

وهكذا، كان التفكير بالحياة والإحساس بها يندمجان، أحياناً، في موجة من الاندهاش يجعلني أهتف في داخلي دونما صوت «لا، ما هذا أنت!» لكنني أرى الآن، وأنا على حافة الستين، أنني كنت قد قلصت نفسي إلى الحد الأدنى من التفكير والإحساس. فقد بت مجرد عينين تنظران وشهية تأكل. كنت أطير باعتباري جواباً لأي سؤال. ومرة ثانية كانت طرق السيارات هي عالمي. إن سئلت مرة أين وجهتي كنت أقول أي مكان، وإن حاول أحدهم أن يرتب مقابلة معي كنت أهرب، وإن سكرت سكراً شديد في مكان ما، كنت أفر إلى مكان آخر. وإن أصبح منظر المشرب أو المقهى مضجراً بالنسبة إلي، ربما لأن أحدهم قال شيئاً ما عن وادي براهما بوترا كنت أطير إلى كلكوتا.

لكن كان ثمة ذبابة غريبة في المرهم، شيء يمكنك أن تدعوه إحساساً ضعيفاً بعيداً بليز، وأنا أرى الآن أنني سجلته رغم أنه لم يكن كذلك على الإطلاق.

لكن من الصعوبة بمكان أن أشرحه، فأنا لم أستطع أن أتجاوز، لم أستطع مطلقاً أن أتجاوز التفكير بأنني أراها، رغم أنني لم أرها قط مذ غادرت إنكلترا وحتى رجوعي إلى هناك. لكن مع ذلك، كان من الممكن أن أكون جالساً إلى واحدة من تلك الطاولات المستديرة البيضاء في أحد المقاهي، فأرى رتلاً من السياح وهم، كما يمكن القول، يلحقون بدليلهم الذي يدور حول المنعطف باتجاه «الأوفيزي» وحين يغيبون عن

ناظري أتذكر شيئاً ـ بالتأكيد! أتذكر حركة، ثوباً، صوتاً بل قد أهب على قدمي وأهم باللحاق بالركب ثم أتوقف لأنني لو فعلت ذلك، ما تراه سيكون الهدف؟ ذات مرة كنت أنزل الدرج من لدن طبيب عظمي في بريسبن وقد تنحيت جانباً كي أتيح لإحدى النساء إمكانية الصعود. بعدئذ، وحين دخلت المرأة مكتبه، التفت وفي نيتي أن ألحق بها لكنني تذكرت كابستون باورز فوليت الأدبار. هذا كله كان يزعجني أحياناً، لكني بعدئذ وجدت حلاً لذلك الهراء الذي كان يصيب دماغي. فقد وقعت على وصف لرحلة إفرادية قام بها حول العالم رجل معقول ـ معقول، حسب اعتقادي، لأن رحلته كانت تشبه كثيراً رحلتي، فهي محاولة للتخلي عن كل شيء. كان ذلك الرجل يسمع أصواتاً، كما بدأت حبال الأشرعة والصواري تقول له أشياء لكن كل ما في الأمر أنه هو فقط لم يكن يستطيع فهمها. وكل ما في الأمر أنني أنا «فقط»، لم أكن أرى اليزابيث في عزلتي المتعمدة الغارقة في الزحام. ولكن صديقتي الإيطالية كانت في فترة من الفترات قريبة من المكان ـ أو بالأحرى، على المرء أن يقول: لكون صديقتي الإيطالية كانت تثبتني في المكان ـ فقد كان ذلك يكبح أو يمنع حدوث تلك السلسلة الغريبة من اللقاءات. أما بعد ذلك فقد انشغلت هي بالركوع والسجود وعدت أنا وحيداً. لهذا فكرت أنه ليس لي ما يشفيني إلا الزمن. ها... الخ.

لكن ما يزال ثمة اعتراض. فاحتكاكي تلك الفترة إنما

كـان بالنـدل، خادمـات الفنـادق، مـوظفي الاسـتقبال، المضيفات، وكنت أتنـاول وجبـاتي أحيانـاً مـع مـسافر غريـب مقتلع الجذور مثلي. ذات مرة وكنت سكران قليلاً، رحت، أنـا ورجل غريب لم تره عيناي مرة ثانية، نتناقش حول البلـد الـذي كنا فيه واتفقنا على أن نختلف. وقـد نـسيت الآن مـن منا كـان على صواب ـ ربمـا لا أحـد، كـذلك كـان ثمـة دائمـاً حـديث المشارب. الحـديث نفـسه دائمـاً. شـيئاً فـشيئاً كـان يكتـسحني وكنت وحيداً.

كم يختلط في ذهني هـذا كلـه! لكـنني كنـت قـد بلغـت الستين حـين طـرت إلى زيـوريخ وكنـت قـد شـربت كـثيراً في الطائرة، ولكي ألطف الأمر أقول إنني كنـت بحاجـة ماسـة إلى مكان أستعيد فيه وعيي وأن طبيب المطار نـصحني بالتوجـه إلى شويلن الواقعة على بحيرة زيوريخ.



الفصل الثالث

بذلك قمت بخطوة أخرى من الخطوات التي حتمها القدر في حياتي. إذ كان لا مناص من الذهاب إلى شويلن وبذلك كان لقائي بهم. في أول صباح لي في شويلن حدث وشربت قليلاً، أعني لم أكن قد أفرطت في الشراب كثيراً، وكنت أشعر أنني على ما يرام تقريباً. تسلقت جرفاً خفيفاً يطل على البحيرة حيث كان هناك نصب لبعض الليتواتيين. وكانت هناك حديقة وقصر وكراسي ذات دهان أخضر معدة للجلوس. فجلست. أنا أتذكر أنني كنت أفكر مبتهجاً قليلاً بالدعاية التي يمكن أن تحصل لو كان لدينا طبقة ارستقراطية، أسماء أفرادها جميعاً من أسماء الجبن والعكس بالعكس. نخبة بالحقيقة! بعدئذ تنبهت إلى أن هناك شخصاً ضخم الجثة يقف بيني وبين الشمس.

«ويلفريد باركلي، يا سيدي؟ ويلف؟».

«يا إلهي!».

«إن سمحت ـ».

كان الرجل ضخماً ـ ضخماً فعلاً: أو لعلي أنا الذي كنت قد تقلصت.

«أنا لا أستطيع منعك من الجلوس، أليس كذلك؟».

«شيء رائع حقاً أن أراك!».

«كيف هي جملي الوصلية؟».

«علي أن أشرح لك الأمر يا ويلف ـ».

«ولا تزعج نفسك. امض وعلِّم».

«هذه إجازتي يا ويلف إجازة أحصل عليها كل سبع سنوات».

«مدة طويلة جداً؟ تبدو فقط وكأنها أمس.».

«سبع سنوات يا ويلف، يا سيدي».

«خدمت سبع سنوات من أجل ليا ـ لابد أن عينيها ضعيفتان».

«كلا يا سيدي، اسمها ماري لو، ولا أظن أنك تعرفها، انظر هنا».

نظرت حيث أشار لي عيناه، فرأيت فتاة وصلت لتوها إلى بقعة الحصى حيث كنت جالساً. فتاة في أول شبابها، لا تزيد سنها عن العشرين على ما أظن. كان وجهها شاحباً وشعرها كثيفاً قاتم اللون. كما كانت ناحلة كسيجارة.

«ماري لو، انظري من هنا!».

«السيد باركلي».

«ويلفريد باركلي».

«ماري لو تكر».

وحدق إليها ريك تحديق ولع وافتخار.

«إنها معجبة حقيقية يا ويلف».

«أوه، سيد باركلي ـ».

«ويلف، من فضلك. ريك، أنت شيطان محظوظ!».

وسفحت أرضاً أربعين سنة في لمحة عين. تصحيح: أحسست كما لو أنني كنت قد سفحت أربعين سنة. كان ريك صديقي بل هما كلاهما كانا صديقي، وخاصة هذا الكائن.

«تهانيَّ ماري لو».

فقد كان واضحاً بشكلٍ من الأشكال أنهما متزوجان حديثاً، أو إن لم يكن «حديثاً» فقد بدت كذلك، مشرقة، متألقة تماماً! أمسكتها من كتفيها وقبلتها. ولا أدري ما فكرت بالنبيذ السويسري ـ نبيذ دول ـ الذي كنت قد شربته في وقت مبكر من ذلك الصباح. بعدئذ أبعدتها قليلاً ثم تفحصتها بدءاً من جبينها المنخفض الشاحب وحتى عنقها الرقيق. احمرت وجنتاها خجلاً، فتلك هي الكلمة الوحيدة المناسبة لكن قبل أن تتمكن من تكرارها كانت وجنتاها قد شحبتا من جديد ثم احمرتا كلتاهما مرة ثانية. بلمحة عين كان كل شيء في الداخل قد غدا على السطح، لكن حينذاك لم يكن بالإمكان المضي بعيداً.

«تهاني متأخرة يا ماري لو. وباعتبار أن الزوج والزوجة كل واحد لا يتجزأ فليس باستطاعتي أن أقبل ريك ـ».

فأطلق تكر قهقهة أشبه بالعواء.

«أنت تنفس عن غضبك بماري لو، فاثبت إذن، لحظة!» وطقت آلة تصوير صغيرة للغاية طقة خفيفة في يده اليمنى تحت الكم تماماً، بالسرعة المذهلة التي تعمل بها ثقابة - الآن، لابد أن تكون تلك الصورة في هذا الدرج أو ذاك ربما في مكتبة من مكتبات استراخان، نيبراسكا، حيث تبدو ماري لو، بجمالها الذي عتمه التسجيل الفوري، وحيث لحيتي البيضاء المصفرة الخشنة، تلك الكتلة البيضاء - المصفرة وتكشيرة الضحك ذات الأسنان المكسرة، فآلة التصوير كانت عاجزة عن التقاط دفئها ونعومتها. إنها ما يمكنك أن تدعوه بمواجهة حميمة من النوع الثاني، لا صورة لفتاة تمثل الأنثى المطواعة، المعطرة، العملية - لا، أنا لم أكن معتاداً على ذلك لهذا وجدتني أؤخذ على حين غرة. فقد اندفعت موجة من الإحساس في ذراعي اليمنى صاعدة من السترة الرقيقة التي كانت تغطي خاصرتها. وفي الحال أحسست بقلبي يخطئ دقة من دقاته ويختصر دقات أخر. لقد كانت كاملة كوردة حديقة.

«ويلف، عليك أنت وماري أن تقيما علاقة جميلة. فهي، بعد كل شيء، بالغة سن الرشد -» لكن ماري قاطعته.

«لا، حبيبي، ليس علينا أن».

لكنه كان يحملق في وجهي بكل جد.

«يا إلهي، ويلف، اليزابيث شخص عزيز علي وأنا آسف حقاً».

«أوه، سيد باركلي ـ».

«ويلف، من فضلك. حاولي أن تقولي ويلف».

«لا أظن أن ذلك باستطاعتي!».

«بل باستطاعتك، هيا، قوليها! فقط قولي ذلك».

«لا لا، لا أستطيع ـ».

وشرعنا جميعاً نضحك ونتحدث معاً. ريك يهدد بأن يضربها إن لم تفعل ذلك، أنا أقول بأنني لا أدري شيئاً وهي تضحك ضحكها الساحر وتقول إنها لا، لا تستطيع و ـ».

«أوه، سيد باركلي، ذلك البيت العتيق الغريب!».

وصدق أو لا تصدق، لم ألاحظ في حينه شيئاً قط، لكنني في وقت لاحق فقط أدركت أن بيتي العتيق الغريب ذاك هو الذي كانا قد جاءا للتو منه. حين انتهينا من ضحكنا السخيف وتوقفنا، بدا وكأننا نتوقع فصلاً ثانياً من فصول مسرحية.

«يا إلهي، لماذا لا نجلس؟».

كان ثمة مقعد خشبي طويل، فجلست في الوسط، إلى يساري ريك وإلى يميني ماري لو التي جلست على حذر نوعاً ما. بعدئذ بدأ ريك بعد تفكير:

«ويلف، علي أن أسألك سؤالاً».

«ليس عن الكتب، كرمى لله».

«لا، لا، ـ حسناً، أظن أنك وحيد؟».

«ليس هناك رفيق دائم، لا صديق مخلص كل الإخلاص، وأنا لا أرافق أحداً. هل تعلمين يا ماري لو، أنا في الستين!».

ثم توقفت، متوقعاً أن أرى الدهشة على سيماء ماري لو لكن بالنتيجة كنت أنا من أصيب بالدهشة، إذ اكتفت بأن أومأت برأسها إيماءة ملؤها الرزانة.

«أعلم ذلك».

أما ريك فمال نحوي قائلاً:

«وهل تكتب يا ويلف؟».

هنا أحسست بلمسة من سخطي القديم تعاودني، نخرت فأومأ ريك برأسه.

«ذلك النوع من الصدمة».

«الله، يا رجل، لقد مضت سنوات وسنوات ـ ما لم تكن تتحدث عن علا... علاقتي الإيطالية».

«الأمر ذاته ـ».

«تغير كامل في أسلوب الحياة. الحرية ـ المطلقة. بإمكاني أن أحاول إغراء أية فتاة تقع عليها عيناي دون أن يستطيع أحد الاعتراض علي سوى الفتاة نفسها».

تحركت ماري لو على المقعد مبتعدة قليلاً، بعد أن كان علي أن أتنفس في وجهها. لابد أن أمها كانت قد علمتها أنه لا يمكنها الثقة بالرجال. حسن، لا يمكنها الثقة.

كان ريك يضحك وعلى وجهه سيماء غرفة مؤلفة من أدراج مقفلة.

«أراهن أنه ما من فتاة تعترض».

«ما رهانك؟».

«ليس على راتبي يا ويلف، مساعد أستاذ ـ».

«مساعد؟ ألم تصبح أستاذاً ذا كرسي؟».

«بالشرق، يا ويلف ـ».

«لكن ذلك مكتوب على رسالتك، هناك في مكان ما من ذلك البيت الغريب العتيق، ربما هي الآن محفوظة في صندوق شاي مسمر بالمسامير ـ» من قسم الأدب الإنكليزي والدراسات المشابهة، جامعة استراخان، نيبراسكا «أنا أتذكر ذلك بوضوح تام لا لشيء إلا لأنه هو الذي قادنا مباشرة إلى تلك الليلة».

«ويلف. أنا بالحقيقة لم أصبح أستاذاً ذا كرسي».

ثم بح صوته كما بح ذات يوم في إشبيلية. كانت ماري لو جالسة فبدا جذعها طويلاً جداً وهي تنظر مباشرة إلى الأمام. وكانت تبلع ـ بحركة لطيفة من الحنجرة، تفاحة آدم. بعدئذ تكلمت دون أن تلتفت.

«تذكر يا حبيبي. أقسم على صحة ذلك».

«لكن يا حبيبتي ـ».

«خير لك أن تخبر السيد باركلي، يا حبيبي، فأنت لن ترتاح أبداً إن لم تفعل ذلك».

«ما الأمر أنتما الاثنان؟ أهناك شيء لا أعرفه؟».

«سيد باركلي، هو لم يكن بروفسوراً قط في ذلك التاريخ. بل كان قد تخرج لتوه من الجامعة وقد استدان الأجرة كي يذهب إليك في عطلته».

«كنت يائساً يا ويلف. وكنت أنت بالنسبة إلي..».

«مهمة محددة؟».

«موضوعاً خاصاً، موضوعاً رسمياً يا ويلف».

«فقط تذكر يا سيد باركلي، أنها كانت إنسانة فاسدة حقاً. ريك روى لي عنها كل شيء».

«من هي؟».

«ايلا. أنا سعيدة لكونك أخبرته بأنك لم تكن بروفسوراً حينذاك، يا حبيبي».

«وأنا سعيد أيضاً يا حبيبتي، وهكذا أكون قد أخبرتك يا ويلف ـ».

«ماري لو هي التي أخبرتني. زوج وزوجة ـ».

غير أن ريك كان ينظر إلى ماري لو بقدر غير كبير من الإعجاب.

«بعدئذ تثبت وأصبحت أستاذاً مساعداً والآن لدي نوع من إجازة».

«الآن، ستشعر أنك أفضل يا حبيبي. الآن يمكنك أن تستمر مثلما بدأت يا حبيبي. إنه الأفضل. دائماً».

كانت الشمس ترسل أشعتها من خلف الأشجار وكانت الأوراق تلقي بظلالها على الحصباء. وكانت أصغر الموجات تتألق على شاطئ البحيرة. ذلك كله جعلني أضحك.

«لقد نسيت تماماً ما هي اللهجة التي نتحدث بها ـ حسن ـ لهجة أواسط الأطلسي!».

ثم زلقت ذراعي على طول المقعد إلى الوراء.

«إنه لكثير علي اعتراف ريك، يا ماري لو. فماذا عنك؟ هل هناك ما تودين التصريح به؟».

«لا، أظن، لا».

ثم تحركت مبتعدة قليلاً عني من جديد.

«لكن، ينبغي عليك ألا تبتعدي».

«ليس الأمر كذلك يا ويلف. هي لا تريد أن تفرض نفسها. إنها تعلم مقدار كرمك وسخائك. لقد أخبرتها عنك».

فقلت بدافع الحماقة المحض:

«ذلك صحيح، فما الذي تبتغين يا ماري لو؟ جواهر التاج أم صخرة من القمر؟».

حينذاك تحركت ماري لو فانزلقت عن حافة المقعد. وقد قامت بتلك الحركة ببراعة تامة إذ أنها سرعان ما نهضت على قدميها ثم نفضت تنورتها التي كانت تنزل حتى بطتي ساقيها.

«سأرجع يا حبيبي. فأنتما لديكما الكثير مما ينبغي أن تتحدثا عنه».

ومضت على جناح السرعة فيما كانت ريح باردة تهب على السفح قادمة من خلف الجرف جاعلة البحيرة قائمة كأشابة القصدير.

«ريك. أنت رجل ثقة. لا شيء سوى ذلك. تهاني، فذلك أكثر أهمية من البحث العلمي».

«صدقني يا ويلف، كنت أنوي أن أخبرك. كنت سأصير بروفسوراً. أجل، كنت على يقين من ذلك».

«الرجال الثقات يعلمون أنهم سيصبحون أغنياء».

«لكنني كنت على يقين».

«يا للجحيم! وما هو البروفسور بالنتيجة؟ حين كنت حدثاً كنت أظن أن البروفسور شيء ما. لكنه ليس خيراً من الكاتب. إنني آكل أساتذة في أفكاري. طعمهم مختلف قليلاً وهذا كل ما في الأمر».

«إنهم نقاد يا ويلف. يصنعون أو يحطمون!».

«لكن ماذا عن جون كراورانسوم؟ من رسالتك، تهيأ لي أنه كان زميلاً، فهل قلت له إنك كنت بروفسوراً؟».

انقلب وجه ريك من القرميزي إلى الأحمر الداكن. وبما أنني كنت أنظر على نحو جانبي إليه، فقد رأيت من زاوية نظري الجديدة أثراً غريباً من لغته الجسدية الفريدة. كنت قد رأيت ذلك قبل سنوات حين جاء إلى منزلي، وقد صمم على استحياء أن يدفعني إلى وجار يشاع أنه خطر. فيما بعد رأيته في

ذلك المؤتمر، وحينذاك فكرت لا أدري لماذا، أنه نوع من الوهم، ذاك الارتداد في الذقن إلى داخل العنق، تلك النظرة إلى الأعلى من تحت حاجبين مخفضين. لكن لا. حين كان ريك المنزعج يرد القسم الأسفل من وجهه إلى الوراء، كانت تبرز جبهته التي يفترض أن تكون، أو يرجو أن تكون، صفيقة ثم ينظر إلى الأعلى من تحت حاجبيه كما ينظر سرطان من شق صخرة. في تلك اللحظة كان ينظر تلك النظرة وإن لم تكن موجهة إلي. لقد باتت نظرة آلية لديه، وكان ينظر باتجاه البحيرة وكأنه صمم على أن لا يروع بتلك الصفحة القصديرية.

«هيا يا ريك ـ أفصح، أفصح».

«بدأت المسألة نتيجة خطأ من سك... سكرتيرتي في المكتب، ايلا. إذ كنت قد اعتدت أن أحصل على رسائل موجهة إلى البروفسور تكر ولم يكن ذلك يشكل أي فارق بالنسبة إلى أحد، بل كان نوعاً من المجاملة، الإطراء».

«وهكذا انتزعت ورقة من الدفتر التجاري، مرحى!».

«أنت لا تدري ما الذي كان يعنيه عملك بالنسبة إلي».

«إن تكلم أي إنسان عنك، عن مقدار الثقة التي يمكن أن يضعها الإنسان فيك، ستطرد من الحرم الجامعي ولا شك».

«هي السبب. تلك الفتاة اللعينة. وأنا أيضاً، هذا أمر لابد من الاعتراف به، فقد تركت الأمور تسير وأنا راض».

«إنها مغامرة، ولقد نجحت. تهاني».

«مع ذلك، كان الأمر يستحق المغامرة. خطأها أكسبني هذا. فها نحن بكل أمل، بكل حميمية، نجلس هنا على هذا النحو، جنباً لجنب».

«وعلى أي نحو آخر يمكننا أن نجلس بحق الجحيم؟».

«تلك الفتاة يا ويلف». ثم أرجع ذقنه مرة ثانية إلى الوراء وعلى الجبهة طفت المياه الرصاصية «كانت تحبني وكانت تظن أنها تخدمني».

«وجون كراورانسوم».

«أنا أنسى حقاً يا ويلف. أنسى قليلاً. لقد التقينا».

وفجأة رأيت المياه بلا حياة. «ما يهم؟ أنا راحل غداً. وحينذاك، ستكون ماري لو قادرة على أن تجلس على هذا المقعد دون أن تسقط عنه».

ثم خيم الصمت لحظة من الزمن قطعه ريك أخيراً.

«لكنك ستتناول العشاء معنا هذه الليلة؟».

«نحن الثلاثة؟».

«بالتأكيد».

«حسن. لكنكما ستكونان ضيفيّ. هذا امتياز الرجل العجوز. الامتياز الوحيد».

«ماري لو خجول يا ويلف، دائماً كانت خجولاً، لكنها تعلم أي رجل دافئ فعلاً أنت، تحت هذا المظهر الإنكليزي البارد».

«أنا الذي كنت أحسب نفسي أمياً».

هنا وقف ريك على قدميه. ثم خرج بواحد من بياناته المعدة مسبقاً.

«كنا دائماً نعتقد يا سيدي أنك مثال رائع حقاً عن أبناء وطنك العظيم، ومشرِّف لهم».

ثم سار هابطاً الجرف متعقباً أثر زوجته، فيما ظللت هناك مطرقاً برأسي متفكراً مثل تمثال من بورسلان لموظف صيني وأنا أغمغم «كن حذراً من ماري. ولا تقسُ على ريك».

بعدئذ أضفت بعض الكلمات الكريهة بصوت عال.

«بكل أمل، في موقف المواجهة هذا».

وفي الحال صحوت من غفلتي. لقد ذهبا إلى «البيت القديم الغريب». إذن، فهذا اللقاء ليس بالمصادفة. لقد حصلا على عنواني من اليزابيث، إن لم يكن من وكيلي. ألست أنا موضوع ريك الخاص؟ أجل أنا مادته الخام، الفلز في منجمه، مزرعته، حيوانه البحري الذي ينبغي أن ينصب له شراكه.

لكن من أين تراه جاء بالمال لمطاردتي؟ فأشياء كهذه مكلفة كثيراً، وقد علمت ذلك من محاولة سابقة قمت بها لاسترجاع بعض الرسائل.

واندفعت أفكاري باتجاه تلك الفتاة، ماري لو، ذات الوجه الجميل الشفاف الذي ينبغي بالتأكيد أن يكون مقدساً، حكيماً. إنما ليس كوجه بادرى، ذلك العجوز المسكين!

«ربما ولدت من جديد».

فتاة تقابلها كل سبع ـ لا، كل أربع عشرة سنة، بل الحقيقة، فتاة تقابلها وقد فات الأوان. لاحظت انتعاشي المفاجئ لسبب لم يكن إلا عرضاً من أعراض شيخوختي ـ القريبة، ثم خمنت كم كانت رائحة أنفاسي كريهة بسبب ذلك النبيذ الذي شربته ذلك الصباح، نبيذ دول. لعل في ذلك كان الكثير بالنسبة إلى ريك. وربما الكثير أيضاً بالنسبة إلى ماري لو، فرصة لأن تعجب، وملؤها النفور، بشخص قرأت كتبه. إلا أن ذلك لم يكن يشكل بالنسبة إلي سوى الإحباط، التركيز المرضي، الحماقة، الحزن. وهكذا صممت أن أنتزع ذلك البرعم قبل أن يزهر. ليطاردا شخصاً آخر. فهناك من الكتّاب ما يكفي لأن يجدا الكثير منهم في كل مكان، كتّاباً بالآلاف وكلهم ذوو جبهات نحاسية كجبهتي أو حيوات يتعذر النفاذ إليها كحياتي. إلى درجة يمكنهم أن يتحملوا أفتك السموم بالنسبة إليهم، يتحملوا الحقيقة البسيطة المرة، بينما أنا ـ كنت جالساً على المقعد ذي الطلاء الأخضر، وكانت عشرات الصور من ماضي تمر بي. قفزت على قدمي ثم أسرعت عائداً إلى الفندق، هناك غمغمت للمدير بكلمات سريعة مفادها أنني بحاجة للعزلة، فنصحني بكل لطف أن أتوجه إلى الوايسولد، وهو مكان للتزلج أعد بحيث يواجه الشمس ويكون خالياً في مثل هذا الموسم. يمكنني أن أحل في فندق فلسينبليك. الفنادق الأخرى فظيعة بالطبع، لكن ذلك الفندق هو الأفضل بالتأكيد. كنت أومئ برأسي بالإيجاب المرة تلو المرة، أخيراً دفعت

حسابي ثم سجلت عنواني القادم على أنه، فندق بونغ هو في هونكونغ، وانسللت مبتعداً.

في أسفل الوايسولد، كان ثمة مرآب كبير يمكنك أن تضع فيه سيارتك. من هناك كان على المرء أن يأخذ مركبة «تلفريك» تصعد السفح الشديد الميلان، العامودي، المخيف، إلى أن تصل قمة الجبل، طوال الطريق أبقيت عيني مغمضتين فقد كنت أعاني من خوف مرضي من المرتفعات، الأمر الذي يفسر لماذا تسحرني المرتفعات. إضافة إلى ذلك، كان بودي أن أوفر المنظر إلى أن أصل القمة حيث الأرض مستوية، وحيث يمكنني أن أعجب بها دون أن أشعر بأنني مرغم على القفز. قادني بواب، وعيناي مطرقتان نحو الأسفل، إلى قدمي، إلى أن بلغت الفندق. هناك، استقبلني المدير ثم قال إن لديه جناحاً، لا أقل من جناح، سعره منخفض وتطل شرفته على الجرف. وللتو فتح الباب على مصراعيه ثم قادني إلى هناك.

«انظر!».

كان أحد جوانب غرفة الجلوس ذا نوافذ فرنسية الطراز تليها الشرفة مباشرة ويلي ذلك خمسة أميال من الفضاء المفتوح. فتح المدير النوافذ الفرنسية على مصاريعها ثم دعاني إلى الخروج. فوقفت ملاصقاً للزجاج، إذ بدت الشرفة راسخة ثابتة تماماً.

«إنه الجناح الأفضل» قال المدير «الأفضل فعلاً».

لو كان باستطاعتي حينذاك أن أتقدم ثلاث خطوات، لتمكنت من أن أبصق على ألفي قدم، لو كان بمقدوري أن أبصق.

«إنه مناسب لك. مكان ملائم لكاتب».

«من قال لك إنني كاتب؟».

«أخي، مدير فندق الشيف. الجناح والمنظر لك. وهو رخيص» هنا أحسست أنني أسلمت نفسي لرعاية عائلة مختصة بتلك المهمة، أنتقل بين أيدي أفرادها الواحد تلو الآخر. ألقيت نظرة عصبية سريعة على السكة الحديدية الصغيرة التي كانت قد أنشئت من أجل استخدام الأطفال، بعد نصف ميل في الأسفل، بعدئذ ركزت نظري على نباتات الأصص الأقرب. وعلى الشرفة، كان هنالك تلك الطاولة الحديدية ذات الطلاء الأبيض التي جلست إليها في الشيف والكراسي الأربعة والمقعد الطويل وقد طليت كلها بالأبيض أيضاً.

«هل ستكون سيارتي في أمان؟ أنا لم أقفلها».

«السيارة يا سيدي؟».

«في المرآب».

«ستكون في أمان، مقفولة أم غير مقفولة».

وخيم الصمت. كان المنظر يتغير دقيقة بعد دقيقة. وكان ثمة خط أبيض يقسم الجرف الأسود في الأسفل، على ارتفاع ميل مثلما يقسم كعكة مثلجة.

«ما ذلك؟».

«أين يا سيدي؟».

«هناك».

«إنه السبورلي. شلال ماء. في الوقت الحاضر، هو أشبه بالخيط إذ لم يبق إلا القليل من الثلج. إنه يأتي من ذلك الوادي هناك، حيث كان جيشنا يجري مناورات ـ».

«هناك على ذلك الارتفاع؟ مستحيل!».

«أقول لك الحقيقة. أنا كنت هناك. وأنا أفعل ذلك كل عام. أنا رائد في الجيش. إذن ـ كلمة نصح لابد منها. عليك أن تحاول السير ليوم أو يومين».

«تعني أن علي أن أتأقلم؟».

«تلك هي الكلمة التي يستخدمها الإنكليز، أليس كذلك؟ ضيوفنا الأمريكان يستخدمون كلمة أخرى».

«لكنني كنت في منطقة زيوريخ».

فقام المدير بإشارة نبذ وكأن الفرق بين زيوريخ والقناة الإنكليزية أتفه من أن يلاحظه المرء.

«مع ذلك، أنت لست في ميعة صباك، سيد باركلي، يوم أو يومان من الراحة أمر مستحسن».

«سأتذكر ذلك».

«كما نأمل، ومناظرنا هذه أمام عينيك، أن تكون مصدراً لا نقول للوحي والإلهام، بل لشيء من الإبداع المهم يا سيدي. هذا هو الجرس، متعتنا في أن نخدمك».

ثم انحنى المدير كما يفعل الندل المهذبون كثيراً. تحركت إلى الأمام قليلاً. لكنني لم أنظر إلى ما وراء الدرابزون ـ فتلك حركة خاصة بالأبطال. جررت المقعد الطويل أبعد ما يمكن عن الدرابزون ثم لففت نفسي ببطانية أخذتها من غرفة النوم وتمددت هناك، أتأمل المنظر، ذاك الذي ظل يتغير متكشفاً المرة تلو المرة عن جمالات جديدة تصنعها الصخور أو الثلوج من سفوح بدا وكأن فيها مغاور وكهوفاً، محولة الجرف الأسود الذي كان يسقط سقوطاً مباشراً عند السبورلي إلى اللون الرمادي ثم البني. كنت مستلقياً على المقعد أدعو الطبيعة لأن تدهشني. وقد أدهشتني بكل تواضع كالعادة. كان المدير مخطئاً بالطبع. إذ كنت قد جبت أماكن كثيرة ورأيت غرائب كثيرة. وعلى أية حال فإن المناظر العجيبة لا تجعل الكتّاب أو الرسامين يفقدون صوابهم. بل تقدم لهم المبرر كيلا يفعلوا شيئاً. ذلك أنه إذا ما وقع لكاتب منظر أو شيء عجيب فإنه يشده إليه. وهكذا رحت أراقب، بينما كانت القمم تظهر من وراء ما ظننت أنها قمة أخرى فإذا هي غيمة بيضاء ـ لكنني كنت قد رأيت الهملايا، الأنديز، الصحراء الكبرى، عواصف في البحر، ليالي بلا غيوم، بلا أقمار، ليالي لم تلوثها أضواء المدن، كنت قد رأيت مناظر عجيبة في قيعان البحار، غابات الأمطار ـ ها... الخ... ما يحتاج إليه الكاتب إنما هو جدار من

آجر معد قدر الإمكان بحيث لا يستطيع أن ينظر عبره إلى منظر طبيعي يوحي به السطح. لذلك رأيت أنه سيكون ذلك الأسبوع أسبوعاً آخر أهدره.

مع ذلك شرعت، تراودني تلك الأفكار، أشرب المزيد من نبيذ الدول، أراقب قطعة من سويسرا ساعات وساعات. بعدئذ رحت أتساءل إن كنت رجلاً رومانسياً وكان الجواب بالنفي فذلك الشيء لم يكن يوصل إلى نتيجة، والمتعة غاية بذاتها لا وسيلة للاتيان بأفكار رفيعة أو روحانية. إنه لأرفع أشكال مذهب المتعة أن يكون الرجل جديراً بعينه. وهكذا في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، كان النبيذ والهواء ذو الأكسجين الزائد قد فعلا فعلهما فاستغرقت في نوم عميق.

حين أفقت كانت الشمس قد دنت من الأفق الغربي للشرفة، وبدا رأسي خالياً من كل أثر لنبيذ الدول رغم الزجاجة الفارغة التي كانت ملقاة إلى جانبي. أهو المنظر الطبيعي يا ترى؟ في تلك اللحظة راودتني فكرة طفولية وهي أن أضيف بيتاً لقصيدة شيلي، يمجد هذه المرة الجبال باعتبارها الدواء الشافي لكل فم متخشب، شأنها شأن كاتدرائية شارتر. مع تلك الفكرة شعرت بأن خوائي الأشبه بالغشية إزاء أمنا الطبيعة، يمتلئ بالرغبة في أن أشرب. تحررت من بطانيتي. ثم مررت بالحمام، بعدئذ مضيت بحثاً عن المشرب الذي كان لحسن الحظ في متناول اليد. كان بودي أن أعاقب نفسي على نبيذ الدول الذي شربته فطلبت شرابي الخاص الكريه ذاك الذي يحوي، فيما يحويه من أشياء أخرى، ألكاسليتزر وفيرنيه

برانكا. كان مظهره أشبه بغائط الإسهال، الأمر الذي جعلَ حتى المدير، الذي غدا في تلك اللحظة ساقياً أيضاً، يتقزز منه. كما أنه لم يفهم ملاحظتي بأنني كنت أعاقب زجاجة الدول لكنه تقبل الملاحظة ثم صدع بما أمرت. كنت، بالحقيقة، أجلد حلقي بشرابي القذر، كما كنت أهنئ نفسي على تقديري المباشر لجمال الطبيعة، محتفلاً بنجاتي من خطر العاطفية وحلولي في مكان مستقر هادئ، حين شعرت أن هناك شخصاً طويل القامة ضخم الجثة يخيم فوقي.



الفصل الرابع

كما توقعت، لم يكن ذلك الشخص، بالطبع، إلا الأستاذ المساعد ريك ل. تكر من جامعة استراخان في نيبراسكا. كان يرتدي ملابس الخروج من طراز لديرهوزن، جوارب طويلة ذات نهايات تبهر العين وجزمة سميكة النعل إلى درجة بدت وكأنها تحمل كتلاً من الرصيف معها. كان قميصه مفتوحاً عند العنق وفوقه كنزة حيكت بين خيوطها كلمتان: أول أشكان[1]. للحظة من الزمن خيل إلي أنه يتحداني فيما يتعلق بصندوق القمامة الذي كان قد نقب فيه وفتش قبل سنوات كثيرة ـ حسن، قبل سبع سنوات طوال. لكن الكلمتين لم تكونا أكثر من مزحة مرحة تتعلق بالمكان الذي يكسب فيه عيشه. كانت الأحرف تمتد على طول صدره ذاك الذي كان عريضاً. كما كان ألق الهواء الجبلي حوله، ذاك الذي ظهر على خديه وأرنبة أنفه، قد جعله يبدو أعرض منكبين وأطول قامة من ذي قبل. كان علي أن أمد ناظري طويلاً لكي أصل إليه في الأعلى. وحين التفت إليه وقد بدت على وجهي علائم السخط الأولى، سحب ذقنه إلى الوراء لكن بأقل قدر.

«هاي، ويلف! أرى أنك فكرت مثلما فكرنا نحن تماماً».

«لا تكن أحمق».

---

(1) بمعنى منفضة أو برميل قمامة قديم.

«ماري لو، انظري، من هنا؟».

وأرسلت ناظري باتجاه المشرب فالتقيا بماري لو التي ابتسمت لي ابتسامة باهتة وهي تجلس بين ذراعي كرسي ضخم في زاوية معتمة هناك.

«هاي، ماري لو».

«سيد باركلي».

«ويلف».

لم تجب لكنها بدت منكمشة، فتملكني الشعور المفاجئ بأن كل ما تشكله الحياة من قيمة كان قد تكشف ـ لا لا، يجب ألا يكون كذلك، لا يمكن أن يكون كذلك!

«عصيرك يا حبيبي!».

«أظن أنني لا أشعر حتى بالرغبة في العصير يا حبيبتي!».

ثم عاد ريك والتفت باتجاهي.

«ماري لو تشعر بدوار الارتفاعات».

«يبدو أنها معتادة على المناطق الساحلية».

وأشحت بنظري متعمداً.

«حبيبي؟».

وعلى الرغم مني عدت أنظر باتجاهها. فرأيت ماري لو تضع يديها على فمها وقد جحظت عيناها الكبيرتان، فيما كانت تكافح للتخلص من الكرسي.

«ألا تراها، أيها الأحمق؟ سوف تتقيأ».

وتقيأت ماري لو وهي في منتصف الطريق بين الكرسي والباب، بينما قام ريك باندفاعة مثلثية الشكل إلى المشرب أولاً حيث أخذ كؤوساً ثم نحو الباب الذي كانت ماري لو قد اختفت وراءه. بنفور شديد نظر المدير إلى تلك اللخبطة، ثم صرخ عبر الباب المفتوح الواقع في مؤخرة المشرب فظهرت، وكأنها كانت تنتظر ذلك الحدث، امرأة بدينة شيباء الشعر، بيدها ممسحة وسطل. أما ريك فلحق بماري لو، مدفوعاً بالواجب، إلى حيث كانت غرفتهما، فيما كنت أنا أفكر بالمريضة بلا مبالاة. رجل يشرب ما هو أسوأ من القيء نفسه ـ أخذت مزيجي القذر ثم سرت إلى الخارج حيث كانت الشمس تشرف على الغروب. هناك كانت طاولات معدنية مدورة (الطاولات نفسها التي كنت أجلس إليها) في الساحة الصغيرة التي كان يشرف أحد جوانبها على سفح مخيف الانحدار. جلست إلى الطاولة التي جلست إليها، لنقل، في باريس أو فلورنسا أو سان لوي. أين تراني كنت؟ أتحرك دائماً أتحرك. لا شك أن من فعل ذلك بي إنما هو مدير فندق شويلن، لأنني وبكل بساطة لم أكن قد غطيت آثاري. في المرة التالية ـ

نهضت من مكاني، سرت بضع خطوات على الممر الذي كان يفضي إلى المروج العليا فأحسست بوهن قاتل جعلني أشعر أنني لا أستطيع إلا بالكاد أن أصل إلى كرسي وطاولتي مرة ثانية. ومر الوقت.

كان ريك يجلس إلى جانبي ويتحدث. لم أكن أدري متى جاء إلي أو كيف. كان يضع الخطوط العريضة للمستقبل القريب. إذ يقال إن هناك أربع مسيرات رائعة يمكننا أن نقوم بها. وكان سيستكشف بينما أقضي يومي في التأقلم. لم يكن الرجل بحاجة للتأقلم، هو الذي اعتاد حياة الجبال طيلة عمره. كما يقال إن إحدى المسيرات تتضمن شيئاً من التسلق. أسندت ظهري إلى الكرسي، هازاً رأسي موافقاً على كل ما كان يقول، داقاً ذقني بصدري.

كانت ماري لو تنحدر على الممر الهابط من السفوح العالية. وكان يتحدث عن الهندسة الفراغية، شارحاً الخطوط البيانية الثلاثة للتكامل والتفاضل استناداً إلى المخروط الجبلي الهائل الذي كان ينتصب فوقنا.

أحدهم نفخ بوقاً ألبياً[1] هناك في الساحة تماماً.

«ويلف؟ سيدي؟».

وكنت أنا البوق، ومن جديد نفخت نفسي مطلقاً صيحة هائلة أخرى أشبه بصيحات الأوز.

«نعسان؟».

فطرفت عيناي وأنا أنظر من جديد إلى الشمس الغاربة. كانت المحطة تبتلع ركباً من المشاة النمساويين والسويسريين والألمان الذين كانوا جميعاً يبدون طوالاً عراضاً. وكان ريك يضحك.

---

(1) نوع من الأبواق الطويلة يستخدمه الرعاة في سويسرا.

«قلت إن ماري لو بارعة في الرياضيات! آه. ماري لو!».

«حلمت أنني بوق. فتاة جميلة، تهاني».

«إنها معجبة بك».

«تحبني؟».

صمت.

«نعم يا للجحيم!».

«هل تلعب الشطرنج؟».

«يا للعنة، كلا».

«الطاولة؟».

«ستكونان عليما يرام، كلاكما عند الصباح، بل هذا المساء».

«عند العشاء» فقال ريك على نحو مكشوف.

«نعم، بودنا أن نكسبك على العشاء».

فأحسست بقليل من الضيق.

«هذه المرة على حسابي».

كنا نحن الثلاثة، على ما يبدو، الوحيدين المقيمين في الفندق، فالوقت ليس عطلة نهاية الأسبوع والفصل ليس موسم تزلج. على العشاء، ظلت ماري لو شاحبة ولم تتناول شيئاً تقريباً. غير أن ريك تكلم عنا نحن الثلاثة. المسيرة التي

سيكتشف فيها المنطقة ستريه أروع المناظر. مناظر ملهمة حقاً. جداول، أشجار، خط الشجر، أزهار. وبعد أن فهمت أننا سنبدأ المسيرة غداً كففت عن الإصغاء وعملت بدلاً من ذلك على أن أشغل نفسي بماري لو التي لم تبد هي الأخرى مهتمة كثيراً بما يقوله ريك. وفجأة نهضت نهوضاً غريباً إلى درجة جعلتني أندفع صوبها قبل أن يفعل ذلك ريك الذي كان في تلك اللحظة يتكلم عن خط الثلج. بعدئذ أخذها مني ثم قادها مبتعداً. وحين عاد شرع يعتذر عنها، مما جعلني أشعر بنوع من التسلية.

«إنها ساحرة يا ريك. لقد ظننت أنها عادة متبعة، لكن، هل تدري؟ حين تشعر بالغثيان لا تغدو شاحبة عجوزاً ـ بل تصبح أكثر شفافية».

«قالت إنها لن تذهب معنا غداً».

«ترى ألا تحب شيئاً؟ أعني ـ» فقال ريك بحذر.

«يمكنك القول أن ماري لو غير جسدانية[1]».

«قطط؟ كلاب؟ خيول؟».

فاحمر خجلاً محترقاً احتراقاً بطيئاً.

«كنتما هناك يا ريك أنتما كلاكما، منذ وقت قريب».

«إنه المكان الذي عشت فيه وقتاً طويلاً، يا ويلف».

---

(1) أي ذات ميول روحية أكثر مما هي جسدية.

وفكرت بالمكان الذي كنت قد عشت فيه وقتاً طويلاً. المكان الوحيد، ذلك المنزل العتيق الغريب. المروج المائية والأشجار، الأسيجة، السفوح الجرداء التي تتلاقى من كلا جانبي الوادي العريض، شجر البلوط الضخم ومجموعات شجر الدردار التي قالت اليزابيث إنها مشرفة على الموت، فشعرت بالاكتئاب.

«هل أحببته؟».

«يا للجحيم، نعم!».

«لماذا؟».

ولم يخطر ببالي قط أنني سأسمع رجلاً يقولها لكنه قالها:

«إنه فاتن جداً. ذلك البيت الأبيض المحفور ـ في جانب التلة ـ كل شيء فيه عتيق قديم ـ».

«حين كنت هناك آخر مرة، كان الناس يصعدون أيام الآحاد الطريق المتصالب إلى أعلى التلة بجانب البيت البيض. وكانت جمعية الآثار تكشط سطح التلة في الجانب الآخر.

«لكن الناس يا ويلف! العادات ـ».

«سفاح قربى، في الغالب».

«أنت ـ».

«لا، أنا لا أمزح. ثم لا تنسَ مجلس الساحرات».

«أنت، أنت... أنت تمزح يا ويلف؟».

«إنها مصادر موثوقة عادة. ويلفريد باركلي من ستراتفورد أون آفون».

«لا أظن ذلك يا سيدي».

«ترى عم كنت تبحث؟ عن بصمات أصابعي؟».

«كان عليٍ أن أتحدث معها، فهناك الكثير مما لا يعرفه أحد سواها».

«حسن، أنا ملعون».

«والأوراق».

«الآن، انظر يا ريك تكر. تلك الأوراق تخصني أنا. ولا أحد، لا أحد سيمد يده إليها».

«لكن ـ».

«ذلك هو الشريط. البيت لها، بعدئذ يصبح لإيمي في حال وفاتها، أما الأوراق فهي لي».

«طبعاً يا ويلف، هي قالت إن الأمر كله تم بمنتهى الحضارية».

«اليزابيث؟ هي قالت ذلك؟ لماذا؟ لقد كان ـ».

وتوقفت، ليس بدافع بقية من إخلاص بقدر ما هو بدافع الحذر. فاليزابيث كانت تغطي، بالطبع. لقد كان نزاعاً كريهاً يمزق النفس وكان سيحطم قلبي لو استمر ولو لم يتمكن

جوليان من وضع نهاية له بصورة قانونية تحافظ على الشكل، حيث تنازلت من جانبي عن كل شيء، ليس بدافع الكرم بل فقط لكي أخلص من المسألة كلها، ولقد أنقذنا جوليان من ضرورة الإعلان عن الكراهية المتبادلة التي كانت تربط واحدنا بالآخر على نحو لا انفصام له في السراء والضراء. لعلها مثلي الآن كانت قد بلي كل ما فيها ما عدا ذلك الأثر من الكراهية، هل تراها تقبلت ذلك الجرح الكبير؟ أم هل تقبلته أنا؟ هل تقبلته هي؟

«هي قالت إن عليها أن تحتفظ بها، وأنه لا شأن لها بها».

«أوراقي؟».

«أنت لا تدرك الأمر يا سيدي. أنت جزء من الموكب العظيم للأدب الإنكليزي».

لقد قال ذلك فعلاً. خرج من فمه وكأنه بيان يلقيه في محكمة. يرغب المتهم في أن يقول إنه جزء من الموكب العظيم ـ لماذا، ثمة لبس في ذلك القبول. السجين خلف القضبان، أنت متهم بأنك، وبنية مسبقة في الخداع، جزء من الموكب العظيم ـ

«هراء هراء» فارتدت ذقن ريك إلى الوراء فيما اندفعت جبهته إلى الأمام، بينما راحت عيناه تتطلعان من تحت ريف حاجبيه الصخري.

«إذن، كف يا بروفسور».

«على أية حال، لقد رفضتني يا ويلف».

«هي أبداً لم تكن تقيم اتصالات جنسية غير شرعية. أنا أعترف لها بذلك».

«أنا أعلم أنك تمزح يا سيدي، لكنني أرى النقطة المؤلمة».

«حسن، بحق الله، كيف كان كابستون باورز؟».

«حسن، على ما أظن».

«جيد، جيد جداً».

«هي لم تسمح لي برؤية الصناديق».

«جيد، جيد».

«لقد قالت لا، إلا بموافقتك. موافقة خطية. ذلك هو الاتفاق كما قلت» اتفاق جنتلمان[1] «ذلك ما قالته ثم ضحكت. أنتما كلاكما تضحكان كثيراً. وبودي أن أبحث في ذلك».

«تشريح إذن. تريد أن تشرحني. أنت لا تعرف شيئاً عن حياتي ولن تعرف شيئاً».

وكان قد ظهر أمامي على الطاولة فنجان صغير من القهوة وكأس كبيرة من البراندي، فأمسكت بالكأس بين راحتي أدفئها.

---

(1) اتفاق شفهي بين أناس يحترمون أنفسهم، ولا ضمانة للاتفاق غير كلمة الشرف.

«إنه لأمر مهم بالنسبة إلي، يا ويلف، بل في غاية الأهمية، أنا أدفع أي شيء ـ أي شيء فأنت لا تعلم مقدار ما هناك من تنافس، وأنا لدي الفرصة. هناك رجل ـ سأخبرك عنه ذات يوم. لكن لابد من أن أحصل على موافقتك ـ».

«قلت لا، يا للعنة!».

«انتظر، انتظر. أنا لا أتكلم عن الأوراق ـ فثمة وقت وربما يأتي يوم ـ لكن، ثمة أمر آخر».

«ياللشيطان! بالأمس، أقلعت عن الشراب، والآن ها أنذا أشرب دونما تفكير حتى، أشرب براندي وبالفعل أنت تعلم، قليلاً، قليلاً فقط ـ».

«أمر آخر ـ».

«أنا ما يدعونه تماماً بالرجل الذي يدور ويدور، رجل محكوم بأن يتناول إفطاره في مكان وغداءه في مكان آخر، كم هو غريب، إنه ينبغي عليه أن يدور ويلف مثل طرق السيارات! لا أحد يتكلم معه. بل يشرب فقط ويقرأ الأوراق الخاصة بقضايا اليوم التالي. بصحتك!».

«ويلف».

في تلك اللحظة رحت أفكر بالقضاة وكم كانت معرفتي بهم ضئيلة. محظوظ أنا. حياة طويلة والجريمة لم تكتشف. أولئك الذين لم يستطيعوا إخفاءها أرسِلوا إلى استراليا. أما المجرمون الذين ظلوا في الوطن فقد أنجبوا أمثالنا. فاختر.

بعد لأي تنبهت إلى أن ريك كان مستمراً في الكلام فقاطعته.

«اليوم سكرت بسهولة كبيرة. إنه الارتفاع عن سطح البحر».

«ويلف، رجاء».

«ماذا يا بروفسور؟».

«الأمر يعني لي الكثير. ولا يسعني إلا أن أناشدك، أتوسل إليك».

«لن تكون أستاذاً ذا كرسي؟ فخرياً؟».

«ويل، أريد منك أن تسميني كاتب سيرتك الرسمي».

* * *

الفصل الخامس

تطلعت إليه من أسفل إلى أعلى ثم تجاوزته مبتعداً بناظري، حياتي، تلك الحياة، ذلك الأثر الطويل المتطاول لـ ـ لـ ماذا؟ آثار أقدام على رمال، آثار حلزون. الدليل على المثابرة، وعلينا ألا ننسى، الدليل على المواجهة، التحدي، إن كان هناك أي مواجهة أو تحد، والسجين لا يهم بإلقاء نفسه على الأرض طلباً لرحمة المحكمة. دعه يثبت أنه مذنب، فإن العامل الاجتماعي سيتقدم ولسوف يشهد لصالحه بأنه كان يعامل بكل رفق أمه العجوز وخيوله وأنه كان يلقي النقود من حوله، وغالباً في اتجاه أصدقائه، كما كان يمرر الكثير من الأوراق النقدية إلى هذا الصندوق الخاص لجمع التبرعات أوذاك، وكل هذا أعرضه يا سيدي القاضي باعتباره حسنة تلغي سيئة السجين وهي أنه كان معتاداً على خربشة الأكاذيب على الورق وعلى نحو جعل أصحاب العقول الضعيفة يتخذونه دليلاً ومواسياً وصديقاً على حسابهم غالباً. وإنني لأذكر يا سيدي الرئيس أن الشاهد الرئيسي على مثابرتي، أي أفلاطون الإنسان، إنما هو رجل غريب. سيد سميث، لقد انتهينا من قضية المثابرة، عليك الآن أن تعمل على تقديم دليل على موقف السجين الأخلاقي. حسناً، سيدي القاضي، إن كان لابد من قول الحقيقة، فقد كان السجين ابن حرام بحق...

تلك الذكريات، كم تلسع، تلدغ، تحرق.

في التاسعة عشرة، كنت موظفاً في مصرف، وظيفتي هي أن أتلقى التوفيرات، وأسجل الشيكات. وكان يفترض بي أن أقرأ وأعد نفسي للفحوص المصرفية في أوقات فراغي هنا... الخ.. بحيث يمكنني ـ ومن يدري؟ ـ أن أصبح خازن مصرف ثم أرتقي وأصبح مديراً. كنت قد خرجت لتوي من المدرسة ـ مدرسة، معظم طلابها من أبناء المزارعين وصبيانهم الذين لم يكونوا يتجاوزون المرحلة الإعدادية. رأسمال أمي الصغير، حبها لركوب الخيل، الاسطبلات كل ذلك جعلني أقحم نفسي هناك. لابد أنه كان لديها نوع من قوة السحب، الله يعلم ما هي. وهكذا كان بإمكاني أن أقف خلف النضد وأنا ما زلت ألبس عقدتي المدرسية القديمة وأوجه الناس أبتسم ابتسامة مشرقة، كما يقولون عادة، فيما أنا أقدم خدماتي دون اتضاع. بدأ المدير يحبني إذ لم يكن لدي ما أفكر به أو أعمله عصر الأربعاء والسبت خيراً من أن ألعب الروغر[1]. تلك الفترة تغلفها غشاوة في ذهني، إذ تمر بسرعة كبيرة ذكرى وفاة أمي ـ هي التي كانت تظن أنني سأذهب إلى الكنيسة لأنني أحب القراءة كثيراً ـ تلك التي أسقطتني في دنيا الصور والخيالات هذه. بل حتى نادي الروغر كان معظم أعضائه رجالاً كباراً في السن بالمقارنة معي. وبعد اللعب يوم السبت كانت تجري نكات لطيفة راقية المستوى على مسمع الجميع في هذا المكان أو ذاك. ياليسوع! كم كنت غراً!

(1) ضرب من ضروب كرة القدم.

في الشوط الأول تقريباً، أو بعده، كان هناك ضحك نصف مكتوم من أحد أركان الملعب. «أين ويلف الشاب، فعليه أن يجرب واحداً» والواحد هذا إنما كان قرصاً، لا، ليس قرص دواء، كما قد يظن البعض بل هو من ذلك النوع الذي يستخدم عموماً لإثارة الشهوة الجنسية. حسن، على الأقل يمكنني أن أقدم دليلاً شخصياً ما في حال ظهور أية أدلة مضادة، رغم أن القلة من الناس من يرغبون في تسجيل أدلتهم على الورق. لقد فعل القرص مفعوله. ربما كان يحوي قدراً ضئيلاً من مادة الأخيضر، وربما كان مجرد مهدئ أو مسكن. المهم أنه فعل مفعوله.

نعم بالطبع، هم أكدوا لي أن بإمكاننا أن نذهب إلى الفتيات، وأين نذهب إذن؟ وهكذا، وأنا تحت المراقبة الدقيقة والاستحسان من الجميع، أخذت القرص - وأنا في التاسعة عشرة، التاسعة عشرة تماماً. حسن، لقد قلت لصديقتي السابقة، ترى ألم أقل إن علامات الصلب الظاهرة لدى بادري بيو ليست سوى مسألة إيحاء؟ والخبرة توصل إلى الكمال.

كما كان زونكرن يقول لنا عادة حين يعطينا إشعاراً. فتطلعت إلى الأمام خائفاً، مشحوناً بطاقة هائلة من الليبيدو، لكن سأقول، إنه لم يحدث شيء على الإطلاق على الصعيد الفيزيولوجي ثم انتهت تلك الأمسية بأن رحنا نشرب ببطء أنصاف مكاييل من الشراب، ونغني أغاني الروغر ونتحدث أحاديث قذرة، كما انتهت بملاحظة غريبة قذفت في طريقي.

«هل تشعر أنك على ما يرام يا ويلف الشاب؟ متأكد، ها... ها» لقد قال لي المنوم المغناطيسي، لعنة الله عليه، «لديك استعداد كبير لتلقي الإيحاء المغناطيسي، يا سيدي».

حسن، في هذه الأيام لن تجد شاباً أحمق سميك ـ الدماغ هكذا، فهم يعلمون كل شيء قبل أن يبلغوا العاشرة من عمرهم، لكنني وجدت نفسي في حالة من التهيج لم يكن ينفع معها حتى الاستمناء. وهكذا ظللت طوال الليل أتلوى وأئن، إنما لم يجد ذلك نفعاً. في اليوم التالي اضطررت للذهاب إلى المصرف وأنا في حالة التهيج تلك. ثم وقفت خلف النضد والعارضة تنتصب أمامي وأنا أبتسم ابتسامتي المشرقة للمزارعين، المعلمين، القساوسة، العجائز، الصبايا، وهم يحملون لي مدفوعاتهم الأسبوعية أو يأخذون المبالغ ليدفعوا أجور العاملين لديهم، ورغم ذلك لم يخف تهيجي مليمتراً واحداً.

«يمكنني أن أشارك في المزحة يا ويلف».

وكان يتفحصني بكل جد، فيما كان ضوء الشمس الغاربة القادم من النافذة يخفت ويبهت.

«مزحة؟ كيف يمكنها أن تكون مزحة؟ إنني أفكر بعملي كموظف مصرفي».

«لم أكن أعلم».

مثل «ت.س. اليوت».

وفي الحال جعلتني الإشارة إلى ت.س اليوت والموظف المصرفي المتهيج أشتعل مرة ثانية.

«يمكنني أن أعطيك رأياً جديداً حول العمل المصرفي يا ريك».

«هل يمكنك فقط أن تذكر تاريخ التسجيل؟».

«اهدأ يا رجل، بلا فوضى».

وكانت تلك بالطبع، روح المهزلة. بشكل من الأشكال يمكنني أن أصف حياتي على أنها انتقال من لحظة من لحظات مهزلة إلى لحظة أخرى. مهزلة على هذا الصعيد أو ذاك. مهزلة ذات طبيعة ساخرة مهرجها ذو أنف محمر وشعر زنجبيلي وبنطال يسقط دائماً في اللحظة الخطأ تماماً. نعم، مهزلة من المهد. فأول مرة أطلقت فيها النار على رأس حصان سقطت، وكان سقوطي على كومة زبل. وتلك مسخرة بالحس الهزلي الجيد، أعني، لقد ظل يشغل بالي، على ما أذكر، تحسري الدائم، إذ كنت أقول في نفسي: «لو مرة واحدة فقط وقعت على شيء جدي، شيء ليس مثيراً للسخرية ـ».

حسن، كان ما يزال هناك وقت.

«حدثني يا ويلف».

أجل، كان بإمكان ريك أن يحصل على ذلك. كان بإمكانه أن يبدأ بكومة الزبل ثم يستمر إلى أن يصل إلى موظف المصرف. لم أكن لأبالي، بل كنت سأدون ذلك بنفسي وأستمر

أحكي إلى أن أفضح كل ما في الصندوق. إن كان ذلك ما يـزال ممكناً. لكن لدهشتي، وجدت أن باستطاعتي أن أرد النظرة إلى الشاب القوي البنية المرتدي بذلة مائلة للجودة وقميـصاً أبـيض وعقدة مدرسية (لامعـة بعـض الـشيء ربمـا، لكـن بتركيبـات الألـوان البـسيطة كانـت تتخـذها الأمـاكن الراقيـة) نعـم كـان باستطاعتي أن أرد له النظـرة نظـرة تحمـل وتـسامح بـل وحـتى مودة. وتذكرت ـ

«ما هي المزحة يا ويلف؟» سأل ريك:

ـ تلك المرة التي أمسكوا فيها ويلفريد باركلي وهو يمـنح بنـسين للمـصرف كـي يـدوّر أرقامـه، والمـشاجرة مـع خـازن الصندوق، نظراً لأن إعطاء المصرف مبلغاً صـغيراً كهـذا هـو، حسب رأي الخازن ورأي المدير والمصرف وكل من أعرفـه في مصرف إنكلترا، أسوأ أخلاقياً بكثير من أخـذ مبلـغ منـه. وكـان الخازن ودياً فعلاً فأعاد لي البنسين.

«لا أحد، لا أحد على الإطلاق يغادر هذا المـبنى إلى أن يتم حساب الموجودات حتى آخر بنس».

وقد أنقذني (أو كما يمكـنني القـول الآن، أخَّـر فـراري) لعبي الروغر الذي كان قد حظي بالقبول من كـل جانـب. لكـن حين اكتشفت موباسان باتت الأمور أكثر صعوبة. بعدئذ جـاءت النهاية. وقد تمثلـت النهايـة في مفـتش مـصرفي سـكوتلاندي، وجدت نفسي أقتبس من أقوالـه لريـك، بلهجتـه الـسكوتلاندية الغريبة:

«تعلم يا سيد باركلي أنك أعطيتني نظرة جديدة تماماً عن الأشخاص».

في ذلك الحين أعرب المدير عن أسفه على خسارة شخص بهذا التألق والإشراق سواء بالنسبة إلى المصرف أم بالنسبة إلى المدينة.

«لكنك ترى يا سيدي باركلي، المسألة مسألة قلب، وقلبك ليس معنا فعلاً، أليس كذلك؟».

بعد ذاك أمضيت فترة من الزمن كعريس، ثم سرت بضع خطوات باتجاه المسرح، ثم حملت رمحاً في ايلسترى[1] بعدئذ قضيت بضعة أشهر كمراسل صحفي في إحدى المحافظات، أدون تقريباً أي شيء تصله يدي. بعدئذ اندلعت الحرب وحين رجعت حاملاً بضعة جنيهات، كتب «المرفأ البارد» نفسه بنفسه ـ فأنا لم أكتبه ـ ثم نشره شتاين وكوهورن وهكذا سارت الأمور بسرعة.

سيرة ذاتية لويلفريد باركلي. حسن، لم لا؟ هل الفكرة تثير أية سخرية أكثر من المادة التي يمكن أن تحويها؟

«ومن هي لوسيندا؟».

ثمة بداية، إنها فشل رجل مسن في تقصير صلة الوصل بين الكلمات الموجودة في ذهنه والكلمات الموجودة على لسانه. كان ريك ينظر إلي متفحصاً. طبعاً ـ هو كان هناك، طلقة

---

(1) اسم مدينة.

جاهزة في بندقية ضغط. المشهد كله ينطبع بعمق بذاكرته كما هو في ذاكرتي. هززت رأسي ثم منحته ما كنت آمل أن تخرج ابتسامة غامضة لا يستطيع تفسيرها، فعبر سيماء البروفسور ظل من الظلال (كما يمكننا أن نقول بطريقتنا المتسمة بالمبالغة) حين رأى أن الدكان لم يعد مفتوحاً.

فلوسيندا كانت أكثر من مشكلة، مشكلة أكثر اختلاطاً، على حافة المحظور تقريباً. وكثير منها، إن لم يكن كلها، إنما كان نتيجة لفكرتها هي، لا فكرتي أنا. في كل ما يتعلق بالجنس، كانت لوسيندا عبقرية فذة، لو شاءت أن تكتب مذكراتها! ليحمِنا الله! كتاب ليس لأحد، سوى الباحثين الشجعان في ميدان المزارع البشرية. لقد كانت مبتكرة مبدعة! أيها الناس. ماذا تنتظرون؟ خذوه معكم إلى المنزل. هدية للزوجة، للأولاد، للعجائز الأعزاء الذين، في أفواههم الدرداء، لا تذوب السمنة.

ـ شيء جديد ـ

إنها كاميرا من نوع جيفي ـ بولارويد متنقلة على ما أظن. إذ كان لديها واحدة قبل أن يطرحوا كاميرات البولارويد في السوق. وبالطبع، هي كانت تعرف رجلاً. ثق بلوسيندا. فحتى سيارتها كانت مكان عمل سريع. لكن استخدام الكاميرا كان من بنات أفكارها ولا يعلم إلا الله لماذا كانت مثيرة جداً لكنها هكذا كانت إلى حد تجعلك تشعر أنك شاب في «أمسية القديس أغنيس»، فوق مستوى البشر الفانين، مستوى موظف

مصرفي عادي. بالحقيقة، لقد كانت أكبر مني بعشر سنوات، لكنها كانت تحافظ بعناية شديدة على آخر ما فيها من دماء، فقط كي تركب فيلماً ثم نستلقي ونحن عاريان أو شبه عاريين في الفراش، نراقب الظلال الخافتة، الأشكال التي قلما أشبعت لوناً، ثم يبدأ الفيلم فتصرخ «هذه أنا» «ذلك أنت»، فهي بالطبع، كانت بحاجة لوجوه، لوجهها أكثر الأحيان ووجهي بعض الأحيان، لكن نادراً ما كانا يلتقيان في الصورة نفسها. ليس معقولاً في الصورة نفسها.

إنني أعلم الآن أن نفورها من تصوير وجهها في أوضاع كهذه، ثم رؤيتها له بعد ثوان فقط وهو بالألوان الكاملة إنما كان يشبه لديها إلقاء نفسها على مفترق طرق وإيقافها لحركة السير، أو الطلب من إمبراطورة على المسرح أن تطبخ بازلاء، أو بطة أن تزأر. ذات يوم، أبدت ملاحظة عرضية وهي أن من الأفضل أن ننتظر قليلاً لأنها تعتقد أنها ستصاب بالسيلان ولم أكن أعرف المراوغة السريعة حتى في ميدان الروغر. بعد ذلك - وبعد ذلك بزمن طويل - جاءت الرسالة التي مزقتها، جنباً إلى جنب مع الصور الفوتوغرافية التي تظهر فيها كما تظهر أجزاء مجهولة مني، ثم ألقيتها في سلة المهملات - أحمق لا لشيء إلا لكي أجعل الرجل المنبعث للحياة من جديد يبحث عنها مرة ثانية. كنت قد احتفظت بالصور التي يظهر فيها وجهي، مع ذلك كان هذا كله قبل أيام اليزابيث - إذن لماذا جعلتني ذكرى لوسيندا في تلك السن الأكثر تسامحاً، أرتعش أشد الارتعاش قلقاً واضطراباً؟

مارغريت. تلك كانت صلة الوصل. تذكرت مباشرة فشعرت بوخز في داخلي. لقد بذلت ما في وسعي كي أنسى كل ما يتعلق بمارغريت وقد أفلحت تماماً في ذلك. وحدها لوسيندا كانت جزءاً من القضية. سألتها النصيحة. حكيت لها عن الرسائل الفاحشة المجنونة التي كنت قد كتبتها لمارغريت، المرأة الوحيدة التي رغبت فيها ولم أصل إليها، الاتهامات، اللعنات على زواجها، أوه! مستحيل! قذر! ـ لابد أنني كنت مجنوناً، مجنوناً بكل ما في الكلمة من معنى. وحين شفيت من غرامها حاولت يائساً أن أستعيد الرسائل ـ بل كدت أجن مرة ثانية من أجل ذلك.

لكن لوسيندا كانت مفعمة ازدراء.

«الأمر بسيط تماماً، بل هو أسهل شيء في العالم، ابحث عن محام كثير التحمل، أعطه عنوانها ومائة جنيه ثم عد إليه بعد شهر ولسوف يسلمك رسائلك مغلفة بظرف أصفر، لا تقل شيئاً بل افعل ذلك يا عزيزي الصغير، ولسوف ينتهي كل شيء. أوه، يا صغيري! يا الله! علي أن أطالبك بالآلاف لقاء هذه الصور».

«ستكون المطالبة ـ غير قانونية».

فهتفت بكل ما في الدنيا من مرح «مجرم، لكن ذلك من شأن المحامي، أنت تضع صور الفيلم في علبة، أليس كذلك؟.

«علبة صغيرة».

فقالت لوسيندا بهيئة من يحاكم الأمور محاكمة منطقية هادئة «إن كان رجل موسر لا يستطيع أن يشبع رغباته في مجالات كهذه، فلماذا المال؟».

«أنا لا أعرف محامياً شديد التحمل. محامي لا يتحمل كثيراً. إنه فظ».

«ليس هناك أي محام لا يتحمل، بل هناك البعض أقل تحملاً من الآخرين».

وعادت إلي الذكرى، وأنا جالس قبالة ريك تكر الذي كنت أرى خلفه النجوم والثلوج. تلفني معها دهشة تقطع الأنفاس. فمنذ أكثر من ثلاثين عاماً، كنت بالحقيقة قد ذهبت، بأساليب ملتوية متعرجة، إلى محام شديد التحمل، أعطيته مالاً، ثم حولت نفسي إلى عنصر مساعد في الجريمة، بعدئذ انتهت العملية إلى لا شيء بل إلى ما هو أقل من لا شيء. فحين فتحت ظرف الورق الأصفر، وأنا واقف في شقتي بجانب النار التي كنت قد أشعلتها بنية إحراق رسائلي المثيرة للإشمئزاز والشفقة، وجدتني أقف مبهوتاً مذهولاً دقائق بكاملها. فقد كانت الرسائل مربوطة بشريط زهري بعدئذ وجدتني أطفو من بحر أوهام السكير، الذي غرقت فيه أشهراً طويلة، فهي لم تكن رسائلي على الإطلاق، بل رسائل من زوجها، عروضاً طنانة غير مترابطة من ذلك الوكيل العقاري الغبي، لكنها كانت تحبه، وكانت قد احتفظت بتلك الرسائل كآثار باقية. أما رسائلي ـ تلك التي لم أكن أتصور أن هناك أحداً على وجه

الأرض يحرقها، لشدة كبريائي وغطرستي (مجنون، مجنون، مجنون) فإنها، مذ صارت على ذمة رجل - قد حرقتها - هي التي كانت مفعمة بالفحش والفسق، أم تراها - وذلك هو الأسوأ - قد احتفظت بها فعلاً؟ هل هي الآن تطوف في العالم، العالم الخطأ؟ إن كان الأمر كذلك، فإن اختفاءها جنباً إلى جنب مع اختفاء رسائل زوجها سيكون دليلاً واضحاً. إذن، أنا لم أتحرر، ولن أتحرر قط من بروز ذلك الاحتمال -

«آمل من الله أن يدمر ذلك المكان».

وكان أحدهم يتطلع إلي - محملقاً.

«ويلف؟».

أشحت بناظريّ عنه ثم سمحت لهما أن ينزلا متتبعين أنفه، ذلك الجسر البارز قليلاً، ثم شفته العليا الطويلة، فالشفة السفلى التي هوى إلى الأسفل قسم منها، ، بعدئذ دخل المنظر، الذي لم تكن عيناي تريانه، المنديل وهو يمسح به فمه ثم اختفى ثانية. كان يرتدي قميصاً مخططاً بالأبيض والبني، قميصاً واسعاً للغاية، من تلك القمصان التي كنا نعتقد أنها مبتذلة كثيراً حين كنا في سنه.

«أهناك أي خطأ؟».

«لقد حرقت رسائل زوجها، بالطبع، إذ لم يكن بمقدوري حتى إعادتها. كنت أعيش في حالة عقلية مخيفة وكذلك في حالة مخيفة من الرعب وهكذا رحلت إلى أمريكا

الجنوبية كما لو أن الشرطة كانت تطاردني. وظلت تلك القضية، وعلى مدى سنوات، تظهر إلى السطح، متنكرة بزي كوابيس أو أحلام غريبة من أحلام شبه اليقظة إلى أن بهتت شيئاً فشيئاً وغدت أوهى من أن أتذكرها، حين أضطر كما هو شأني الآن، لأن أعود بذهني إلى الوراء.

إنه لأمر غريب أن أعتقد أنه ما من شيء كان سيحدث لولا لوسيندا. فقد كانت من ذلك النوع من الناس الذين يتتهون بتناول المخدرات، والذين يقول عنهم الناس المحبون للخير إنها عدوتهم الألد، رغم أنها لم تؤذ أحداً سوى نفسها. فهم لا يعرفون أو يفهمون إلا القليل القليل عن تلك السلسلة الصوانية التي تربط الجريمة الصغرى بالجريمة الكبرى، ثم تقود المرء إليها خطوة خطوة ما لم يلتفت ويواجه الحقيقة بدلاً من الهروب منها. كم هم على خطأ فيما يتعلق بلوسيندا! فنحن جميعاً أعضاء يكمل واحدنا الآخر... ها... إلخ...».

«ألا يمكنني أن أشارك في المزحة؟».

«أجل أظن أنها مزحة، فأنا سكران. تناولت الكثير من البراندي».

«ويلف، ثمة أثر من... لنقل عدم الثقة بالنفس، لا يسمح لك بأن ترى الأهمية في سيرة ذاتية ـ» كانت قد سلته قصة الموظف المصرفي كما تقبل بإشفاق وشيء من الهزء حماقات عشيق لوسيندا ـ (عنوان مناسب لرواية رومانسية، ذو مقاطع مفردة) ـ لكن الرسائل، مارغريت، جريمتي ـ «ملاحظة

فقط ـ ففي هذه اللحظة من الزمان ليس علينا، بالطبع، وبكل رجاء، أن نفعل أكثر من أن نوافق على العناصر الأولية».

الهروب، دائماً الهروب، جناح ثلاثة يهرب مذعوراً خشية أن يمسك به جني هائل يخرج من زبد البحر ـ

«فقط ملاحظة يا ويلف، توقعها بيدك وتخولني فيها، خاصة في حال وفاتك، أن أقدم للأجيال القادمة ـ».

حسن. هو ذاك الجني الهائل الخارج من الزبد.

«ريك، إنك تعطيني الشرف في وضعي بين الملوك، الرؤساء، السفاحين، الشخصيات الهامة ـ».

فالتقط فكرة كانت بالنسبة إليه أشبه بلمعة الذهن،

«أيضاً توماس وولف، همينغواي، هوثورن و ـ» هنا، غاص صوته فيما يشبه الخوف «وايت ميلفيل».

«أنا لست أمريكياً، هذا نقص بالطبع. مع ذلك، فقد كانت اليزابيث تقول عادة ـ».

«نعم، يا ويلف؟ تابع».

تلك هي طعنتها الأقذر، إذ إنها ككل الشتائم الزوجية الجارحة ثمة بعض الحقيقة فيها، حقيقة لا أحد يعرفها سواها. فقد قالت لي ذات مرة (وهي تجلس إلى الجانب الآخر من طاولة المطبخ المنظفة، وكل شيء يسوده جو الألفة المنزلي) قالت لي لو أنني أعطى نصف فرصة فسأثبت أنني عبقري، رجل عظيم ـ

«ذلك ما كنت تريده دائماً يا ويلف ـ يا الله! أتراني أجهل ذلك ـ خاصة قبل أن تقترب منك أية فتاة جميلة حمقاء وتقدرك حق قدرك، الوحش المقدس خارج القواعد المتفق عليها. كنز قومي أنت. النقطة الأساسية فيك هي أنك الكلمات التي لا يمكن للعالم أن يدعها تموت في حين أن ما تكتب هو ـ».

«شعبي».

«هذه فكرة شائعة خاطئة يا ويلف».

«أن عملي شعبي؟».

«لا، يا للجحيم! أعني أن الشعبي هو ـ».

«أدنى قيمة».

«أنا لم أقصد ـ كنت أريد الجانب المتعلق بها من القصة».

سخريتها كانت أشبه بعمل الجلاد، إنها أحد الأشياء التي جعلتني أجري، أتجنب ذلك العرض، أخفي نفسي أكثر فأكثر، ذلك أنها، وبمعزل عن الاعتبارات الأخرى كلها، برهنت لـ ـ لمن؟ لها؟ لي؟ أنني لم أكن أسعى وراء شهرة، ولم أكن أهتم بالمواقف.

«ماذا تعني بالجانب المتعلق بها من القصة»؟

«فهمت يا ويلف يا سيدي، الحاجة للحرية. أوه، حتى مع ماري لو، بيني وبينك ـ».

«الجانب المتعلق بها من القصة».

«لقد كانت سيئة معك في وقت من الأوقات، كما قالت، لدرجة أنك «فررت» إلى أمريكا الجنوبية. وكانت تمر ببعض المشكلات مع اميلي. لقد نسيت أي بلد ذهبت إليه في أمريكا الجنوبية، ومتى تراه كان ذلك؟».

أمر غريب. كنت أرى سيرورة العملية كلها. لم تكن المسألة مسألة مفهوم فكري ما، بل كنت أحس بها كما أراها، أخشاها كما ألمسها، وكانت بسيطة تافهة، لكنها شاملة عامة. وكانت مجرد شيء يخرج من آخر ـ أوه، فقط ذلك. لا أكثر ـ مارغريت، الرسائل، لوسيندا، خوفي، هروبي ثم هروبي. شيء يلي الآخر.

أمريكا الجنوبية

في أية سنة فعلاً؟ ما تراه كان سيكتشف، وهو يخوض على نحو لا يكل ولا يمل، متتبعاً آثار حياتي الماضية بقدميه الضخمتين، متشمماً بأنفه الأرض كي يتبع ذلك الأثر البارد القديم؟ سيرة ذاتية حديثة حقاً دون موافقة صاحبها. طبعة رخيصة في سنغافورة، عشرة ملايين نسخة تخرج من مطبعة في شارع خلفي في ماكاو، لا عراقيل في وجهها، تباع فوق أو تحت كل نضد. كم تراهم سيضحكون على ويلف باركلي وهو يتجول في أمريكا الجنوبية لاجئاً بين الحين والحين للعادة السرية خوفاً من الشرطة والنساء. فقد سيطر على باركلي خوف شديد من أن يصاب بالسيلان لمجرد ملامسة قدميه الأرض

وذلك كله بتأثير فكرة لوسيندا من أنها أصيبت بـه ذات ليلـة في المدينـة إثـر ملامـستها للأرضـية الخـشبية في حـوض سـفن. وكذلك مواجهة بـاركلي البطوليـة لثـورة مـن الثـورات ـ حيـث قضى بعدها ثلاثة أيام وهو يرتجف في أحد الأقبية، الأمر الذي دفعه لأن ينطلـق مـذعوراً، وعلـى جنـاح الـسرعة، بحثـاً عـن السلامة.

ميت.

كم تراها تلك الذكريات ستبدو قريبة وحميمة؟ أم سأبدو ذا أهمية وقيمة عند نبشها؟ الأمر يستحق كل جهـد بالنـسبة إلى ريك الذي لا يمكنه، كما هو واضح، أن يخبر واحـداً أفـضل، واحداً لا يقف الباحثون ـ الزائفون خلفه رتـلاً في ذلـك الركـام البشري الذي نشكله. ولعله سـيجد طريقـه إلى وسـائل وآليـات أكثر من تلك التي أتيحـت لبزويـل، لـيس الـورق ـ وحـسب، وليس الأشرطة وحسب، بل الفيديو، الاسطوانات، البلـورات بذاكرتها المخيفة التي لا ترحم. غير أن الآخرين، من مكتـشفين بالشم ومتلصصين ومعيدي تركيب وتشكيل وأصـحاب وسـائل وآلات توضـع في الغـرف لـسماع أصـداء كـل كلمـة، أولئـك الآخرين كانوا يرون ظلال كل صـورة ترتـسم علـى الجـدران، مثل بندقية كابستون باورز.

ميت.

طبعاً. ففي أمريكا الجنوبية، وبغض النظر عـن المكـان، يمكن حتى الآن أن يكون هناك تسجيل. ذلك الهندي ـ أو ربمـا

ليس هندياً. فقد كان هناك ظلام شديد ولم يكن لدى سوى الأنوار الجانبية، وبسبب هروبي فقد صممت على أن أقول، إن لزم الأمر أنه كان يسير وسط الطريق تماماً في مواجهة أنواري الرئيسية ـ إذ، هل هناك طريقة يمكنهم بها أن يكتشفوا أنني، لرعبي ونسياني، كنت أقود السيارة على ذلك الطريق القذر كما لو أنني في إنكلترا، أي على الجانب اليساري؟ هم يقولون إنك إن توقف في حالة كهذه يقتلك الهنود الآخرون، وكانت مناسبة لأن تدفع تلك الذكرى إلى الوراء، إلى الأعماق الأعماق، بعيداً، بعيداً حيث تصل أخيراً إلى نقطة لا يعود بالإمكان تصديقها إلا بصعوبة، لا يمكن تصديقها البتة، رغم أنها لا يمكن أن تنسى. حدث ذلك قرب دغل، وكان هو هندياً على أي حال، ومن الممكن بل من الممكن تماماً إنه لم يلق مصرعه، بل ربما لم يصب بأذى كبير، وربما كان مجرد حيوان. لكنني بعد ذلك عبرت مخاضة بسرعة هائلة إلى درجة انسكب فيها الماء شلالات من فوق السيارة، من تراه كان يستطيع فحص ذلك النهر بحثاً عن آثار الدماء؟ هل كل المياه، ها... الخ... وخلافاً لذلك لم أكن أعرف أي شيء فعلاً. كان ينخزني الخيال، الصدمة الخفيفة، الطريق الوعر، الصرخة، صرخة طائر أو أي شيء. لو كان هناك تسجيل ـ لكان ذلك التسجيل يقول: كذا وكذا وجد ميتاً ـ لكن أنا لم أقل شيئاً لأحد، لم أقل حتى لنفسي، بل كنت، فيما بعد، أمر بالذكرى مروراً، المرة تلو الأخرى ـ كيف كان باستطاعتي أن أعود بعد أن خضت تلك المخاضة؟ أعود مرة ثانية؟ أضع نفسي بين

أيدي بعض الأجلاف المغفلين ذوي البذلات الرسمية ثم أشرح أنني ربما كنت قد دهست أحداً، وأنا غير متأكد ـ واللغة هي إحدى الصعوبات التي تعترضني بالطبع. فلغتي الإسبانية لم تكن تسمح لي بالشرح والتفسير، وهكذا أنتهي إلى وضع نفسي في قفص الاتهام من خلال عجزي المحض عن مواكبة المعقول.

اضرب واهرب.

ذلك يحدث يومياً وفي كل مكان وربما مع ظروف مخففة كما هو واضح في مثل هذه الحالة.

«الهذا، صدقني، كانت تقدر كل التقدير عبقريتك».

فشعرت بنفسي وكأنني أطفو على سطح معدن منصهر.

«عبقرية؟».

«ذلك ما كانت تعنيه».

«هراء. لا تنس أنني أعرف ليز ـ أوه، أنا أعرفها فهي تعتقد بأن لدي موهبة، براعة، بأنني أصبت النجاح الذي كان لابد لأحد ما أن يصيبه».

أوه يا إلهي! أوه يا إلهي! أوه يا إلهي! سيرورة العملية، حلقة حلقة، فنحن لا نعلم ما الذي سيخرج من هذه البذرة، أية أوراق، أية أزهار. مع ذلك لتنتش تلك البذرة، ولتقدم لنا المزيد من البذور، ملايين البذور إلى أن يغدو الحاضر كله، الحاضر الشامل، لا شيء سوى نتيجة حتمية لابد منها.

«لو كان باستطاعتك فقط أن ترى طريقك».

«ذلك مضحك، مضحك جداً جداً».

«فقط توقيعك مع جملة أو جملتين تعينني بهما الوصي الأدبي على أعمالك. ليس في ذلك ضرر، ولسوف أكون متعاوناً، بالطبع».

«أنا سكران قليلاً، نتحدث غداً».

«كما ترى، سأكون مخولاً بنشر الأوراق الباقية في عهدتها».

وتأملت سيماءه التي تنضح بالعناد والرغبة الشديدة وانعدام الثقة بالنفس، سيماء المنقب عن الذهب الذي قطع صخرة المرو إلى رقاقات ورأى الوهج الأصفر فيها. جملتي وتوقيعي سيثبتان دعواه التي يراهن عليها. بعدئذ الرسائل، المخطوطات، اليوميات، تلك اليوميات التي تعود تماماً لأيام المدرسة.

جيفرز ولد جيد تماماً وإنني لحريص على أن أكون صديـ ـ إنه لشيء مدهش أن تكون الثاني معه ـ جيفرز أمسك إمساكة رائعة بكرتي البولنغ من أول مرة ـ قلت له كانت إمساكة رائعة لكن لم يبد عليه أنه اهتم بكلامي ـ والحمد لله أن ذلك النوع من العاطفة المثيرة للسخرية والتي هي في غير محلها لم تستمر معي حتى سن البلوغ. إذ أن ذلك كان سيسبب اضطراباً أشد لحياتي.

كان ما يزال محملقاً في وجهي.

«إذن، لو باستطاعتك أن ترى طريقك ـ».

«إني أراه، الفسحة كلها، بوصة بوصة».

لم يكن في ذلك أدنى شك. وانطلاقاً من تلاشي اهتمامي الذي كان في أدنى حدوده، فإن وجه ريك أو وجهيه الاثنين كانا قد انفصلا، أجل، ولم لا؟ فقد كان له وجهان.

«طبعاً يا ويلف، فالسر سيبقى سراً، تماماً كما تبتغي».

وبجهد كبير استطعت أن أجمع وجهيه في وجه واحد، فقد كانت تراودني فكرة كأفكار البلهاء هي أنه ربما كان يُلبس كل وجه تعبيراً مختلفاً، الأمر الذي يفسر لماذا كان واحدهما يلغي الآخر حين تدمجهما معاً.

«كيف بحق الشيطان حصل لي هذا؟ أنا لم أشرب كثيراً».

«إنه ارتفاع المكان».

«أنا المعتاد أن أكون سرطاناً بحرياً، كما تعلم، كما مهملاً ـ».

«شخص طيب كريم».

«أوه، إنها السن والتلف. لا، يا ريك، إن الواجب والتقصير يعودان بي إلى العزلة».

«إلى شيلي».

ووجدتني مرغماً على احترام تلك الإشارة منه، وإن كان ذلك عن غير رغبة مني، ذلك أنني كنت قد عرفت ذلك الاقتباس بمحض الصدفة. فالبيت الشعري كان من ضمن أوراق شيلي المخطوطة وليس من ضمن أعماله المنشورة. كيف، بحق الشيطان؟ فمنذ أيامي تلك كانوا قد نشروا بالطبع، كل ما وجدوه في مكتب شيلي، تماماً كما فعلوا بمكتب بزويل، دون أن يتركوا ورقة واحدة، ودون أن يهتموا برأي ذلك المسكين قط. فالموت يسدد كل الديون، يا للمسيح!

«لعبة مناسبة، أليس كذلك؟».

«انظر، يا ويلف، يمكنني أن أكتب كل شيء على لائحة الطعام هذه، المدير سيشهد على ذلك، ثم يمكنك أن توقع، وينتهي الأمر».

«توقيع وخاتم. إذ يمكننا أن نختمها بقعر كأس براندي. س. و. آ. ل. ك. لا، ذلك مختلف».

«أنا لن أتبعك يا سيدي».

«ها! ثمة شيء لا تفعله، إذن! إنه انتصار!».

«سأكتب على هذه. أنا الموقع أدناه، أفوض البروفسور ريك تكر من جامعة استراخان، نيبراسكا ـ».

«إنك تضع قدميك كلتيهما في الباب، أليس كذلك؟».

«هيا، يا ويلف، هاك قلمي».

كانت كأس ريك الأشبه بالبالون ما تزال مليئة بالبراندي فأخذتها ثم سكبت ما فيها على ظهر اللائحة. بعدئذ ضغطت أسفلها على الورقة فتركت نوعاً من الدائرة يشبه الخاتم.

«ليس هنالك ضرورة لأن تكتب حيث يوجد براندي يا ويلف. اكتب هناك، على الجانب الذي ما يزال جافاً من اللائحة».

«الحقيقة كلها ولا شيء سوى الحقيقة. فليست هناك نبتة موسمية ببذورها الكثيرة وحسب بل ثمة نبتات أخرى من ذلك النوع أو ذاك، كلها مزدهر تماماً في الوقت الحاضر، يندفع قدماً إلى مستقبلي ـ أعمال مجهولة، لكن ينبغي إحياؤها ـ».

«لا، ريك، لا، خير لي أن أموت من أن أقول نعم».

«ويلف، أرجوك ـ أنت لا تعلم ما يعني ذلك لي».

«بلى... أنا أعلم، كما أعلم ما يعني ذلك لي أنا».

ثم طبعت «كلا» كبيرة فظة على ظهر لائحة الطعام وقدمتها له.

«تذكر مناسبة سعيدة».





الفصل السادس

لن أقدم وصفاً لرحلاتي وجولاتي. فأنا أظن أنها تدور بصورة رئيسية حولي وحول تكر الزوج والزوجة، بل أقدم هنا ما هو أكثر من ذلك، رغم أنني لا أستطيع أن أقول ما هو فعلاً، فالكلمات ضعيفة جداً، ضعيفة حتى كلماتي، والله أعلم أنها يجب أن تكون الآن أقوى مما يمكن أن يكون عليه أي كلام.

أصرخ، أصرخ.

بماذا أصرخ؟

فمن العبث الصراخ. إذ ليس لدينا لغة مشتركة. أوه، بلى، ثمة لغة جيدة تماماً فيما يتعلق بالأنظمة الخاصة بنقل المواد السريعة الاشتعال جداً، أو بطريقة صنع سلطة روسية، لكن كلماتنا صكت مثل نقود ذهبية بعد أن مزجت بمعدن آخر ومهرت بخاتم بالٍ.

حسن، إذن.

ذهبت بعد ذاك فألقيت بنفسي على السرير ولم أنهض في الصباح التالي فقد كنت بحاجة، كما قال المدير، لأن أتأقلم. جاء ريك وقرع الباب بإلحاح شديد إلى درجة سمحت له بالدخول رغم أنني كنت أهم بشرب قهوتي الصباحية، فقال

إن ماري لو ستتناول إفطارها في السرير أيضاً. ثم علق على غرفة الجلوس عندي قائلاً، إن المنظر مدهش، أما نافذة غرفتهما فتطل على مؤخرة «شاليه» قريب إلى درجة يمكنك معها أن تعد الذباب عليه.

«أهلاً وسهلاً بماري لو متى شاءت أن تأتي لرؤية منظري هذا». فتوقف ريك عن الكلام ثم قال إنهما يعتبران ذلك وعداً مني، ترى، هل هناك ما يمكنه أن يفعله من أجلي؟ مثال على ذلك، هل كنت بحاجة لشيء بالنسبة إلى سيارة الأجرة؟ وتطلع بنهم شديد إلى دفتر اليوميات المفتوح على المنضدة الجانبية لسريري، فأسرعت لإغلاقه في الحال. بعدئذ سأل ريك إن كان لدي شيء أود أن أمليه، فآلته ـ

«لا شيء، لكن ما تراك تحسبني بحق الله؟ كاتباً؟».

كان الرجل قد نصب نفسه أمين سر لدي.

«مع السلامة، ريك، لا تدعني أؤخرِّك».

لكنه تجاهل ذلك ثم قال إنه سيقضي النهار يستكشف الطريق المؤدي إلى هوشالبينبليك.

«بعدئذ يمكننا أن نذهب مرة ثانية في الغد، إن لم يكن ذلك صعباً عليك».

«حين تستعيد ماري لو عافيتها وقوتها».

قلَّب الملاحظة في ذهنه طويلاً فتوسعت.

«حين يصبح التسلق صعباً كثيراً، سيكون باستطاعتها أن تمد لي يد العون معك».

«لا، هي يسعدها أن تظل جالسة لا تتحرك، يا ويلف».

«ليست فتاة رياضية، إذن؟».

«هي لا تحب إلا ويمبلدونك[1]».

«ليحفظنا الله».

«سأخبرها أنك قلت إن بإمكانها أن تطل إلى هنا فيما بعد».

«قلت ذلك؟».

«من أجل المنظر يا ويلف، من أجل المنظر».

«آه، نعم، نعم، المنظر، أنا وماري لو، سنجلس جنباً إلى جنب نبدي إعجابنا بالمنظر. ومن الأفضل ألا تسقط عن الشرفة».

«افترض أنه ليس من المستحسن السؤال ـ».

«لا، أبداً».

فأطرق ريك لوهلة من الزمن يفكر، ثم قال:

«مع ذلك، سأطلب إليها أن تأتي بما معها».

ومضى وهو ما يزال يومئ برأسه موافقاً على ما قاله هو

---

(1) ويمبلدون: موطن ويلف نفسه.

بنفسه. بعدئذ نسيته ثم لبست ثيابي وجلست أتأمل المنظر. فبعد كل شيء كان ذلك المنظر هو ما يفترض أن الفندق قد أقيم من أجله. كنت قد بدأت لتوي بتفحص ما بقي من دفتر يومياتي لذلك العام - وهو واحد من تلك الدفاتر التي سرعان ما تلقى نهايتها في المحرقة - لكنني وجدت أنه في ذلك التاريخ ملئ على نحو غير عادي. لم يكن فيه شيء عن المنظر بل كان فيه الكثير عن روعة النساء الشابات، عن نيمو والسراب الشكسبيري، بروبتا، ميراندا، وكانت هناك محاولة لوصف ماري لو لكنها كانت مخربشة خربشة. ويلفريد باركلي عصره يكتب عن هيلين طروادة! إنه يعلق على الطريقة التي وضع بها هوميروس قصته ليس من خلال وصفه للنساء بل من خلال وصفه لتأثيرهن في الآخرين. رجال مسنون يتكومون مستندين إلى الحائط يراقبونها وهي تمر ثم يقولون: لا عجب أن تثير امرأة كهذه ذلك القدر من المتاعب، مع ذلك دعوها تمضي إلى موطنها قبل أن تثير لنا متاعب أكثر! أو كلام من هذا القبيل. أنا لم أقرأ هوميروس إلا مترجماً لكن ذلك ما أتذكره. حسن، ماري لو تركت الشمس تشرق على البحيرة ثم ذهبت فذهبت الشمس معها. ماري لو تقيأت وأبدى أحدهم أسفه على وجهها الشفاف بدلاً من أن يبدي - كما فعل ويلف مثلاً - اشمئزازه. أنا لا أستطيع - ولم أستطع - حتى أن أصف يديها بكل ما فيهما من شحوب ودقة ونحول. ثم انتهيت، كما اكتشفت الآن إلى مقارنة نفسي بالرجال المسنين المستندين إلى الجدار. نعم، دعوا هيلين تذهب إلى موطنها قبل أن تثير المتاعب.

كنت قد كتبت كل هذا الذي أتذكره الآن، رغم سحر المنظر، حين سمعت طرقة على الباب الخارجي. عبرت ردهة الانتظار ثم فتحت الباب لأجد نفسي وجهاً لوجه أمام هيليننا الصغيرة وفي يدها صينية عليها فنجانان من القهوة.

«تفضلي، تفضلي، هنا، تفضلي ـ دعيني آخذ الصينية عنك... تفضلي... اجلسي...».

لقد أصبحت في حالة يرثى لها من الارتباك، أما ماري لو فقد طوت نفسها داخل كرسي قاضية على أية محاولة أبذلها في مجال الوصف المباشر قبل أن أصفها على الورق. لقد أراحت يديها في حجرها كما لفت كاحليها واحدهما على الآخر كعادة النساء. بعدئذ أدارت رأسها بحيث تنظر من النافذة فبدا وكأن تلك الحركة المتكيفة مع المكان قد بدلت كل ملمح من ملامح جسمها.

«هنا، لديك منظر رائع حقاً، يا سيد باركلي».

«ويلف، من فضلك، كما قلنا من قبل، نعم، فأنا أجد صعوبة بمكان كبير أن أنظر إلى شيء آخر».

في العصور الوسطى كان الفنانون والمزخرفون، متأثرين بالقداسة، يصنعون قديسيهم من الذهب. بعدئذ أصبحوا وربما أصبحت ـ الرؤية ـ كذلك أكثر انتقائية فغدوا يضعون رأس القديس ضمن هالة من نور... كذلك الجمال على ما أظن، ذاك الذي كان كما قال عنه أولئك الرجال المسنون حين رأوه وهم يجلسون إلى الحائط، أصواتهم حادة وجافة كصرير الجنادب.

«موح حقاً».

«يا إلهي، أجل، حتى إنه لا يظل معه مجال لكلام».

فتحت سحاب حقيبتها وهي ترجع شعرها إلى الوراء بحركة من يدها الرقيقة، ثم أخرجت مغلفاً.

«آ، تذكرت، ريك طلب إلي أن أسلمك هذا».

«ما هو؟».

وللتو رأيت تغيراً مباشراً يطرأ على لون وجهها، تغيراً طفيفاً للغاية ـ لكن بعد ذلك بدا لي أن كل ما يتعلق بها هو وهم أكثر مما هو حقيقة. ربما لم تكن ماري لو موجودة على الإطلاق بل هي طيف من أطياف الجمال المطلق، مثلها مثل هيلين الزائفة التي سببت كل ذلك الألم في البحث عنها عبر العالم.

«ريك قال لي أن أعطيك إياه».

«ممكن؟».

كان في داخل المغلف مغلف آخر أصغر منه، في داخله ملاحظة مطوية بعناية: «نذهب غداً في رحلتنا للبحث. آمل أن يكون حظ ماري لو أفضل من حظي. ريك».

نظرت نظرة سريعة إلى ماري لو لكنها كانت قد أدارت رأسها بعيداً. كانت تتأمل المنظر، بالطبع. يداها تمسكان بذراعي الكرسي على نحو رائع ولكن ليس رائعاً، تماماً.

فتحت المغلف الداخلي فوجدت فيه ورقة من أوراق الفندق وقد كتبت عليها جملة أو جملتان تقضيان بتعيين المساعد ريك. ل. تكر من جامعة استراخان، نيبراسكا، كوصي أدبي على أعمالي وتخويله كل حق بتسهيل الوصول إلى الأوراق الموجودة حالياً في عهدة السيدة اليزابيث كابستون باورز، ثم كتب اسمي في أسفل الورقة مع حيِّز من الفراغ يكفي لتوقيعي.

ومن جديد نظرت إلى ماري لو.

«ألا تعرفين ما هذه؟».

فأجابت بما يمكن أن يدعوه صوتاً دقيقاً فقط.

«ريك قال لي أن أسلمك إياها».

فتاة مسكينة... كانت تتجنب الكذب المباشر، ربما هكذا، وربما كانت تشمئز مني ومن الوضع كله، لكنه كان اشمئزازاً غير عادل. لقد حاولت أن أتخلص لكنني لم أستطع، فقد لحقوا بي حتى الوايسولد.

«قولي لي يا ماري لو. ما الذي تبتغينه لريك؟».

أطرقت ماري لو تفكر أو بالأحرى حاولت أن تفكر. فنجم عن تلك المحاولة تغضن خفيف في جبهتها الرائعة، لا أكثر.

«أوه، هيا، لا بد أن لديك فكرة ما».

«ما يبتغيه هو، على ما أظن».

«أستاذ ذو كرسي؟ منصب؟ كتب؟ ظهور على الشاشة التلفزيونية؟ شهرة؟ ثروة؟ ربما شيء أو ـ أنا لا أدري كيف تجري هذه الأمور ـ في مكتبة الكونغرس؟».

«أنا ـ».

«نعم؟».

«ألا تريد شيئاً من القهوة، سيد باركلي؟ حليب؟ سكر؟».

«لا، قهوة سادة. ويلف».

«من فضلك. انظري، سأطرح المسألة بطريقة أخرى. هل لديك أية فكرة عن السبب في ملاحقة ريك لي؟ أنت ترين، الكتّاب كثر، العشرة منهم ببنس، المائة ببنس، بل ربما هناك كتّاب أكثر بكثير من الأساتذة الجامعيين، علماً أن بعض هؤلاء هم أيضاً من الكتّاب. فهيا، بلا مجاملة، أنا أريد الحقيقة، الحقيقة المجردة الخالصة».

«أظن أنه معجب بعملك».

فانحنيت غير أن ماري لو تابعت بقدر كبير من البساطة.

«وأتوقع أنني أنا أيضاً سأكون مثله».

ولكي أجيبها على ما قالته، استغرق ذلك مني بعض الوقت ومعظم ما في الفنجان من قهوة.

«بالحقيقة، يا عزيزتي، كتبي خاصة بمطالعة البالغين

للغاية ـ ما عدا «الطيور الجوارح» بالطبع، ومن الممكن التساهل أيضاً مع كتاب «المرتزقة»».

فأومأت برأسها بكل حصافة وحكمة.

«هذا ما يقوله ريك».

«أوه، هو يقول ذلك؟ حقاً يقوله؟».

«نعم يا سيدي. هو قال: يبدو أنك حين كتبته لم يكن في ذهنك أنهم سيخرجونه فيلماً».

«هو ذلك، هو ذلك، فقط ـ أنت تعلمين لقد كان الناس على ذلك النحو في القرن الرابع عشر. ومن الطبيعي تماماً ـ أن يكونوا متهورين في إيطاليا. على أي حال، كان الأمر كذلك. إذن، إن كان يفكر على هذا النحو فلماذا يلتصق بي كالعلقة؟».

«يقول إنه ما من إنسان يفعل لك ما يفعله هو في هذه اللحظة من الزمان».

«أنا مجروح».

«هو لم يستطع أن يجد أحداً. لقد بحث، يا سيدي باركلي، عفواً، يا ويلف، لأنني أنا بحثت أيضاً. فأنا طالبته كما تعلم، وقد عملنا معاً في كتبك يا سيدي، وقد قال إنه في مثل ذلك النوع من الدراسات يمكن لأنف أن يهزم الدارس كما قال إنه أمر أساسي أن يكون المرء سريعاً بقدر ما يكون دقيقاً. لذلك كان علينا أن نعرف صاحب العلاقة معرفة تامة».

«أنا تعنين؟».

«هو قال إننا نستثمر وقتنا وأموالنا فيك أنت. أنت مشروعنا ـ يا ويلف ـ وليس هناك مجال لأن نرتكب أي خطأ».

«لعله ارتكب خطأً كبيراً».

«إنها الغرفة الخلفية في الطابق الأول، تلك هي، أليس كذلك؟».

«أنا لا أدري عما تتحدثين».

«فيلستد ريجينا».

«الكوخ؟ ذاك الكوخ الواقع على طرف البحيرة؟ المطل على الغابة؟».

«نعم يا سيدي. حيث ولدت. لقد التقطنا صوراً. وتلك هي الغرفة، أليس كلك؟».

«هذا ما قالته أمي، ولابد أنها تعلم! أوه! يا إلهي!».

«إنها الغرفة ذات النافذة الصغيرة؟».

«يا إلهي، يا إلهي».

«الرجل الذي يعيش الآن هناك، لم يعترض قط، بل تركنا نصعد إليها».

«ألم تلتقطوا صورة للبيت الذي مت فيه؟».

«سيدي؟».

«يا إلهي».

«هل قلت شيئاً ـ؟».

سكبت لنفسي بعض القهوة ثم جرعتها جرعة واحدة.

«لا، أبداً، من فضلك تابعي أنت ـ أنت تساعدين ربك».

«حسن، هناك السيد هاليداي، كما ترى».

«أنا لا أعرف رجلاً بهذا الاسم».

«إنه رجل ثري، ثري حقيقي، أعني، لقد قرأ كتبك، وهو معجب بها».

«شيء رائع، أن يقرأ الأثرياء».

«أجل... شيء رائع منهم، أليس كذلك؟ وقد أعجب بكتابك الثاني أكثر من أي كتاب آخر، إنه كتابك ذاك... «كلنا نحب الغنم».».

«كيف تعرفين أسماء كتبي إن كنت لم تقرئيها».

«لقد تخرجت من فرع تنسيق الزهور والتصنيف المكتبي. وقد قالت سكرتيرته، أعني سكرتيرة السيد هاليداي، إنه معجب على نحو خاص بهذا الكتاب «كلنا نحب الغنم» كما قالت إنه سجل ملاحظة خاصة عليه».

«آ».

«دعني أرَ إن كان باستطاعتي أن أتذكر موقع تلك الملاحظة تماماً. إنها حيث تعترف بأنك تحب الجنس لكنك لا تستطيع أن تحب».

بعد ذلك خيم الصمت برهة طويلة من الزمن لم ينبس فيها أحد ببنت شفة. كم دامت؟ لو كنا في رواية لكنت سأراقب ساعة الحائط، وربما ألاحظ الزخرفة المحيطة بالزجاج ثم أندهش حين أرى كيف يتحرك عقرب الدقائق من الساعة العاشرة إلى الثانية عشرة، لكن لم يكن ثمة ساعة حائط. حسن، كانت تراودني أفكار، لكن لم يكن يشغلني شيء سوى الشعور بطول الوقت. وضعت ماري لو فنجانها على الطاولة.

«حسن ـ».

«لا ـ دقيقة واحدة، لا تذهبي... أعني، لماذا؟ لماذا السيد هاليداي؟ هل يقدم برنامجاً عن عدم القدرة على الحب؟ أخبريني بحق الله».

«لا، يا ويلف. السيد هاليداي مولع كثيراً بالنساء».

«إذن، أنا لا أرى سبباً لإعجابه بي، لكن دعي تلك المسألة جانباً، فربما التقطني من كتاب مرجعي بأحد الدبابيس».

«لا، لا، هو قرأ ذلك الكتاب ـ».

«كلنا نحب الغنم؟».

«ثم طلب الكتب الأخرى كلها».

«رائع!».

«ـ بعدئذ أرسل سكرتيرته للبحث والسؤال. سألت رئيس جامعة استراخان، وكما ترى، كان السيد هاليداي قد قدم لهم المعبد المسكوني ومكان التزحلق وآلة الثلج وملاعب التنس ـ».

«أنا أرى تماماً أن له باعاً طويلاً. ثم قابل ريك ـ».

«بل كما قلت يا سيدي باركلي. إنها سكرتيرته، فهو يتجنب كل احتكاك بالناس، على الأقل ـ».

«ما عدا مجموعته الخاصة من النساء. الشيطان العجوز!».

«لكنه ليس عجوزاً يا سيد باركلي، بل هو ليس أكبر سناً منك».

وخيم الصمت.

«ترى ألم يسبق له أن كتب روايات شديدة الرواج في أي وقت؟».

«لا أظن ذلك. على الأقل هذا ما أعرفه. لكن يمكنك أن تقول إنه كان هناك فجوة حقيقية. أعني، بعد أن كان ريك قد انتهى من مسألة الصوتيات قرر أن يتخصص بك، لأنه أحب كتبك، يا سيد باركلي. هو فعلاً أحبها. عندئذ اتصلت سكرتيرة السيد هاليداي برئيس جامعة استراخان الذي سأل البروفسور ساندوز ثم ها أنت ذا».

«لكن رجلاً بمثل ذلك الثراء يمكنه أن يتحمل نفقات أكثر من كاتب واحد - بل بإمكانه أن يصنع منهم مجموعة كمجموعته من النساء».

فأطرقت ماري لو بإيماءة من رأسها. بعدئذ، وفي الوقت الذي راودتني فيه فكرة بأن إذلالي اكتمل، قدمت لي ماري لو لائحة بكتّاب آخرين كان السيد هاليداي مهتماً بهم. ولم أكن قد قرأت لأي منهم.

التقطت رسالة ريك ثم رفعتها بين أصابعي، تأملتها حيناً من الزمن ثم أعدتها مرة ثانية. رجال بلا حب. ثمة شيء من الحقيقة في ذلك، الأم، الأب الذي لم أعرفه قط، اليزابيث، اميلي، ومن المتفق عليه أن البطل في كتاب «كلنا نحب الغنم»، ذاك الذي زعم أنه لم يكن يملك القدرة على أن يحب، لم يكن سوى شخصية رسمتها بصورة تخدم الحبكة، لكن هل كان، بعد كل شيء، ينطق باسمي؟ أنا كنت أعاني من الوحدة أحياناً. لكنها وحدة إنسان يريد الناس من حوله، يرغب بالضجة، بأشكال الناس، بقدر معين من الحيوية والحياة. كنت أرغب، وعلى نحو متناقض، في أن أستخدم الجسد الأنثوي. لكن حتى اعترافي بأنوثة ماري لو الطاغية لم يكن، كما قلت لنفسي، فجاً بحال من الأحوال - بل كان أبوياً إلى حد ما، منبثقاً من حب الحماية، مشفقاً، حزيناً.

هبت ماري لو على قدميها.

«حسن».

«هل ينبغي أن تذهبي؟».

كان باستطاعتي أن أقومِ بعمل يوضح موقفي ولا يسبب أي أذى كأخذي ليدها مثلاً أو تقبيلها، كان باستطاعتي أن أستخدم بلاغتي. رجال بلا حب! كل هذا الخطر في أقل من أربع وعشرين ساعة.

لكنها كانت قد أجابتني على سؤالي بكلمة نعم، ينبغي أن تذهب وكانت تشكرني على القهوة، وكان كلانا قد نسي أنها هي التي جاءت بها. بعد أن أطبقت الباب خلفها وقفت في الردهة الصغيرة أحملق في حقائبي الفارغة التي كانت قد وضعت على منصبها، لم يكن ثمة جدوى، علي أن أرحل لتوي، الآن، علي أن أبتعد ليس عنه وحسب بل عنها أيضاً. أن توقعني في شرك، طفلة طولها بضع أقدام وخمس بوصات، أن يوقعني في الشرك جسم فتي يدعم عقلاً لا يساوي فتيلاً! لو أن ذلك العقل هو الذي يدعم الجسد، لكان الجسد ـ مخيفاً.

لا، أنا غير عادل، هي لا تحب الكذب، وقد حاولت ألا تكذب بل حاولت أن توفق بين ما تعرفه عما يريده ريك وما تعرف أنه الصواب ـ إنها فتاة أخلاقية، ثم من أنا لكي أنقدها؟ هي لم تكن معجبة بي، فمن أنا لأنقد ذلك؟ هي لم تقرأ الأعمال الكبيرة، أعمال ويلفريد باركلي. حسن، هناك آخرون بالنتيجة. أوه، هي ما تزال في نشوة الزواج، هي ما تزال مفعمة بالغبطة السرية بما عرفته ولم يكن أحد سواها يعرفه، غبطة الأنثى بالعطاء، بمعرفتها أنها ملكية خاصة، ملكية منقولة،

بمعرفتها أنها يجب أن تحفظ ذلك سراً عن زوجها في اللحظة ذاتها التي تغتبط بها، تاركة إياه يعتقد أنها تتلاعب بما تعلم أنه هو لب الحياة البشرية كلها. بلادة الذهن تلك، تباطؤ رد الفعل، ذاك الذي فسرته على أنه مقياس لذكائها ربما لا يتعدى شكلاً من أشكال اللامبالاة حيال رجل أكبر منها سناً بثلاث مرات، إنما يتوجب عليها، كرمى لزوجها، أن تبقى مهذبة مؤدبة معه مهما كان الثمن.

كان الوقت قد حان لأخذ غفوة قبل تناول الغداء. خلعت ثيابي واستلقيت. كان الرجال المسنون يصرون بأصواتهم الحادة كالجنادب، مستندين إلى جدار المدينة وهم يراقبون الفتاة تعبر بهم، لا عجب أن فتاة كهذه هي لب تلك المتاعب والأحزان. لا عجب أن يرغب الشبان في أن يغامروا بكل شيء من أجلها. مع ذلك، دعها تعد إلى موطنها قبل أن تسبب الموت للمزيد من الرجال... رجال مسنون! مهرجون عجائز! أولاد زنى هرمون!



الفصل السابع

حلمت كثيراً، وهو أمر يفترض أنه صحي لكنني تذكرت أن أحلامي، سواء كانت صحية أم غير صحية، لم تكن مألوفة بالنسبة إلي. كانت اليزابيث تقول، عادة، إنه ليس لدي عقل باطن بل كل شيء لدي يمكن الوصول إليه. ذلك يعني، حسب مفهومها، إنني مثل كشك للبيع ليس فيه سوى حلى صغيرة تافهة. لماذا التقينا يا ترى؟ طبيب هندوسي من معارفي قال ذات مرة إن علينا أن نستمر في الالتقاء إلى أن نتعلم... لكنه لم يقل قط ما الذي ينبغي أن نتعلمه.

كانت أحلامي تدور حول الأنوثة بلا زيادة أو نقصان. كذلك حلمت مرة بأنني خرجت من الفراش ثم عبرت النافذة الفرنسية إلى الشرفة، لأراقب كتلة جليدية كبيرة تنزلق في الجانب الآخر من الوادي، وبتأثير ذكرى مشوشة نوعاً ما لما كانت اليزابيث قد قالته، رأيت أن وعيي هو الذي كان معلقاً هناك. فأدركت كم هو أمر مرهق ذلك التأرجح في الوعي، هذا اللمعان الذهني الذي أبني عليه قصصي المسلية رغم أنها لا تلقى الكثير من الاستحسان، لكن بعد ذلك حلمت أنني في حالة من الضنك لأن الشرفة كانت تلف وتدور باتجاه الخارج وأنها سوف تحشرني في زاوية معينة، لذا، وسواء كان ذلك عن وعي أم غير وعي، فإن ذهني الحالم وثب ثم علمت أنني فراشةمن سلسلة فراشات تلك التي ثبتها السيد هاليداي

بالدبابيس في لوحة معروضاته، رغم أن الدبوس لم يؤذني ولم يكن باستطاعتي أن أقرأ الاسم اللاتيني المكتوب تحتي. وهكذا استيقظت يملؤني إحساس بأنني قدمت نثراً بالغ السوء وأن زونكرن العجوز سيبدو كمن تلقى إهانة كما أحسست بما يدعوه رجال النفس «وكذلك رجال اللاهوت» بالأثر الكبير الذي تخلفه الأحلام وراءها، أي بعبارة أخرى، استيقظت لأرى نفسي مبللاً بالعرق وكنت سعيداً جداً لكوني في الستين من عمري، وكوني في الوايسولد، أسعد الأيام، ها...الخ. وحش مقدس، كما كانت ليز تدعوني.

عملت حماماً بارداً فغدا الوقت متأخراً كثيراً على الشاي وليس مبكراً كثيراً على ارتياد المشرب. ارتديت ملابسي على عجل ومضيت إلى هناك. كان باستطاعتي أن أرى عبر النافذة رتلاً من المتنزهين النمساويين، الألمان، السويسريين وقد أخذوا الطريق الآخر أي طريق العودة إلى سكة التلفريك، وكلهم أقصر وأعرض من أن يكونوا طوالاً، في قبعاتهم الريش وعلى بنطلوناتهم الجلدية بقع العرق، والكل يعطي انطباعاً بأنهم مجموعة من الأشخاص الذاهبين لكي يعادوا إلى العلبة التي أُخرجوا منها من قبل. كنت قد اتخذت موضعاً لي في المشرب بينما كان المدير يعد لي كوكتيلي الخاص حين جاء البروفسور تكر مندفعاً عبر الباب.

«مرحباً، ويلف، أنت يا عصا ـ قديمة ـ في ـ وحل» فقلت بشيء من الامتعاض:

«مرحباً بك، أيها الأستاذ المساعد».

«أنا لم أر شيئاً كهذا، حتى في البلاد التي جئت منها».

«آسف، لكنني لا أنوي أن أتسلق».

«ليس عليك أن تتسلق، فهناك درابزون يمتد أميالاً، كيف الحال مع ماري لو؟».

«لقد ذكرت هاليداي».

فتوقف في الحال لكنه بعد لأي قرر أن يضحك. كان بإمكانك أن ترى عملية اتخاذ القرار. فقد كان أشبه بواحدة من تلك القطع المعروفة في تاريخ الهندسة الميكانيكية، مضخة فكتورية. رُكِّبت بكثير من الجهد والبراعة والتفاني في العمل ثم طليت كلها بالأخضر، فولاذ مزيت، بخار ـ تدور ببطء مثل كوكب.

«شخصية حقيقية، السيد هاليداي؟».

«غير حقيقية».

«كنت سأحكي لك عنه».

«بالطبع، كما تقول عادة».

«هل ستأكل معنا؟».

كان حسي البديهي هو أنني لست ملزماً بأي واجب تجاهه.

«بل كلاكما يجب أن يتعشى معي، أنا أصر، وإنه لمن دواعي سروري».

«هل تعني ذلك؟».

«ولِمَ لا؟».

فانطلق ريك مفكراً ـ ربما هو يفكر قليلاً، لكنه انطلق مسرعاً فأعدت النظر بالصورة المرتسمة لوجهه في ذاكرتي. كانت شمس الجبل قد حولت أنفه، وجنتيه، جبهته إلى تفاح، كرز، بندورة. حركت رأسي بهذا الشكل وذاك إلى أن تمكنت من لمح وجهي، بين الزجاجات المشوهة الشكل، في المرآة الواقعة في مؤخرة المشرب والتي كان لا مناص من النظر إليها، فلم أستطع أن أسوغ لنفسي ذلك الوصف الذي يطلقونه على «الرجل الإنكليزي ذي الوجه الأحمر» إذ بدوت أكثر شبهاً بنوع من الجلد ألقي فترة طويلة من الزمن في علية المنزل إلى أن تشقق وعلاه الغبار.

عينان باهتتان ردتا لي النظرة من المرآة فيما بدت هنا وهناك من أنفي عروق أشبه بديدان حمراء صغيرة. لا أحد كان يعرف ذلك الوجه، فكرت في نفسي، فالكاتب ليس ممثلاً أو موسيقياً، ليس وجهه هو رأسماله، بل ربما يكون العكس وربما لا. إنه يمشي في الطرق فلا يعرفه أحد. وإذ أراد شهرة حقيقية، أي أن يعرفه الناس في الشوارع، فعليه أن يلبس قبعة كتب على واجهتها «مؤلف الميناء البارد» مثلاً لكنني كنت سعيداً في أنني لا أريد شهرة. وبذلك وصمت اليزابيث بالكذب.

كنت قد وصلت إلى المطعم الصغير حين وصل ريك وماري لو إليه. وكنا، أنا وهو، نلبس لباساً عادياً أما هي، وقد أزعجني بعض الشيء، فكانت قد بذلت جهداً حقيقياً في انتقاء ملابسها. كانت ترتدي تنورة مكشكشة فضفاضة لكن فوق التنورة كان القميص يشد على جسمها مبرزاً خطوطه ثم يتوقف عن الوجود في أدنى نقطة تسمح الأخلاق السويسرية بها. بالنسبة إلى السياح، كانت تلك النقطة منخفضة جداً، فخطر في بالي أنها إن كانت تحاول «إغواء الرجل المسن» فإنه لم يكن باستطاعتها أن تختار ثوباً أكثر ملاءمة. مع ذلك أجلستها، مدخلاً في كل براعة الكرسي تحت تنورتها، حيلتي الاستقبالية ـ وكان المدير يقدم لي كرسي حين ملأ صوت كالانفجار المكان كله.

«اللعنة، يا رجل، من قال لك أن تلتقط صورة؟».

«أوه، يا ويلف، هذه للسجل».

«لن يكون هناك أي سجلٍ».

«كان ينبغي أن تطلب إذناً يا حبيبي».

«لم أعتقد أن ويلف يمانع، يا حبيبتي».

«ريك».

«نعم، يا ويلف».

«لا تفعل ذلك مرة ثانية يا عزيزي، أقيم دعوى».

كان المدير قد اختفى ـ بكياسة رجل فندقي عتيق. قلبنا النظر في لوائح طعامنا ثم أمضيت الوقت مثيراً في نفوسهم الضجر وأنا أصف وجبات الطعام التي كنت قد تناولتها في هذا المكان أو ذاك. كان الهواء الطلق قد جعل ريك منفعلاً مهذاراً، ثم جاء المشروب فزاد الطين بلة. أما ماري لو فكانت أكثر ميلاً للصمت كما بدا عليها الضيق، حسب اعتقادي، وكأنما كانت تتوقع أن يرتكب ريك الحماقات ويصبح موضع سخريتي. بعدئذ، وفي الوقت الذي حاولت وأخفقت في إثارة ابتسامة على ذلك المحيا الفتي الرائع، غيرت رأيها، قائلة إنها تود أن تأخذ كأساً كبيراً من الفودكا، الأمر الذي هلل له ريك وصفق وكأنها فازت بجائزة من الجوائز. بعدئذ، وكما لو أنني أنا الشخص الوحيد الذي كان سردي لقصص الوجبات يسبب له السأم والضيق، وجدتهما كليهما وقد أفعما حيوية ونشاطاً فيما ظللت. أنا مكتئباً خاملاً أحسدهما بمزاجية بغيضة على شبابهما وأعجب لماذا حشرت نفسي بينهما. تحدث ريك عن علم الفلك ـ إذ يبدو أنه كان هناك مرصد فلكي في مكان ما من الجوار ـ ثم ندب حظه لكونهما لن يريا إلا القليل من سماء سويسرا من نافذتهما، أما ماري لو فكانت تبدو شاردة وهكذا التفت ريك إليها بعد أن كان يحدثني.

«هل كان هناك شمس يا حبيبتي؟».

«شمس، يا حبيبي؟».

«في غرفتنا، هذا العصر يا حبيبتي؟».

«لا، يا حبيبي، أظن لا» فقلت للتو:

«إن كنت تريد شمساً أو نجوماً، فهناك شرفتي موجودة دائماً لنخرج وننظر كيف تبدو السماء في الخارج، بل يمكننا حتى ـ» وفي الحال هبَّ ريك على قدميه، فيما أمسكت ماري لو بحقيبتها اليدوية واندفعت مسرعة.

«هيه... ماذا تسميها يا ريك؟ غرفة المساحيق؟ لقد صنعت لنفسي مجموعة في الولايات ملوكاً وملكات، أمراء وأميرات، فتياناً وفتيات، زعماء من الجنود الحمر وزعيمات. تلك المجموعة مهمة، أليس كذلك؟ أعني على صعيد علم الاجتماع ففيها صور لزعماء شجعان وزعيمات شجاعات، لكن بالنتيجة كان ذلك كله قبل سنين طويلة، ربما الآن ـ لكن العادة تنتشر، فقد رأيتها حتى في إنكلترا... الإمبريالية الثقافية».

«أي تطور!! لنأخذ كأساً أخرى قبل ـ إنها آخر الزجاجة».

فضحك ريك ضحكة نصف مكتومة. أما أنا فلم أقل شيئاً وهكذا انتظرنا ونحن واقفان فيما كان ينقر بأصابعه على الطاولة، قلقاً.

«أنت تعلم يا ريك، زجاجتان بين ثلاثة علامة الإدمان الأولي على الكحول، لكن ماري لو لم تشرب سوى تلك الفودكا ـ ترى هل تعلم شيئاً عن علم الفلك؟».

وساد الصمت برهة من الزمن، ثم قطعه ريك:

«آسف يا ويلف، أنا لم ـ».

«ماري لو ـ علم الفلك».

«هي تهتم به».

«أما أنا فلا، كما تعلم. بل نعم. اللعنة على النبيذ. يا نادل؟» ولم يكن النادل سوى المدير نفسه بالطبع. طلبت أن يأتينا بزجاجة براندي لكنه لم يحضرها إلا بعد حين، أما ريك فكان مستمراً في نقر الطاولة بأصابعه.

«كرمى لله يا رجل، ألم تأخذ كفايتك من تمرينك؟».

«لا، لم آخذ كفايتي، يا ويلف».

صب ريك البراندي من الزجاجة بطريقة مزدراة، أما أنا فلعبت دور المتحضر المهذب، مسخناً الزجاجة بيدي، مستنشقاً ما يفترض أن رائحتها، رغم إنني، عملياً لم أكن أمتلك حاسة شم على الإطلاق ثم مر الزمن.

عادت ماري لو من غرفة المساحيق وهي أكثر شحوباً من ذي قبل، لعلها تقيأت مرة ثانية. أمسك ريك بكأس أخرى من البراندي في يده.

«ويلف يريدنا أن نرى نجومه يا حبيبتي».

فشهقت ماري لو شهقة خفيفة.

«سيكون ذلك مسلياً يا حبيبي».

«على الشرفة الحرية التامة يا حبيبتي، وليس هناك حسيب أو رقيب».

التقطت زجاجة البراندي من على الطاولة ممسكاً عنقها بيدي، فيما أسرع أمامنا ريك بخطا طويلة لكنه عند الباب توقف.

«أنا ذاهب إلى المرحاض. اسبقاني إلى الغرفة».

وسبقناه، والزجاجة في يدي. فتحت الباب لماري لو ثم قدتها عبر الردهة الصغيرة فغرفة الجلوس حيث كانت ورقة ريك ما تزال ملقاة على الطاولة. فتحت النوافذ الفرنسية فعبرتها ماري لو مباشرة، محدثة حفيفاً بتنورتها المكشكشة وهي تخرج إلى الشرفة.

«انتبهي».

وكانت قد وصلت إلى الدرابزون تماماً، حيث وضعت يديها، من جانبيها كليهما، عليه ثم انحنت متطلعة إلى الأسفل.

«كرمى لله يا عزيزتي، فأنا أخشى الارتفاعات، أخشى على الناس أكثر من نفسي. بل يمكنني أن أقف على شفا جرف ولا أتحمل رؤية أناس آخرين يفعلون ذلك ـ أعني يقفون ويتطلعون إلى الأسفل. لا، أنا لا أحب الارتفاعات على أية حال. أوه، يالي من عجوز سخيف؟».

رفعت ماري لو رأسها منتصبة القامة مطيعة كأي فتاة صغيرة، ثم رجعت خطوة أو خطوتين إلى الوراء. أما أنا فاتجهت إلى مفتاح الكهرباء.

«سأطفئ النور».

فبدت السماء الغاصة بالنجوم قريبة إلى حد يكفي لأن تلمسها بيدك.

«أي ماس، آ؟ الصديق الأفضل للمرأة».

بعدئذ وقفت تحاذي كتفي كتفها وأنا أتساءل لماذا استطعت، أنا الذي لم يستطع شم رائحة البراندي، أن أشم رائحة العطر في شعرها.

ووجدتني أقترب أكثر فأكثر.

«سيد باركلي».

«هكذا فجأة، نعود رسميين».

«ريك يائس، إنه يائس فعلاً».

«لماذا نتكلم عن ريك؟».

فقد كان ذلك خطأ سخيفاً، جديراً بـ«داي كايتاني» في «الطيور الجوارح» والحقيقة أنهم استخدموه في الفيلم ـ على شكل لسان في الوجنة. طبعاً، رفعت ذراعي إلى الأعلى، بموافقتها على ما يبدو ثم ربَّتُّ كتفها الأبعد تربيته خفيفة، وتركتها تستقر هناك على البشرة العارية، فيما كان قلبي يثب من مكانه ثم يدق كأنه الطبل، فقد كان باستطاعتي أن أسمع نبضات دمي في أذني.

لم تقم ماري لو بأية حركة. لم تفعل شيئاً. وكان ذلك مثيراً للاستغراب، مستحيلاً. (ماري لو ليست جسدانية) ربما

هي على حافة الإدراك ما فوق الحسي، على حافة الخبرة الروحية. فهذه الأشياء لابد، بالنتيجة، من أن تأتي بشكل وحجم يوافقان المناخ، أليس كذلك؟ كان الشعور الذي راودني نوعاً من الخضوع، السكينة غير الطبيعية، الوطأة. فكتفها ـ أو ربما ينبغي أن أقول تلك الكتف بدت أقل حياة من المرمر. فالمرمر كان سيحس بشكل من الأشكال ـ كان سيحس ـ سيحس، أما تلك الكتف فلم تكن تمت للبشر أكثر مما تمت كتف دمية، كتف تمثال محشور في زاوية من زوايا واجهة مخزن، تمثال من البلاستيك، لا أكثر. كما بدت وكأنها تزداد كثافة لحظة بعد لحظة، تزداد سلبية.

وهكذا، من أخمص قدمي تماماً، وعبر الشراب وخيالات شيخوخة غامضة مشحونة بالطاقة الجنسية، أحسست بأحاسيس تنطلق من هناك ثم تتضخم وتتضخم إلى أن طغت على كل شيء ـ أحاسيس وغضب محض لا شائبة فيه. لكنني ولكي أعلم أنني مقبول أم لا ـ تحملت، ليس كما يحدث في حالة العهر المحض، من أجل المال، بل من أجل الورق.

كنا نقف جنباً إلى جنب نراقب النجوم، وليس لدينا ما نفعله، ليس لدينا حتى ما نقوله. كنا ساكنين هادئين إلى درجة يمكن معها لأي ناظر إلينا أن يحسب أننا قد أُصِبنا بصعقة النجوم.

أخيراً، أبعدت يدي الثقيلة عن كتفها الثقيلة، بعد أن ربتها تربيته خفيفة.

«النجوم الكثيرة تجعل عيني تزوغان».

ثم أسرعت إلى الباب، أشعلت النور، درت حول الردهة مشعلاً أنوار الغرف الثلاث جميعاً، بل مشعلاً حتى نور الشرفة. لابد أننا أنرنا الوادي كله.

«بإمكانك الآن أن تكفي عن التطلع، يا للعنة!! ستارة نهائية... حينذاك استدارت غير ناظرة إلي بل إلى الباب».

«أظن ذلك».

«سأقول لريك حين يرجع أنك ذهبت باكراً، صداع، دوار».

«ذهبت؟».

«حين يرجع من الـ».

فاحمرت احمراراً شديداً من صدرها حتى شعرها. في تلك اللحظة فقط، وأقسم على ذلك، أدركت نوعية مؤامرتها. فقد سمعتها تقول بصوت رق حتى لكأنه صوت طفلة صغيرة.

«لا ـ أنا ـ أشكرك على تحملي».

ثم جرت مسرعة باتجاه الباب، وعلى نحو متعثر كما لو أنها لا ترى أمامها مباشرة.

فجأة أحسست وكأنني أشفق. نعم، ربما أشفق لكن على إميلي، رغم إنني لم أفعل ذلك من قبل.

«ماري لو».

فتلكأت، ثم التفتت نصف التفاتة، وقد غدا وجهها أحمر تماماً. بعدئذ، وكأنما عادت مراهقة صغيرة منذ الأمس الأول ـ رفعت يدها حتى مستوى كتفها ثم لوحت بأصابعها لي.

«وداعاً الآن».

بعدئذ، وبلا أي مساعدة، عبرت الباب إلى غرفة الجلوس ثم الردهة، فالباب الخارجي و ـ لكن السجادة المفروشة على أرض الممر القصير كانت أسمك من أن تتيح لي أن أعرف إن كانت قد جرت جرياً أم مشت مشياً أم ترنحت ترنحاً عليها.

ما تراه كان يتوقع؟ ما هو، كما نقول في لهجتنا الدارجة، السيناريو المطروح؟ هل ظن أننا سنتغازل مغازلة الخبثاء ثم تروغ مني مراوغة الفتاة الصغيرة حول الطاولة قائلة، «لا، يا ويلف، لا، لا، ما لم توقع تلك الورقة؟» أم كان عليها أن تزحف عند قدمي كجارية السلطان ثم تتوسل وتتمرغ وقد زمت شفتيها بانتظار أن أقبلها؟ أم كان عليها أن تستسلم لي بطريقة الأمر الواقع وكأنها ضربة لازب ثم أوقع، ملزماً، وأقول: «هاكها، الورقة التي تريدين».

أشكرك لتحملي! يا للحمق المثير للشفقة! يالشدة خرق الفتاة! يالغباء الرجل السمج المهين. مع ذلك، لم يكن الأمر مستبعداً كثيراً، بعد كل شيء. لو كانت تلك البشرة دافئة. لو ردت الحركة بأقل علامة تدل على الاستجابة، كم كان سيختلف كل شيء!! لا أحد منا نحن الاثنين، الكاتب

والناقد، كان يعلم شيئاً عن طبيعة البشر، أو يعلم الكفاية. كنا نعلم الكثير عن الورق، وذلك كل شيء. أما الفتاة المسكينة فهي وحدها التي كانت إنسانة، ولم تكن تعلم كيف تفعل ذلك. أنا أيضاً ـ لم أكن أعلم كيف أفعله. هو الآخر لم يكن يعلم كيف يعرضه، قواد وزبون وعاهرة وكنا نحن الثلاثة بحاجة لمساعدة خبير محترف. وقفت في الغرفة المشعشعة، مديراً ظهري للمستطيل المعتم الذي تشكله النافذة بكل ما وراءها من نجوم خامدة. ثم حدقت إلى ورقة ريك الملقاة على الطاولة، فإلى البطاقة المعلقة على الباب الخارجي. تنبيه: إلى السادة الزبائن، ثم فكرت بريك وأنا أراه بخيالي مستلقياً بكل حكمة وحنكة في فراشه، وربما يشخر شخيراً خفيفاً بحيث يجعل من رجوع زوجته شيئاً لا يحتاج أي منهما لأن يلحظه أو يعلق عليه ـ لكنها ستهزه موقظة إياه من نومه وشخيره، لتؤكد له أنه لم يحدث شيء، لا شيء على الإطلاق سوى أن السيد باركلي وضع يده على كتفها اليسرى، نعم، على الكتف، وكانت تعلم أنه يشتهيها، لكنه مع ذلك لم يفعل شيئاً سوى أنه أبعد يده مرة ثانية دون أن يقول الكثير. لم يحدث شيء. لا شيء البتة، ربما كان عليه أن يمسك بها ثم يقول من فضلك، مارس معها الحب. لا، هي ملوثة، ملوثة كثيراً، وعليه ألا يطلب ذلك مرة ثانية أبداً ـ

أخيراً سينامان وقد علقت قطرات دموعها بشعر صدره المتشابك كالدغل. على الطاولة كانت الورقة ما تزال ساكنة أنا الموقع أدناه الأستاذ ريك ل. تكر. . .

كان باستطاعتي أن أجعله يعاني، كما كان باستطاعتي أن أوقعها ثم أسلمها له في اليوم التالي حين ننطلق في مسيرتنا.

«ريك، خذ. ماري لو نسيت هذه، وهي من حقها ورب السماء».

شيء لا يمكن الكلام عنه! صورتها، ألقها، رقتها الطفولية وهي تمسك بتلابيبي، تنشب مخالبها في قلبي، وليس في أي مكان آخر على ما يبدو. لكن كان هنالك شيء من الرعب. كنت أعلم أن الإصبع موجهة إلي، إنني وقعت في شرك من صنعها وأن علي أن أكافح كي أتخلص، كي أحرر نفسي. يوم واحد فقط، مدة يوم واحد، بصباحه، ظهره، مسائه، يأتي بتغير كهذا! لقد كان هناك، الشرك الذي حاولت أن أتجنبه ـ وسوف أتجنبه ـ الحزن المرير على حب لا ثمرة منه، لا هدف له، لا أمل منه، حب مضن عذابه، مثير للضحك. فبنطال المهرج كان مرة أخرى، قد سقط على الأرض.

لعنت نفسي بنفسي ثم اعترضت بأنه لم يضع كل شيء. كانت البراندي ما تزال على الطاولة، والبراندي عزاء الإنسان الراشد. بعدئذ شرعت، أنا رجل الورق، أفكر ـ يا لها من قصة!




Twitter: @alqareah

الفصل الثامن

استيقظت باكراً جداً وفي ذهني ذكرى واضحة عن الليلة السابقة ونوع من البعد الجاف عن الواقع الذي ينشأ عادة عن تناول الكثير من البراندي. بعد الحمام دخلت إلى غرفة الجلوس فلم يفاجئني أن زجاجة البراندي كانت نصف فارغة. ما فاجأني بالحقيقة هو أنني لم أكن أشعر، باستثناء الجفاف في حلقي بأي صداع كذاك الذي يتركه المشروب. بل بدلاً من ذلك كنت أشعر بظمأ أطفأته للتو بست كؤوس كبيرة متتالية من ماء الجبل. كما بدا لي أنه نوع من اللا أخلاق أن أشرب ذلك القدر الكبير من الشراب دون أن أعاني نتيجة لذلك. فالحقيقة التي لا مراء فيها أنني كنت في أحسن حال بل أحسن من أية حالة وجدت نفسي فيها طيلة حياتي. الغضب والحزن يقضيان على الكحول. تذكرت وتفحصت عبوديتي الجديدة فانتفضت ثائراً عليها. عدم التفكير بها، ذلك هو الحل دائماً. فمن الواضح أن ماري لو كانت قد التزمت به، بل رضيت بلا أدنى شك أن تصوغ حياتها بحيث تكمل معه الدائرة المسحورة. لقد اتضح ذلك من المؤامرة السخيفة المضحكة التي لم تؤت ثمارها الليلة السابقة. لا تفكر بها، أزل صورتها من خيالك، بحق الله لا تنس سنك. بتلك الطريقة يخمد الجنون. بدلاً من ذلك كله فكر به، بمحاولته أن يوقع في الشرك طائراً من طيور الأدب ـ حسن، سألقن البروفسور تكر درساً لن ينساه.

سأستعد له بكامل سلاحي، سأضعه في كتاب، قصة، مصوراً إياه تصويراً دقيقاً تخجل منه حتى ماري لو ويظل ذلك الرجل الثري الغريب الأطوار هاليداي يضحك منه طوال حياته.

بعدئذ، بالطبع، ظهرت نزعة الروائي نحو التمسك بالحقيقة. ليس من المستحسن أن تضع ريك تكر، تلك الشخصية الحقيقية الحسية في كتاب، فلعله يشترك مع معظم الجنس البشري في تلك الصفة ـ أي أنه غير معقول على الإطلاق. ثمة أمور يخترعها الروائي ويدعونها شخصيات لكنها ليست شخصيات، إنها بنى منحوتة من الخشب أو أية مادة أخرى ـ بلازما نفسانية مثلاً ـ على شكل أشخاص يشبه بعضها البعض الآخر مثل الدمى الروسية. الشيء الوحيد الذي كان باستطاعتي فعله هو أن أختار، ألطِّف، أعدِّل، أنتج شخصاً مقرفاً إلى حد يثير الضحك ويمكن تمييزه وتحمله لأنه «شخصية قصصية فقط».

بعد الكأس الثامنة من الماء خطر ببالي أنه ينبغي أن أفعل ما لم أفعله من قبل. لا اختراع بعد الآن بل اختيار ـ أي يجب أن أدرس شخصية حية دراسة واقعية فعلية. سيكون ريك فريستي. وبدلاً من أن أحاول تجنبه حين يتملكني الغضب أو السأم، يجب أن أعكس الوضع فطوال الوقت الذي يظن أنه يكتشف شيئاً عني يجب أن أعمل أنا لاكتشاف شيء عنه. وسأجد في ذلك كل ما للصيد من متعة وبهجة. يا!! يا!! هي!! هي!! وهكذا ظللت طيلة الفترة التي استغرقها مني الإفطار واللباس، مشغولاً بتجميع معلوماتي عنه. أخيراً أدركت

أن تلك المعلومات لا تصل إلى الدرجة التي تحتاجها الشرطة لإعطاء وصف له. إنه كبير، ضخم ـ لكن كم؟ لم يكن باستطاعتي أن أجيب، فصورة الشاب الطويل الضخم الذي كان يربض خلف صندوق قمامتنا كانت تملأ ذهني تماماً، وهو عريض ثخين، حاولت أن أتذكر شعره الأشبه بالحصيرة، الأشبه بالغابة فرأيته ينزل مغطياً جبهته. كما رأيت الصورة نفسها لشعر كثيف في خيشوميه، لغابات الشعر على ذراعيه، صدره، إبطيه، ولعل الشعر كان يمتد حتى ساقيه لينتهي حول كاحليه مثل ريش ذكر الإوز، أو، وذلك أكثر صحة، مثل شعر خيول الجر. كان شعره كثيفاً متلاصقاً على رأسه، وفي حاجبيه كان كثيفاً وطويلاً كرموش العين. هل كان الآينو[1] المشعرون قد عبروا مضائق برينغ المتجمدة إلى أمريكا، ثم حملت الهجرة فيما بعد هذا الشخص شبه ـ العجيب بالطريق المعاكس عبر الأطلسي؟ وهكذا بدأت التفحص، بدلاً من الهروب أو السخرية، فرأيت أن البروفسور تكر ليس بالشخص العادي الذي لا يثير الاهتمام. كم من الشعر يمكن للروائي أن يعطي لشخصيته؟ ليس كثيراً جداً ـ بل القليل فقط، تلك الغرة النازلة على الجبهة، تلك الامتدادة من الشعر الأسود على الرأس، أما الحاجبان والأهداب فستكون أكثر من كافية، ذلك أن الكاتب غالباً ما يتعامل مع الأجزاء التي تظهر من شخصيته، أما البقية فيلفها الصمت ـ أعني الثياب. لقد علمت أنه أشعث شعر

(1) الآينو: سكان اليابان الأصليون، الآن يقتصر وجودهم على جزر هوكايدو، كوريل، سخالين. ويشتهرون بكثافة شعورهم.

الساقين مثل أي مهر من أمهار شيتلاند، وكان ذلك بمحض المصادفة.

البشرة بحد ذاتها بيضاء على نحو غريب، لكن، حيث اللحية والشاربان فإن المكان مغطى بجذور شعر سوداء قطعتها شفرة حلاقة ضغطت، إن جاز القول، حتى نزلت إلى ما تحت مستوى الأرض لكنها مع ذلك، ما تزال هناك ظاهرة، تعطي، مع البشرة البيضاء الدهنية قليلاً، انطباعاً عن ـ ماذا؟ المضحك أن ذهني لم يستطع أن يجد شيئاً سوى اقتباس من مكان ما، اقتباس، ملاءمته لا تبدو واضحة كثيراً، إنه يقول ـ الصمت والليل العتيق.

اليدان مربعتان، سمينتان، بيضاوان، قفاهما مزروع ولا شك بالشعر التكري[1] النموذجي. وهما نظيفتان كثيراً. نظيفتان للغاية، والأظافر محدبة كثيراً بدلاً من أن ـ يا للجحيم، بدلاً من ماذا؟ بدلاً من أن تكون مدورة كالأطباق يمكن جمع ماء المطر فيها.

وهو، بالطبع، قوي ولا شك. إحدى تينك اليدين يمكنها أن تعصر ـ وإن اتخذت شكل قبضة يمكنها أن تضرب ـ أو تستخدم ببراعة فأساً من الفؤوس لكنها لم تفعل ذلك قط. فالآلة الكاتبة هي سلاحها.

وتلك الأماكن السرية الشعثاء ـ لا، تعلم أيها الرجل

(1) نسبة إلى تكر نفسه.

العجوز أن هناك أماكن لا يجوز التفكير بها، لا يجوز مسها. إنها كالمرض والألم. فانسَها، انسَها...

إذن، إلى الصيد؟

وماري لو؟

سأتجنبها قدر المستطاع، سأتحملها فقط إلى أن تتوفر لدي المعلومات اللازمة عن مطاردي. سأعاني قليلاً منها لكن بعدئذ ستولّي.

التقينا أنا وريك في البهو. كنت ألبس جزمة سميكة إلى حد ما وسترة فرائية ذات قلنسوة، أما ريك الذي بدا ضخماً تماماً فكان يلبس، إذا ما استثنينا الزلاجات، لباس الذاهب إلى لعب الهوكي في حقل جليد، كما ظهرت على صدره عبارة «أوْل أشكان» من جديد، أجل كان ضخماً تماماً.

«كم طولك يا ريك؟».

«متر ـ».

«لا، حسب المقاييس القديمة من فضلك».

«ست أقدام وثلاث بوصات يا سيدي».

«والوزن ـ ليس بالكيلوات بل بالأرطال؟».

«مائتان وخمسة وعشرون رطلاً[1]».

---

(1) رطل إنكليزي أي هو حوالي 440غ.

«هل يمكنك أن تقسم ذلك على أربعة عشر؟».

فعل ذلك فأطلقت صفرة.

«يبدو عليك ذلك، يا ريك، يبدو عليك كل رطل من تلك الكتلة الضخمة، لكن بحق الجحيم ما الذي جعلك تتجه ذلك الاتجاه الأكاديمي؟».

«هذه رغبتي، يا ويلف. ويلف، تلك الجزمة لا تصلح لأرض وعرة».

«ليس في نيتي أن أسير بها على أرض وعرة».

«ربما ليس الآن، لكن ـ».

«هل لاحظت؟».

«أجل ضباب».

«إنهم لا يعلنون عنه».

«كلا، يا سيدي، هم لا يفعلون ذلك. ويلف، أنا آسف كل الأسف لأنني لم أرَ النجوم معك الليلة الفائتة. ماري لو قالت لي إن المنظر كان ملهماً فعلاً».

«هل قالت ذلك؟ حسن يمكننا أن نراها الليلة، فنحن على الأرض، يا ريك».

«هل أنا متعجل عليك كثيراً يا ويلف؟».

«ليس بعد، لكنها فكرة لطيفة».

«ربما تساءلت بالأمس لماذا لم أنضم إليكما؟».

فأومأت برأسي، وأنا أفكر بدوري الجديد كصياد.

«أجل، لماذا؟».

«لنأخذ هذا الممر إلى اليسار. يا إلهي، الضباب يشتد، يا ويلف، لكن لا بأس».

«ثمة درابزون طوال الطريق، بل حتى لو أطبق الضباب حاجباً كل زاوية، فسيكون بإمكاننا أن نتلمس الطريق على طول الجرف ـ».

«يا للمسيح».

«ويلف، أنا لم أقل شيئاً ليلة أمس، لكن دوار الارتفاعات أصابني أنا الآخر».

«أنت مثلها يا ريك، أنت لست جسدانياً قط. أبداً لم ألتق بزوج روحاني حقيقي مثلكما، لكن هذا الجرف: أحذرك، فأنا لا أحب المرتفعات، بل أنا لا أحب حتى تلك الشرفة اللعينة».

«هيا يا ويلف أسرع فأنا لا أحب الطريقة التي تنشر بها هذه الحقول رائحتها».

«عفنة، دكتور جونسون».

«إنها الأسمدة».

«بل هو البراز ـ أيها الأحمق، فهو لا يختفي إلى الأبد

في المجارير. إنه البراز البشري الذي ينتشر هنا وهناك في الحقول لأنهم لا يهدرون شيئاً».

أحس ريك بجيشان التقيؤ فأسرع وملأ يده من المحارم يسد بها فمه وأنفه، ثم اندفع يخب إلى الأمام وسرعان ما اختفى في الضباب على بعد ياردات مني، حدقت النظر عبر الضباب فتمكنت من أن أرى في أحد الاتجاهات قدراً من الضباب أكثر من الاتجاه الآخر، ربما كانت الشمس ما تزال هناك تتحرك باتجاه الجوزاء. ربما سأكون فيما بعد قادراً على رؤية الجرف لكي أقرر إن كنت سأستمر أم لا. في أثناء ذلك رحت أتمشى بطيء الخطا بين الحقول ذات الرائحة الكريهة الغائبة عن النظر، وأنا أفكر: بعض الناس لا يمكنهم تحمل المرتفعات، بعضهم الآخر لا يستطيع تحمل رائحة البراز.. كل امرئ... الخ...

بعد عشر دقائق بدأنا نشم رائحة الصنوبر الصحية الرائعة وبدأ كل شيء حولنا يوحي بوجود غابات الصنوبر الضخمة عبر الضباب. كان ريك ينتظرني. في تلك النقطة كان الجو قد انجلى قليلاً فرأيت في اللحظة التي رأيته فيها، ذرى الأشجار إلى يساري وهي على مستوى عيني وإلى يميني جذور الصنوبر البارزة من حافة الجبل، كان ريك منحنياً بكثير من الإهمال على درابزون الجانب اليساري من الممر.

«أوه... ويلف، إنه صلب كالصخر».

مع ذلك انتصب بقامته ثم لاءم خطوته مع خطوتي. كان

ثمة خرير ماء يتدفق من مكان ما إلى الأمام وهو ينحدر من الجبل. وكان ذلك مريحاً لسبب لا يعلمه إلا الله. حدقت بناظري عبر الضباب فاستطعت أن أتبين بين الحين والحين أثراً دقيقاً فضياً يمتد عبر البياض الشديد والفراغ إلى جوزاء السماء. تطلعت إلى الأسفل ثم تطلعت حولي لأجد أن ذرى الأشجار قد غابت عن النظر، موحية بأن فجوة متزايدة تقع تحتنا إلى اليسار.

«هل أنت متأكد من أن هذا الطريق صحيح يا ريك؟ هل مشيته بنفسك؟ درابزون قوي على طول الطريق؟ لا مفاجآت كريهة؟».

«كلا يا سيدي».

تابعنا السير بعد ذاك، فيما كان خرير الماء يقترب وسرعان ما بات باستطاعتنا أن نرى الماء نفسه فقد كان هناك جدول جبلي صغير يسقط من قلب الضباب إلى اليمين ثم يتناثر على طول الممر ويختفي إلى الأسفل، وفي قلب الضباب من جديد.

توقف ريك أمام الجدول ثم رفع إصبعه آمراً إياي بالسكوت فتوقفت وسكت. عند ذاك لاحظت أن في منخره الأيمن شعراً أسود أكثر بكثير من الأيسر. لقد كان أيمن ـ المنخر.

لم يكن هناك ما تسمعه سوى صوت الجدول وأجراس أبقار ضعيفة في مكان بعيد، جلست بجانب الجدول على نتوء

صخري مريح، ثم تطلعت إليه نحو الأعلى، رافعاً حاجبي. جواباً على ذلك، أشار بإصبعه إلى الجدول فأصخت السمع مرة ثانية ثم انحنيت متظاهراً بأنني أشم رائحته، بعدئذ وضعت إصبعي فيه لكن سرعان ما سحبتها خوفاً من لدغة الصقيع.

«ألا تستطيع أن تسمع يا ويلف؟».

«بالطبع أستطيع».

«أعني ـ أليس هناك شيء غريب فعلاً في ذلك الصوت؟».

«لا».

«اصغ ثانية».

وكانت ملاحظته صحيحة. فالجدول، تلك الخصلة الفريدة من ماء شلال يقطعه الطريق مباشرة، كان له صوتان لا صوت واحد، فهناك الخرير الفرح، الأشبه بعمل من أعمال العبث، وكأن ذلك الشيء، الشكل، يستمتع بانتقاله الوثاب وهو يسقط عبر الفضاء. بعدئذ وتحت تلك الطبقة من الخرير كانت ثمة همهمة تأملية عميقة وكأن ذلك الشيء كان، رغم عبثه الفرح وثرثرته السطحية، يردد سراً من أسرار الجبل نفسه.

«ليس صوتاً واحداً».

«أجل، ثمة صوتان. صوت عميق ـ».

فنظرت إليه باندهاش تحول إلى درجة من الاحترام اللا إرادي، الليلة الماضية كان هناك شيء ـ والآن شيء آخر.

«أنا لم أصغ لصوت ماء من قبل ـ لم أصغ بمعنى الإصغاء».

«لا يمكنني أن أصدق ذلك».

كذلك، لاحظ عقلي ثم وضع تلك الملاحظة في درج من الأدراج علّه يستفيد منها في وقت لاحق، وهي أنه لا بد من كتابة قطعة نارية طويلة عن الإصغاء لصوت الطبيعة ـ الإصغاء بلا تعليق أو موقف مسبق.

«كيف تأتّى لك ذلك، يا ريك؟ أعني لماذا أنت بالذات؟».

«أنا لا أقوم بالربط يا ويلف».

«تقوم بالإصغاء إلى الجداول إذن؟».

«أنا أعلم كيف أبدو في نظرك، يا سيدي، مجرد أكاديمي مخلص لكن محدود».

«أوه، يا إلهي، يا للعنة».

«أنا أعني ذلك يا ويلف».

«مستقيم، مخلص، رجل غير قادر على ـ».

لكن ريك كان قد ابتعد عني وكأنني لامست بكلامي شيئاً في داخله لم أكن أعرفه.

«أنا أصغي، دائماً أصغي، الطيور، الريح، الماء ـ أصوات الماء المختلفة، وأفكر أحياناً أن بإمكانك أن تسمع في البحر صوت الملح. الاختلاف، أعني».

«رجل طبيعة عظيم».

«بالتأكيد، فأحياناً تستلقي كما تعلم وأنت مستيقظ ثم تصغي للسكون رغم أن ذلك نادر هذه الأيام ـ لكن باستطاعتك أحياناً أن تصغي للسكون حيث لا نأمة ولا حركة، ثم تمضي... تمضي... باحثاً ـ».

«في غموض الطبيعة».

«لا، يا سيدي، بل فقط في ماهية العيش، بعدئذ يأتيك صوت موسيقي. أوه. يا إلهي لكنني لا أملك الموهبة».

«كان عليك أن تقيم في غياض الأكاديمية».

«نعم، لا ـ أعني لا فعلاً».

«لنتابع السير».

فاتجه ريك صوبي، وقد ارتفعت ذقنه المشقوقة كما لو أن خرير الماء كان قد شفاه من خجله وانعدام ثقته بنفسه. لقد مررت بواحدة من تلك اللحظات، ليس نتيجة قدر كبير من التفكير بقدر ما هو نتيجة انعكاس فكري سريع. في جزء صغير من الثانية، كنت أطرح الاحتمالات، الخيارات المتاحة، أفكر فيها، أصرفها، وقد صرفتها. هل ذقنه المشقوقة علامة الضعف؟ هل هي علامة الطبيعة المنقسمة؟ سخف. هل هي تأخر في تصلب العظام، إشارة تدل على الحالة الجنينية كما كان أخصائيو البيولوجيا يقولون عادة وربما ما يزالون يقولون؟

مد ريك يده فبدا من الطبيعي أن أمسك بها، متيحاً له بذلك أن يسحبني إلى ما فوق الصخرة الواطئة. فالسويسريون كانوا قد وضعوا جذوعاً جوفاء في الطريق بحيث يصعد الممر بواسطتها صعوداً خفيفاً بينما يجري الماء عبرها. ولكي يعبرها المرء لم يكن هناك أكثر من خطوة بل لقد عبرنا في أحد الأمكنة حيث بدا وكأنه لا توجد نقطة صلبة سوى الدرابزون الذي لا تراه إلا بصعوبة إلى الجانب اليساري من الطريق وجذور الأشجار على الطريق الآخر.

وقفت ساكناً بلا حراك.

«إن كانت نزهتنا لرؤية المناظر، فنزهتنا تافهة كثيراً».

«سينجلي الجو».

«لولا السكون، لكان من الأفضل أن تمشي في حديقة ريجنت[1]».

(أجيء هنا على أمل أن أرى مناظر طبيعية لكن كل ما أراه إنما هو الفراغ والخواء».

«المدير قال إن الجو غير عادي بالنسبة إلى وقت كهذا من السنة».

«كل مائتي سنة يحدث مرة».

«أنت تعرِّض بي».

---

(1) حديقة ريجنت: حديقة تقع في قلب لندن.

«لقد ذهبت إلى عشرات الأماكن التي أقسموا لي فيها أنه أسوأ طقس مر عليهم منذ مائتي سنة. دائماً، مائتي سنة، القاهرة، تبليس ـ».

«الآن، الآن».

«ذكرني أن أحكي لك ذات يوم عن أعلى مد حدث منذ مائتي سنة».

«احك لي عن أعلى مد حدث منذ مائتي سنة».

«ذات مرة، عملت بحاراً لدى رجل يملك يختاً. وكان أعلى مد مر منذ مائتي سنة، فسقت به اليخت إلى أن جنح على اليابسة».

فضحك ريك ضحكة صادقة سعيدة صافية.

«لو كان هو ربان السفينة، لكانت تلك مشكلته».

«لا، لا أنا ادعيت تلك الصفة. اللعنة على هذا الضباب».

«سنبدأ التسلق على الفور. وحين نصعد إلى الأعلى سنتخلص منه على ما أظن».

«اقتباس. هبيني الشمس، أماه. انتهى الاقتباس».

«الأطباء يقولون إن الإنسان قد حصل على الحقائق الخطأ».

«كل ما حصل عليه خطأ. مهزلة مسرحية قديمة».

فأطلق ريك قهقهة مجلجلة، إذ كان يعيش لحظة من أروع لحظات العمر. وكان باستطاعتي أن أرى صفيحة ذهنه، الأمر نفسه ـ

«أعرف، أعرف، جي[1]».

«مثل فاغنر».

فتطاولت القهقهة بعض الشيء، ثم حدث التفاف مفاجئ وخارق للعادة للبخار أمام وجهينا، وصوت همهمة في الهواء، وطرقة خشب إلى اليسار ثم صوت ارتطام ضخم في مكان ما من الضباب في الأسفل.

«يا لله!».

«إنه الجبل، يا ريك»، قلت، إذ لم أكن قد خفت بعد، وكان بإمكاني أن ألعب دور الإنكليزي الذي لا يدخل الاضطراب قلبه، أو إن أحببت، دور الإنكليزي الجامد الذي لا حس لديه. «إنه الجبل اللعين، أيها الصديق العجوز. هناك من يلقي صخوراً علينا. لابد أن يجاملنا. هل تحب أن تكون موضع مجاملة؟».

«أتوق إلى ذلك كثيراً».

ثم استدار بغية الذهاب، لكنني أمسكت بكمه.

«هذه موهبة لا يعرفها إلا الكاتب. فقط فكر يا ريك.

(1) جي: لفظة تقال للدابة لحثها على الإسراع.

الآن يمكننا أن نصف كيف تبدو الأمور لو أصابتنا قذيفة مـدفع. ما الذي كان تنيسون سيقدمه من وصف؟».

«الأفضل أن نعود، يا ويلف».

«ولماذا العجلة؟».

«لا أحد يعلم ما يمكـن أن يحـدث فـوق، في الأعـالي، يا ويلف، أنا أعرف الجبال، لقد ولدت ـ لا، يمكـن أن يكـون الجبل منزلقاً حقيقياً، خطراً حقيقياً».

«حالياً».

«آ».

«في هذه اللحظة من الزمان؟».

«آ».

«أبداً لا تقع الصاعقة في المكان نفسه مـرتين. وعلينـا أن نرى أين وقعت».

كان الضباب الكثيف يحول، وعلى نحو مضمون تمامـاً، بيني وبين الإحساس بالخوف من السقوط وكنت مـا أزال ذلـك الإنكليزي الذي لا يدخل الاضطراب قلبه كما كنـت أرغـب في أن أستعرض عضلاتي أمام ذلك الـشاب الـذي كـشف، وعلـى نحو مفاجئ، عن اهتمام شديد بسلامته، وانطلاقاً من ذلك كله خطوت باتجاه الدرابزون.

«إيه.. عد... يا ويلف».

«أنا لا أستطيع أن أرى شيئاً».

ثم وضعت يدي، وأنا ما زلت محتفظاً برباطة جأشي، على الدرابزون. بعدئذ ملت نحو الأسفل فمال الدرابزون معي.

الثواني القليلة التالية يمكن وصفها ببضع كلمات أو بضع مئات من الكلمات وإن كانت غريزتي ـ المهذارة دائماً ـ تميل للمئات، إذ ليست المسألة في أنني أكسب رزقي من بيع الكلمات وحسب بل إن تلك الثواني كانت أكثر أهمية من أي شيء آخر يتعلق بي. أولى تلك الثواني، ولا بد لي من الاعتراف بذلك، كانت خواء، لا شيء. الثانية كانت تقلصاً وانكماشاً، صدمة أكثر فورية من أن تدعى تفكيراً بشيء أو حتى خوفاً. هي، إن أحببت، إدراك الجسد الحيواني وقد تنبه للموت الوشيك، بأنه يهوي نحوه. الثالثة كانت بشكل من الأشكال ذات مسحة بشرية أكثر ـ فالدرابزون في تلك اللحظة بات يتحرك نحو الأسفل على نحو أسرع وأسهل ـ فتحولت إلى رعب أعمى، إدراك للرعب الأعمى، رعب أعمى واع لذاته، ثم تحولت، وأنا أنقذف عبر الرعب، إلى كتلة من عدم التصديق. بعد ذلك تحفز الحيوان في داخلي مسيطراً على نفسه، على كل عصب فيه، كل عضلة، كل دقة قلب، بأقصى سرعة وقوة، وقد صمم على رفض الموت. كانت حصافتي قد ولت. أما يدي، وهي تمسك بالدرابزون وتسقط معه، فقد امتلأت حيوية وقوة إلى درجة ربما كان باستطاعتها معها أن تضغط القضيب الذي أمسكت به إلى حد تشويهه، لكن لم

يكن قد بقي لدي نقطة ذكاء تجعلني أفلت ذلك الشيء من يدي. أما يدي الأخرى فكانت تضرب على غير هدى بحثاً عن شيء صلب ثابت تمسك به. أخيراً وجدته فأمسكت بما بدا لي أنه نبتة فانقلب جسمي رأساً على عقب ثم حططت على أرض الجرف إلى الجانب الآخر من الدرابزون مع ارتطام شديد قطع أنفاسي. كان الدرابزون قد أفلت من يدي بعد أن فتحت الصدمة أصابعي، ثم أمسكت تلك الأصابع بشيء ما دون أن تطلب مني الأذن وكنت قد انقلبت على ظهري، عقباي في الأرض ويداي متشبثتان وكنت أنزلق منحدراً، بوصة بعد بوصة.

فجأة أمسكت قبضة ما بمؤخرة رقبتي فتوقفت عن الانزلاق ثم شرعت اتفحص اللطخ والبقع الحمراء التي راحت تلف وتدور أمام عيني وكانت كل ما أستطيع رؤيته. كانت هناك، وهو أمر أحسست به بكل عصب وعرق مني، خمس نقاط ارتكاز تحول بيني وبين التحطم. أربع من هذه النقاط لم تكن فعالة إلا بحدها الأدنى: العقبان المنغرسان في الأرض الطرية، اليد اليسرى الممسكة بساق نبتة غضة واليد اليمنى الغائصة في الوحل، ثم القبضة الشديدة ذات الإمساكة الخانقة بمؤخرة قبتي السويدية. نقاط الارتكاز الأربع الأخرى ربما كانت تقدم بعض المساعدة، لكن من المؤكد تماماً أن مرتكزي الرئيسي إنما هو قبضة اليد تلك التي كانت تشد على مؤخرة عنقي، وتثبتني في ذلك المنزلق العويص. كان العالم في تلك

اللحظة قد غدا ساكناً تماماً، لا نأمة ولا صوتاً سوى دقات قلبي ودوي أذني وشهقات صدري. كان الرعب قد غدا عنصراً أساسياً من عناصر الوجود، شأنه شأن المكان. لم يعد هناك أثر لذلك العبث العقلي حول قيمة الحياة أو عدم قيمتها، فقد كان الحيوان في داخلي يعلم بما لا يقبل الشك ما هو المهم في تلك اللحظة أهمية تفوق كل شيء آخر، وكان كل ما يعيه رغبة طاغية ملأت عليه نفسه هي أن يتوقف كالقصف، الرمي، أزيز القنابل ـ ذلك الرعب، وكان وراء القبضة شخص آخر يشهق أيضاً.

بدأت أنحدر، فتسارعت الشهقات خلفي، تجرأت أن أحرك عقباً من عقبي الاثنين وأغرسه في التربة على ارتفاع بوصة لكن التربة انزلقت فأحسست كم كان في تلك المحاولة من إضعاف للقبضة التي حالت بيني وبين السقوط في قلب الضباب.

«تمسك» غمغم ريك فتوقفت عن الانحدار.

«هناك جذر فوق اليد اليسرى».

فتجرأت أن أدع يدي تفلت النبتة الضعيفة شيئاً فشيئاً ثم سمحت لأصابعي أن تزحف. كان الجذر هناك سيمكاً لزجاً إنما ذا عقد تتيح لي إمكانية الإمساك به.

«اسحب» وأحسست أن في يدي اليسرى قوة لم أكن أحلم بها، قوة لا تحدها سوى قوة الجذر. واستطعت أن أرفع نفسي مرتكزاً على قدمي.

«انقلب ـ ببطء، انقلب».

وانقلبت، فانقلبت معي القبضة أيضاً شادة القبة حول عنقي لكن دون أن تسبب لي الاختناق. حينذاك بات ثمة ما أراه. ربما كان هناك ثماني عشرة بوصة من التراب، العشب القاسي، الحجارة الصغيرة، الجذور الصغيرة. كان المنحدر شبه أفقي وكان ريك منبطحاً على الممر، يده اليسرى ممسكة كالكلاب بالعمود القائم الذي كان يرتكز عليه طرف الدرابزون الساقط ويده اليمنى تمسك بقبتي. كان العمود القائم يميل شيئاً فشيئاً نحو الأسفل، ببطء شديد يميل بينما كانت الحجارة والتربة تتساقط من قاعدته.

«يا للمسيح!» غمغم ريك مرة ثانية.

«لن أدعك تسقط».

بوصة بوصة. في تلك اللحظة راودني أمل بالنجاة إلى درجة غدا فيها مزيج الأمل والخوف أشد عذاباً من ذلك الرعب الفوري الذي أحسست به، فقد كان ريك يتحرك مع العمود وكان العمود الشيء الوحيد الذي يثبته. ثقلهما مقابل ثقلي. كان واحدنا ينظر إلى الآخر محدقاً إلى وجهه... العين بالعين وكانت جبهته شديدة التقطيب، لكنه بدا هادئاً على نحو خارق للعادة، لكأن تلك السقطة البلهاء التي تهددنا بالفناء ليست سوى مشكلة صغيرة من مشكلات الضرائب أو الإدارة.

بوصة بوصة. السلاميات، الأصابع، الراحة، القبضة ـ بعدئذ وضعت يداً فوق الممر ثم مرفقاً ثم قذفت بنفسي على

إحدى ركبتي في اللحظة نفسها التي كان العمود يسقط فيها محدثاً صوت ارتطام شديد في مكان ما من قلب الضباب. وللحظة تمددنا متشابكين على الممر، ثم شرعت أتسلقه زحفاً، شاقاً بجسدي الجذور والحجارة إلى سفح الجبل. لم أقل شيئاً، بل بدأت أزحف ثم أترنح ثم وقفت على قدمي ملتصقاً بالجانب اليساري من الممر كمتسكع سكير بأمس الحاجة إلى جدار يتكئ عليه كي يمنحه الإحساس بالأمان. وصلت إلى الجدول الصغير فخضت فيه ثم هويت على الصخرة حيث كنت أجلس من قبل. حينذاك استطعت أن أرى قدامي تماماً جزمة ريك. كان الصوت الأعمق قد طغى على صوت الجدول الأخف، فبدا وكأنما كان الجبل يتكلم باللحن الذي سمعناه من قبل والذي بات في تلك اللحظة ماثلاً في الذهن، واضحاً تماماً أنه سقوط كتلة من الصخر. بدأت أضحك.

«ارتعش واهتز. الفريد لورد تنيسون».

«لا تبال يا ويلف ستكون على ما يرام».

بالطبع كان يعرف الأدب الإنكليزي وكل ما يتعلق به، ارتعش واهتز على طول طريق ريفي، مسار فتيان البلد.

وخيل إلي أن باستطاعتي أن أحس بتهديد الأرض اللامبالية عبر أخمص قدمي، تهديد البراكين، الزلازل الأرضية، الزلازل البحرية، أهوال الواقع، المقذوفات المنطلقة في الفضاء. كان ذلك هو ما يتحدث عنه الماء، ليس الأم المرحة، بل تلك الكتلة الصخرية المعلقة في الفضاء والمتوازنة

بين قوى للجاذبية تعلن عن نفسها على ذلك النحو من اللامبالاة المخيفة.

«هيا».

أمسكت بي يدان لا سبيل لمقاومتهما فنهضت، كما لو أن قوة من قوى الطبيعة تدفعني، لأجد نفسي أصطدم بالصوف والدفء، ولأشعر بقبضة تشد على ذراعي ووجنتي تنسحق في جلد، شعر، عضلات عنق. في البداية، تحركنا ببطء، ثم بسرعة. حصان، حصان! ذلك المخلوق الضخم كان قد وضع جسمي الخامل القوة في عهدته ثم رفعني إلى قلب الهالة التي تشكلها قوته ودفؤه. لكن كان ذلك الدفء هو المصدر الأشد إرباكاً بالنسبة إلي. ففي تلك اللحظة كانت ظاهرة أخرى من ظواهر البشر شأنها شأن رائحة البراز تخز منخري فيما كان يخب كالفرس. أجل يخب، فما من كلمة أخرى كانت تناسب ريك وهو ينحدر الممر عبر المروح إلى أن وصل ساحة الفندق. هناك أنزلني أرضاً، ثم ارتفعت أصوات وظهرت أيد أخرى وسرعان ما وجدت نفسي في سرير. فتحت عيني فرأيت عمودين سميكين لبنطال. عند التقاء ذينك العمودين كان ثمة نتوء كبير يخيم فوقي. أغمضت عيني من جديد. سمعته يتحرك فغامرت ونظرت بإحدى عيني. كانت هناك ابتسامة خفيفة على شفتيه، ففكرت. إنها ودية تماماً لكن، ثمة شيء آخر يخالطهما. اتسعت الابتسامة، فأغمضت عيني مرة ثانية. لم يكن ثمة شك، فالابتسامة ابتسامة انتصار.

«أنت على ما يرام؟».

كان المدير بجواره وكانا يتشاوران. كان ريك يتكلم عن البراندي، فقاطعته بصوت بدا لي طبيعياً تماماً.

«لا أريد براندي. أريد شوكولا ساخنة».

مادة تمريض، لكن المدير أسرع. بعد ذاك نهضت جالساً، فأحسست وكأن كتفي قد انخلعتا وكانت الرعشة تعروني من حين إلى آخر. انموذج حساس، ويلف باركلي! أغمضت عيني، قلبتهما إلى الأعلى ثم تحملت عذاب تلك الحلقة الإضافية من حلقات المهزلة، تلك الإضافة غير المتوقعة لمخزن الذكريات الراهنة كله، حين سقط ويلف باركلي في الجرف ومد له يد المساعدة.

«لا لم يسقط بنطالي، ليس لي أنف مدور أحمر وشعر زنجبيلي وحول مرسوم رسماً».

«عد فاستلق يا ويلف».

«الشيء ذاته، النزف الأخير ـ الشيء اللعين الوحيد الذي يمكنه أن يحدث فيقلب كل شيء رأساً على عقب. كيف فعلت ذلك؟ ماذا فعلت؟».

«يا للعنة!».

«يحسن بك أن تستلقي».

عاد المدير مسرعاً وفي يده كأس على صحن. أخذها ريك منه فقفل المدير عائداً، ثم سمعت من الخارج صوت ماري لو.

«هل أستطيع الدخول؟» فصرخت ملء صوتي.

«لا».

وضع ريك الكأس على الطاولة الصغيرة بجانب السرير، وعاودني الدوار فاستلقيت على ظهري من جديد. بعدئذ حدث انقطاع طويل، فتحت فيه أبواب ثم أغلقت مرات عدة، ثم أعقبها انقطاع آخر.

كان صوت ألماني ذو نبرة غليظة يتحدث بجواري.

«أظن أنه يعاني من صدمة. الشوكولا جيدة ولكل جسم تعبيره الخاص عن حاجته».

«حالة ليست سيئة. كم عمره؟ إنه مسن. حسن. اشرب شوكولاك، سيد باركلي. بروفسور تكر؟ نعم. فقط الراحة، على ما أظن، فلديه بنية رجل أصغر سناً بكثير».

بعدئذ سمعت ريك يغمغم بشيء أعقبه كلام الطبيب من جديد.

«سأرسل لك شيئاً ما. نعم الآن، أنا على بضعة أمتار فقط. من فضلك تذكر أننا حتى في الوايسولد نقول: الحقول الخضراء أشد فتكاً من البيضاء لكن تحت أجفاني المطبقة كنت أمد هوائي الرعب الخاص بي إلى حافة الكون. كانت قطع النرد تتدحرج، ثلاث ستات أم ثلاث واحدات، وكانت كبيرة كأنها الكواكب.

«سأنتظر إلى أن أعطيك المادة يا ويلف».

وكان كبيراً مثل كوكب، يدخل عالمي بكل دفئه وحاجتي إليه، بابتسامته وامرأته، تلك التي تجذبها، حيث حل أو رحل، جاذبية طموح لا يستحق المعاناة. فتحت عيني كي أهرب من النرد المتدحرج فوجدته هناك عند طرف سريري، كبيراً كحياته، مبتسماً تبسم القلق واللهفة. تفحصت نفسي فإذا أنا بالصدرة والقميص. جلست ثم رفعت إلى شفتي الكأس والصحن، يقرع واحدهما الآخر، دون أن أهتم بالنظر إليه.

«اسمح لي».

«دعني وشأني».

لوطي ناكر للجميل، ويلف باركلي! وها هو ذا يستمتع بنكرانه للجميل بالطريقة التي يستمتع فيها بالقسوة والفظاظة لو كان يملك الشجاعة. نكران للجميل وسادية يمتزجان معاً ـ أي هراء! لكن البروفسور تكر كان ما يزال واقفاً هناك، بينما كان الصحن والكأس يخشخشان في يدي إلى أن تمكنت أخيراً من شرب الشراب الذي هدأني في الحال بمذاقه الرائع وذكرياته الطفولية. كنت قادراً على التماسك، كما يقولون، وهكذا تابعت الشراب إلى أن أتيت على كل ما في الكأس. عندئذ ناولتها لريك.

«المزيد».

فبدا وكأنه أجفل قليلاً، كما تصلبت الابتسامة على شفتيه، لكنه أخذ الكأس والصحن ثم مضى بينما جلست وقد أحطت ركبتي بذراعي الموجعتين. كان ذلك قد بدأ هناك في

شويلن حين أحسست ـ من بين كل الأحاسيس الأخرى ـ بأنني وحيد وبأنني ضجر من وحدتي ـ أنا، ويلف باركلي الاختصاصي بالوحدة، إن كان هناك اختصاصي في الدنيا، استعدت في ذهني الخطوات التي قادتني إلى ذلك الوضع الذي لم أكن أرغب البتة في أن أجد نفسي فيه. فتح باب الغرفة فاستطعت أن أرى عبره، وفي غرفة الجلوس، كيف كانت ورقة ريك الحبيبة ما تزال ملقاة على الطاولة لم يوقعها ولم يحركها أحد. حينذاك بدأ يطغى على رعشتي وذكرياتي إحساس آخر أعاد لي بعض شخصيتي على الأقل، إحساس على شكل موجة طاغية من السخط المحض. وهكذا، حين عاد ريك يحمل لي كأساً أخرى متصاعدة البخار ألقيت برأسي على الوسادة رافضاً حتى النظر إليه. ثم غمغمت باتهامي:

«يبدو أنني مدين لك بحياتي».



الفصل التاسع

سخط، كراهية، خوف. وفي لحظة من لحظات نوبتي كنت قاسياً إلى درجة غادر بها الغرفة فبقيت هناك بقميصي وبنطالي أهتز كآلة فقدت قطعة منها. في البداية زوجته، بعدئذ هو وحين فشل ذلك الطعم عادت إلي حياتي، ملكيتي السرية، اللعينة، الحلوة، لكن، حسبما أرى الآن، عادت بشروط كالشروط التي تستسلم بها مدينة لفاتحها. فثمة شيء آخر لابد لي من أن أضيفه ـ إنه نفوري الجسدي من قوته ودفئه ورائحته النتنة.

أحضر إلي المدير الدواء من الطبيب وعلى الفور استغرقت في نوم بلا أحلام، رغم إنني كنت ما أزال أعد خططاً في ذهني كإيقاعهما كليهما في الجرف مثلاً. كانت الصدمة قد أخلّت بآلية التوازن لدي، ذلك أمر لا شك فيه. وكان تكر، من جهة من الجهات، يكتب سيرتي الذاتية لكن بعين ساهرة صارمة إلى درجة أنها كانت تتضمن، كي تلفت انتباه العالم أجمع، وصفاً للكيفية التي امتحن بها فضيلة القديس ويلفريد حين عرض عليه زوجته الجميلة، ذلك العرض الذي رفضه ويلفريد بلطف وكياسة وذكاء جعله هو (الأستاذ المساعد ريك ل. تكر) يلقي بنفسه راكعاً على ركبتيه ويتلقى رفسة هائلة بين فخذيه من إحدى فردتي تلك الجزمة التي لم تكن صالحة للريف الوعر، الأمر الذي جعله يدخل الدير في الحال، تاركاً زوجته الجميلة لـ...

نعم، كان توازني قد اختل، ولا شك، لكن الدواء كـان جيداً وإنني لأود الآن أن أعلم ما تراه كان ذلك الدواء.

أفقت، كتفاي تؤلمانني ورأسي أجوف كالطبـل. تطلعـت إلى ساعتي لكن الأمر استغرق مني بعض الوقت قبل أن أتوصل لمعرفة أن ذلك اليوم إنمـا هـو بالحقيقـة اليـوم التـالي. مـرّرت لساني في فمي فشعرت كأنمـا هـو مـبطن بمعـدن قـذر، الأمـر الذي دفعـني لأن أغـسله بالمـاء البـارد المـرة تلـو المـرة. كمـا أحسست في ساقي بوهن يدفعهما للإنهيار تحتي. وحين عـادت إلي ذكرى اليوم السابق لم أشعر إلا بقدر ضئيل مـن الـسخط أو الكراهية. لم يكن قد بقي في ذهني من تلـك اللحظـات الغريبـة سوى الخوف، إن لم نقل الرعب. لكـأن الخـلاص ـ مـن تـأثير المخدر كان يتضمن أنـني اسـتعدت نفـسي، أصـبحت جـاهزاً للعمل وللتو رأيت النتائج الرهيبة لإعطائي ريـك أي إذن مهمـا يكن ـ ريك، ذلك الباحـث الـدؤوب أو المنقـب المواظـب في ركام ماض ذي ذكريـات لا تعـرف الغفـران! تلـك الفتـاة غـير معقولة بالنسبة إلي، أي خطر! أي مصاب!

كانت الورقة ما تزال هنـاك، ملقـاة علـى طاولـة ممـسوحة ملمعة حديثاً. هل قامت تلك المـرأة البدينـة ذات الـشعر الأشـيب بمسح الغبار من حولهـا دون أن تمـسها أم أنهـا رفعتـها بحـذر ثم نظفت الطاولة ولمعتها، وبعد ذلك أعادتها إلى مكانها بدقـة حكـم رياضي يعيد كرة سنوكر[1] إلى مكانها؟ فالورقة كانت هناك.

---

(1) لعبة من ألعاب الكرة قريبة من البليياردو.

يبدو أنني مدين لك بحياتي

عاد ذلك القول يـرن في أذني كجـرس المدرسـة. كنـت مديناً له بحياتي، لا أقل من حياتي. إنها أشبه بقـصص الـصبيان التي كثيراً ما سمعت بها.

«أنا مدين لك بحياتي، أيها الرجل العجوز».

«لا بأس، لا بأس، أيها الزميل القديم. فالأمر لا يـستحق الذكر».

«ذراعك كسرت أيها الرجل العجوز».

«ليست بيمناي أيها الزميل القديم».

إنها كوميديا خالصة واطئة المستوى تتكرر من جديد.

إذن، الورقة كانت هنـاك. لكـنني صـرفت انتبـاهي عنـها لأركزه على نفسي. إذ لا يليق بويلفريد باركلي أن يدخل في أيـة قصة من قصص مغامرات الصبيان تلك، بـل فقـط في محاكـاة ساخرة لإحداها، لكن ليس كبطل لها أو صديق حمـيم لبطلـها يمكن للصغار أن يتعاطفوا معه، بل ربما كمغفل أحمـق يوضـع في القـصة كـي يـبين أن الجريمـة لا تمـر أو أنـه لا يـصح إلا الصحيح. إذ قد يُضرَب ضربة مباشرة شبه قاضـية بيـد الخـصم اليسرى فيتدحرج ويلفريد باركلي لشدة الضربة ثم يمسك بفكـه سابًا لاعناً مقسماً أغلظ الأيمان أن ينتقم شـر انتقـام. لا، لـيس هو بالأحمق إلى درجـة يوقـع معهـا تلـك الورقـة. بـل سـيأخذ الزوجة ويفر. يفر!

لا تفكر بالزوجة. ثمة زوجات في كل مكان. هل تراني خدعت نفسي بشكل من الأشكال؟ هل سبق لأحد أن قدمها فعلاً للقديس ويلفريد؟ حذار! هل جننت يا ترى؟ في بعض الأحيان كان بمقدورك أن تلمح شيئاً من الكثافة والشدة في تحديقته، في ذلك البياض المحيط ببؤبؤي عينيه وكأنه على وشك أن ينقض انقضاضاً خطراً. ربما يجده محلل نفساني موضوعاً يثير الاهتمام. إلى الجحيم بمراقبته وتفحصه! فشعره ـ يثير الاشمئزاز. وإن مراقبته لأشد خطراً من مراقبة كركدن.

هذا منزل مجانين، وويلفريد باركلي، القديس ويلفريد الذي لم يعد شخصية من شخصيات قصة أطفال، سيفعلها سيتحرر من الجاذبية ويسبح قليلاً في الهواء. هو لن ينحني ويخرج، بل بكل بساطة سيختفي، سيغيب عن الأنظار في سلة تلفريك، وبأقصى سرعة!

حالما قررت ذلك أحسست بقلبي يتراقص فرحاً. لم أكن أعلم حتى ذلك الحين ما تعنيه صحبة شخص شديد الوطأة. أمسكت بالمدير فعلمت منه أن تكر وزوجته كانا قد خرجا في نزهة. شرحت للمدير وضعي قائلاً إنني بعد الصدمة بت بحاجة ماسة للعزلة. ورغم أنني كنت قد حجزت لمدة أسبوع إلا أنه ينبغي أن أغادر على الفور. (ثم وعدته كنوع من التعويض ـ بمكافأة كاملة على شكل ثناء عليه وعلى فندقه أضمّنه أحد كتبي! وها أنا، بالحقيقة، بعد بضع سنوات، لا أدري مقدارها، أفي ذلك الدين. فندق فلسينبليك، وايسولد،

سويسرا، فندق مريح، مناظره رائعة، والمنحدر تحته رهيب هناك ستجد الرائد أدولف كاوفمان الذي لابد أن يكون قد تقاعد الآن، رجلاً صامتاً لا يتدخل في شؤونك أو يتطفل).

حزمت لي المرأة البدينة أمتعتي ثم نقلتها إلى المحطة حيث أخذت قطار الساعة الثالثة. وهكذا فررت، تاركاً خلفي، كعنوان قادم، اسم فندق في اكوريري، آيسلاندا. بعد ثلاث ساعات كنت في طائرة متوجهة إلى فلورنسا. ثم في سيارة أجرة أخرى. ومع حلول المساء كنت أسوق السيارة عبر جبال الابنين على طريق عريض. كنت هادئاً، أراقب المناظر الطبيعية وهي تمر بي مسرعة. كنت محاطاً بالمعدن وكنت سيد نفسي. تلك الليلة قضيتها في فندق رخيص في اللاروتوندا[1] وإنني لأذكر الفرح والحرية اللذين شعرت بهما وأنا أفتح النافذة على مصراعيها ثم أنظر خارجاً إلى الظلال الرائعة وأخترع نتفاً ظالمة تماماً من حوار بين السيد والسيدة ريك.

«ثمة فجوة كبيرة في السقف يا حبيبي».

«إنها من آثار قنبلة على ما أظن يا حبيبتي».

ومرة ثانية شعرت بأنني عدت كما كنت، فاستغرقت في سبات عميق.

في الصباح التالي، لم أشعر بانزعاج فعلي بل كنت مشغول البال قليلاً. فبعد كل شيء لم تكن اللاروتوندا، شأنها

---

(1) ساحة في روما.

شأن البيكادلي أو ساحة التايم، سوى المكان الذي يمكن أن تلتقي فيه، كما يقال، بأي إنسان، إن طالت إقامتك. إنها طريقة ملتوية أردت منها القول إن كثيراً من الناس يذهبون إلى هناك. وهكذا ما إن فقد ريك وماري لو أثر الرائحة - إذ حتى ريك كان أكثر فطنة وذكاء من أن يخدعه عنوان آيسلاندا - حتى بدت روما هي المكان المحتمل، إذن، فإلى روما! ذلك ممكن تماماً، ترى ألم يكن قد قال إن على ماري لو أن تذهب إلى روما ودبلن؟ في تلك اللحظة انطلقت لمعة ضوء جعلتني أشهق. فليس هناك ضمانة في أنها لم تأت إلى روما بعد، أو أنها، إن جاءت لا تريد أن تجيء مرة ثانية. كنت حينذاك في النافونا، أجلس - إلى طاولة من تلك الطاولات المعدنية المدورة أو أجلس إلى الطاولة المعدنية نفسها حين أحسست بأن قلبي يهوي من مكانه كما يقولون. لا. أنا لم أر ماري لو بل رأيت ريك. رأيته بالطريقة نفسها التي كنت عادة أرى فيها اليزابيث أيام زمان حين كنت ما أزال مهتماً. أي بعبارة أخرى أنا لم أر ريك بالمعنى الحرفي للكلمة. بل أفقت مما يشبه الغيبوبة منتفضاً انتفاضة كانت ستريق القهوة لو أنني لم أشربها من قبل.

«يا للمسيح!».

ذلك معقول تماماً. فمن المحتمل أن يكونا قد غادرا الفندق إثر عودتهما من النزهة مباشرة ثم طارا من زيوريخ إلى روما ذلك المساء أو تلك الليلة أو ذلك الصباح نفسه. لو كنت على الطريق إذن لكنت في أمان أكثر. لم أكن في تلك اللحظة

أري. بل كنت أتذكر بدقة وإحكام شديدين. الفارق الوحيد أن تلك الذكرى لم تكن، إن جاز القول، تتصاعد من الأعماق. بل كانت نوعاً من انزلاق الزمن، أو أشبه «بالطقة» التي يمكنك أن تستبدل بها شريحة عرض بأخرى، ثم تعود إلى الأولى. كانت تلك هي اللحظة التي يتعين علي فيها أن أتوقف، أن أرفض الاعتراف لريك بما هو أكثر من الأسلوب والتصميم. لا، هو لم يكن شبحاً، بل سوء حظ. وهو ليس قديساً لديه قدرات خارقة على الانتقال من مكان إلى آخر والتواجد في مكانين معاً. لقد كان موجوداً هناك في ساحة النافونا! كان يتفحص النبع وحسب، ربما كي يتعرف من خلاله إلى الأنهار المذكورة في الأساطير. بعدئذ استدار مبتعداً، وهو ما يزال واضعاً كاميرته الصغيرة على ذراعه اليمنى تماماً تحت ردن كنزته. أنا لم أر مقدمة تلك الكنزة التي حيكت كلمتا أُولْ أشكان على صدرها لكنني رأيت البدايات ذاتها للحرف أ. والأنكى من ذلك أن أنفي كان قبل أقل من ثمان وأربعين ساعة قد غاص في حرارة تلك الكنزة المثيرة للإشمئزاز عند مؤخرة عنقه حين حملني نازلاً منحدر الألب على ذلك الممر الجبلي اللعين. كنت أعرف تمام المعرفة، فحذاؤه الضخم وشعره، ذلك الشعر الطويل إلى حد معقول، كانا يناسبان أكاديمياً جاداً. كان قد ابتعد، اختفى وهو ينحدر شارعاً يمتد على الجانب الآخر من المقهى. ولو لم أكن أحلم باكتمال فراري من الورطة، إذن لكنت قد هببت على قدمي وجريت إليه قبل أن يختفي. أو كنت تبعت أثره إلى فندقه، حيث ستكون غيمة

الألق الذهبية ما تزال مستلقية ولا شك دونما أثر فيها لنزعة جسدانية.

قفزت واقفاً، ثم ألقيت ببعض النقود على الطاولة الصغيرة وأسرعت مبتعداً، فيما ظلت عيني تدور في المكان راصدة معظم اتجاهات البوصلة، الأمر الذي أتاح لي أن أرى السرعة الهائلة التي هجم بها متسكع عابر على النقود التي تركتها على الطاولة ثم أخذها قبل أن يأتي النادل إليها، فيما رحت أؤكد لنفسي أنني لم أخطئ، بل لا يمكن أن أكون قد أخطأت. أوه، أجل تذكرت الخط الذي كانت ترسمه كتفا ريك، ذراعه، بنطاله المصنوع من أحدث خيوط الغزل وتلك الجزمة الإمبريالية ذات النعل السميك التي يلبسها السياح عادة ليحافظوا على مسافة تفصل بينهم وبين الأرض التي يدوسون عليها. نعم. لو لم أكن مشغول البال مسبقاً بتلك المتعة الهادئة التي أحسست بها بعد اختفائي الجديد، فربما كنت سأراه وجهاً لوجه. عند هذه النقطة أيقنت أن إحساسي بالأمان لم يكن يؤثر في ريك. فهو سيراني سواء رأيته أم لم أره. أم تراني بت أملك قدرة الحرباء على الاختفاء؟ هل بت أبدو أشبه بكرسي حديدي أو امتدادة جدار حجري؟

النظارات الشمسية! تلك هي السبب، فشمس الصباح بدت في تلك اللحظة شديدة الوطأة على عيني! كنت قد اشتريتها من المحل المجاور للفندق حين بدأت أتمشى هناك، وكانت تخفي وجهي كله ما عدا لحيتي الشعثاء، واللحى في

روما كثيفة كزهر الحوذان الأصفر في حقل من الحقول.

ينبغي ألا يعرفني أحد إلا كتحرٍ محترف يجمع أدلة تتعلق بقضية طلاق أو تجسس أو سرقة محلات، ثم، ياللعنة! وجدتني أجفل وأنا أتذكر ريك، أتذكر تركي المنظارات الشمسية على الطاولة الحديدية المألوفة. الطاولة المعدنية المدورة نفسها. فكرت للحظة من الزمن أنه سيكون خطراً كبيراً أن أعود إلى النافونا لأستعيد نظاراتي الشمسية، لكن بعد ذاك انسللت صاعداً الساحة بحذر، كرجل محترف، ثم اختلست النظر حول المنعطف. نعم. كانت نظاراتي الشمسية قد ولت. لابد أن متسكعاً آخر قد أغار عليها.

أحسست بارتباك شديد، وهكذا لم تأت الظهيرة! إلا وقد غادرت الفندق (العنوان القادم: الفندق الاتحادي، رونوك، فيرجينيا) ثم سقت سيارتي باتجاه حبت أنه سيخدع أي متتبع لأثري. سقت باتجاه الشرق، مقدراً أن الطريق الفرعية هي وحدها التي يمكن أن تنقذني، وسرعان ما وصلت إليها بعد أن تجاوزت الطرق المحلق.

لكن كيف بحق الجحيم تمكن ريك من اكتشاف المكان الذي قصدته إن لم يكن ذلك بمحض المصادفة؟ لو أنه استخدم الأدلة، إذن لكان عليه الآن أن يكون في طريقه إلى آيسلاندا فأنا بالتأكيد لم أخبر أحداص بوجهتي، والجمارك لم تكن تتدخل في مسائل كهذه، أم تراه ذلك الشاب الجمركي الذي فتح جواز سفري ثم أغلقه ثانية دون أن ينظر إليه ـ أم أنه

تعمد تلك الحركة كي يطمئنني بلا مبالاته؟

في تلك اللحظة كبحت من سرعة سيارتي ثم توجهت إلى فسحة مكشوفة عند منعطف طريق. أوقفت السيارة وأطفأ المحرك، ثم قلت، ويلفريد باركلي أنت ما تزال تعاني من الصدمة. كان عليك أن تنتظر يومين آخرين فعلى ماري لو أن ترى روما ودبلن. إنهما سيريان روما نادمين، ربما، على أن ويلفريد العجوز المسكين كان قد اختفى على نحو يصعب تفسيره، لكن المشكلة ليست، بعد كل شيءن في أنه بريطاني بل في أنه كاتب. ضعي الاثنين معاً، يا ماري لو وسترين أنه لا يعلم إلا الله ما يمكن أن يحدث. لماذا؟ انظري إلي شيلي، إلى نويل كاوارد. لا، يا حبيبتي. ليس معاً، بل على نحو منفصل، يا حبيبتي. أنا أعلم أنك خريجة أدب إنكليزي، فقد كنت تلميذتي المفضلة. طبعاً، أوه. أعلم ذلك، إنها، كما يمكن أن يقول ويلف المسكين، أشبه بأن تجري ساقي. لا، هو سيقول، إنك تقتربين من طرفي السفليين لتمارسي نوعاً من السحب. هاها. هاها. هاها. هاها. هاها. هاها... لكن ما تراه سيقول السيد هاليداي؟ من وجهة النظر هذه، كان ويلف غير لطيف أبداً. فنحن، بالنتيجة، لم نكن نبتغي إلا أن نعرف شيئاً عن ماضيه، لاسيما الجوانب الممتعة المفعمة بالحيوية، عن الجرائم التي وقعت له من حين إلى آخر، إضافة إلى العدد اللامحدود من المرات التي جعل فيها من نفسه مهرجاً خاصاً، وكذلك ما يجعله يستمر، بالحقيقة. لا، ليس من حقه أن يخفي شيئاً من ذلك، يا حبيبتي. إذن لماذا لا يجوز أن نصنع منه وجبة؟

ما تراها كانت ستقول؟ بشكل من الأشكال، بدوت غير قادر على اختراع حديث يناسب الفاتنة. أما حديث ريك فقد كان من السهل اختراعه.

حبيبتي، علي أن أقول إنني لم أقصد أبداً إلحاق أي أذى بك. دوار الارتفاعات كان بالفعل قد أصابني، فأثر في حسن تقديري، على ما أظن. لكنني كنت أعلم أنك ستكونين في أمان. كان سيقلبك رأساً على عقب، فهو واحد منهم يا حبيبتي، ثم ينتهي كل شيء فتخمنين، بل يمكنك أن تدعيه قوة بصيرتي، أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً مع النساء البتة. إنه لوطي. أمه، يا حبيبتي، هي التي ربته ثم درس في مدرسة بريطانية خاصة وأنت تعلمين ما معنى ذلك. الآن يا حبيبتي، حان الوقت للنهوض من الفراش. فعلينا أن نذهب إلى كنيسة القديس بطرس قبل الواحدة، يا حبيبتي. اختراعي المسكين ذلك سلاني بعض الشيء بل شعرت بأنني قد تحسنت. فقلت في نفسي إنني أصنع من الحبة قبة. فبعد روما سيذهبان إلى دبلن وهناك يسيران في محطات بلوم القديمة البائسة.

الملياردير، هاليداي. من الواضح أن ماري لو كانت معجبة به، بكل ما فيها من براءة. فالغنى، شأنه شأن الموهبة، شأن العبقرية، ميزة جنسية مساعدة. ولوهلة من الزمن رحت أتساءل إن كنت سأسوق عائداً إلى روما حيث أبحث عن السيد هاليداي في أحد المراجع المناسبة، لكنني أخيراً قررت عكس ذلك.

وهكذا تمكنت أخيراً من أن أنطلق بسيارتي على مهل، خالي الذهن من كل شيء تقريباً مفعماً بالإحساس بالأمان. مع ذلك كان ثمة شيء لاحظته حول نفسي. إنه الاستغراق. كنت أخشى أن أكون موضوعاً لسيرة ذاتية. في الوقت نفسه كنت أشعر ـ بغض النظر عن مقدار الجهد الذي بذلته كيلا أكون كذلك ـ بأن ذلك الاحتمال يرضي غروري بشكل من الأشكال. ففي كل مرة كان ذهني فيها يهرب من جرح ماضي، كان يلتجئ إلى التفكير بشهرتي الراهنة. بعدئذ، وأنا أخفض من قدر تلك الشهرة شيئاً فشيئاً، كنت أذكر نفسي بهذا الكاتب أو ذاك، وفي النهاية يبقى في ذهني أثر ضعيف من إحساس بأنني ذو قيمة كبيرة، إنسان غير عادي، جليل الشأن. بل إنني فاجأت نفسي أكثر من مرة وأنا أنظر عبر نظارتي السوداء الجديدة. من تحت قبعتي البانامية المصنوعة من القش الخفيف إلى مجموعات من السياح الإنكليز ثم أقول لنفسي لو يعلمون فقط! كنت أدرج على الطرق أو أجلس إلى طاولتي المدورة البيضاء وأشرب. فخطر لي ـ وكان ذلك في فندق قريب من أكويلا يعتبر مصيفاً يلجأ إليه الإيطاليون في الطقس الحار ـ أن رجلاً مثلي يمكنه أن يري هاليداي وريك تكر من هما حقاً ـ فرجل مثلي هو أكثر بالحقيقة مما يظنان ـ شكراً لك يا بروفسور تكر. هذه واحدة فخذها! أتذكر أنني كنت جالساً أحاور، كما يقولون عادة، زجاجة نبيذ معقولة جداً وأراقب الشمس وهي تغرب في الاتجاه العام لروما. ثم أقرر أنني في أمان لأنني كنت أعرف تماماً الكتاب الذي سأكتبه. كنت سأوسع سلسلة باركلي. وكنت

أنوي أن يتناول ذلك الكتاب أشياء بسيطة خالدة، الشباب والبراءة، الطهر والحب. اشتريت آلة كاتبة حالاً فقد كان المكان هادئاً، ولا أحد يتكلم معي إلا بأشد أشكال اللباقة واللطف. يحب الجنس لكنه لا يستطيع أن يحب، بالحقيقة. وبكل هدوء، بل ربما بكل رزانة شرعت أؤلف كتابي. هيلين دافنان وايفوكلارك يمتطيان حصانيهما وينطلقان عبر الحقول الخضراء في إحدى مناطق الريف الإنكليزي. يصعب علي أن أتذكر شيئاً بدقة تامة. ذلك لا يهم بالطبع. «خيول في الربيع» عنوان سيكون ذا مسحة رعوية شأنه شأن «رافنز وكلوي» أو أحد أناشيد فرجيل الرعوية. أتذكر أن ذلك أثارني كل الإثارة. إذ كان في هيلين شيء من ماري لو ـ نوع من الطيبة الفجة، تحملها للألم، جهلها، براءتها المطلقة. أما إيفو، ولا أخشى الاعتراف، فهو ذلك الفتى الذي كان ذات يوم موظفاً في مصرف ثم اضطررت لأن أقوم بمهمة تنظيفية له. كان أمراً في غاية السهولة أن أكتب بل ممتعاً كثيراً! لكنني اكتشفت أن رد الفعل عند النقاد سيكون سلبياً (إذ سيقولون إن ـ الكتاب عفن) لكنني لم أعتقد أنه سيكون سيئاً إلى ذلك الحد. كنت أقضي وقتاً يسوده السلام والهناء. بعدئذ، وبقدر متواضع من الشعور بالانتصار ممزوج ببعض الأسف، سمحت للمخطوطة أن تذهب إلى وكيل، معطياً إياه عنوان بريد في يوغسلافيا، ثم أقمت، بانتظار الجواب، في تيتوغراد حيث لا يذهب سياح قط.

النتيجة هي أن شحنة كبيرة من الرسائل جاءتني من إنكلترا، أولاها برقية من ليز تقول: مرة ثانية ماذا ينبغي أن أفعل

بأوراقك اللعينة؟ إنها تتزايد يومياً. همف يحتج. أرجو أن تصلك هذه البرقية. إيمي تبعث لك بتمنياتها الطيبة.

الثانية برقية من وكيلي ملؤها الحماس، مفعمة بالتهاني مفادها أنه أعاد طبع المخطوطة على الآلة الكاتبة.

صدمني النبأ كثيراً فقد كنت أحسب نفسي أفضل من ذلك. يحب الجنس لكنه لا يستطيع أن يحب، بالحقيقة! ها... الخ...

بعد ذاك جاءني مائة رطل من الرسائل تقريباً. كنت قد تعبت من شرب الدينجاس وهو خمر حلو لعين، من أشد خمور العالم تسميناً، لهذا عدت أدراجي إلى إيطاليا فارزاً تلك الرسائل مصنفاً إياها. الشيء الوحيد المهم إنما كان رسالة من ليز مكتوبة بعناية وإحكام (ليست برقية ـ إذ أن الرسالة كانت، قد كتبت من قبل). هل سأخلصها من ريك تكر وزوجته؟ لابد أن ريك يعمل لصالح دار بنكرتون. هي لا تبالي كثيراً بمحاولات همفري إغراء ماري لو، فقد تكيفت مع طبيعة الذكور والفهود لا تُقْتَل قط من بقعها الرقطاء. في هذا شيء من روح الدعابة الاشعورية، كما أتصور. لكنها تخشى أن يقابل ريك إيمي في لندن. هل أذكر إيمي يا ترى؟ (سخرية فجة). إيمي تعاني كثيراً. إنها خامدة. ليست من ذلك النوع من النساء الذي يجذب الرجال عادة وهي تشعر أن ريك يستخدمها كدريئة يستتر خلفها أو كلجد من تلك «الجلود» التي يحتفظ بها همف ليختفي خلفها ويراقبني: أو

أنـه يـستخدمها كـي ينـبش مـن ذكرياتهـا (وهنـا توريـة لا شعورية، ربما) أي شيء يتعلـق بأبيهـا. ريـك لديـه مـشروع ولابد لها من أن تخبرني أن العمل الـذي سيتوج بـه أعمالـه كلها، إنما هو سيرتي الذاتية، أنا ويلف المسكين، لكن قبـل ذلك عليه أن يجمع كل شيء عن ويلفريد بـاركلي، الكتـاب المصدر. خسارة، إن هاليداي لم يـستطع أن يـستثمر أموالـه بطريقة أفضل لكن المـال مفـسدة، ذلـك كـل مـا في الأمـر. كذلك كانت ترجو أن أحظى بالسعادة حيثمـا ذهبـت (لمـسة حقيقية من لمسات ليز) وأن أجد ما يكفي من الوقت والمـال والناس الـذين يجـرون وراءه. فـالآن وقـد انتـهى إحـساسها بالمرارة بات بإمكانها أن ترى كم كنت كريماً إذ سمحت لهـا بأن تحتفظ بنصيبها في الشركة المحدودة التي لم تكـن تعلـم هي وهمفري وإيمي ما كانوا سيفعلون لولاها. أما بالنسبة إلى كيسترل فقد أقصي مع الأسف. كمـا كانـت ترجـو أن أكـون سعيداً مع المرأة التي ترافقني، أياً كانت تلك المرأة. أما هي فلم تكن على ما يرام.

قرأت تلك الرسالة ثم أعدت قراءتها نظراً لأنها كانـت تتضمن أشياء كثيرة. معظمها ينبغي استنتاجه استنتاجاً. ليست على ما يرام! من يمكن أن يكون كذلك، وهو يعيش مع ابـن الـزنى ذاك؟ لا شـك أن علـى النـساء أن يجـدن مـن يرتـب الزيجات لهن ـ يا إلهي! كيف يعلـق أبنـاء الحـرام بالنـساء، فرحين سعداء! أوه ـ كنت أفكر عـادة أنـه سـيفيدها تمامـاً، أعني هو نفسه، لكن بعد سنين من عـدم الاهتمـام، شـعرت

بالأسى الشديد عليها، مع ذلك حسبي منه ومنها. الأكثر أهمية، إنما هو ريك. يالله! يعمل لصالح دار بنكرتون! لقد أخافني ذلك كثيراً، رغم أنني قلت لنفسي وأعدت، إنها تبالغ ولا شك وإنه ينبغي ألا أفكر كثيراً بالأمر. وهكذا، مع عدم وجود ما أكتبه، ومع رسالة ليز، شعرت أنه حان الوقت لأن أنتقل. لكنني فكرت أيضاً أن من الأفضل أن أعرف شيئاً عن هاليداي، نظراً لأنه هو الذي يقف خلف العملية كلها. لم تكن الإشارة إلى نفوذه وسطوته تريحني فبدأت تصيبني الكوابيس التي لم تكن مرعبة بالحقيقة بل مثيرة للضيق والإزعاج. أعني ضمن الرد الواهي الذي قد يصدر عنك وأنت تحلم، تجاه حادث يسبب لك في الحياة «الحقيقية» رعباً شديداً، كان ما أشعر به حين يحكم علي بالشنق في الحلم هو الانزعاج وليس الرعب الذي كنت سأشعر به حتماً لو كان الأمر حقيقة واقعة. لكن بالنسبة لإنسان لا يحلم عادة (أي أنه خال من اللاشعور، كما كانت ليز تقول عادة) فإن تلك الكوابيس كانت عبارة عن انقلاب حقيقي في حياتي. وكنت أشعر بالأسى على ما حل بعلاقة كيسترل وإيمي.

حزمت ثيابي وتخلصت من حمل الرسائل الذي جاء معي من تيتوغراد، ثم توجهت إلى روما، لابساً نظاراتي السوداء. في المدينة الكبيرة حاولت أن أجد معلومات عن هاليداي في كتب المراجع، لكن الغريب أنني لم أجد شيئاً عنه. لابد أنني كنت أبحث في الكتب الخطأ. لقد بحثت في معجم «الشخصيات» حين كان ينبغي علي أن أبحث في معجم

«الشخصيات الأمريكية» فبعد كل شيء، كان معجم «الشخصيات» ذلك يحوي معلومات عن أشخاص مثل فولبرايت، السفراء، وزراء الدولة وما شابه ـ إنما لا معلومات عن هاليداي. وهكذا، شرعت أتساءل وأتعجب وربما كنت سأقضي وقتاً أطول في روما لو لم تخطر لي فكرة، هي أن هناك احتمالين: فإما أن يكون ذلك الرجل غير هام البتة أو أنه أكثر أهمية من أن يرد اسمه في معجم شخصيات، شأنه شأن بقية الناس، وكان لي من ذلك كابوس لم يفعل سوى زيادة ضيقي. فقد ملأني رهبة وخوفاً. إذ حلمت بأنني في روما، حيث كنت بالفعل، وبأنني أرى واحدة من تلك الملصقات المرسومة على عجل والتي يحتفظ بها العاملون في ميدان الأخبار جاهزة دائماً. كان يبدو وكأن هناك حرباً؟ أم هو شيء ما عن راهبة تربح جائزة يانصيب بالخطأ؟ أم تراها كانت عن باركلي؟ أسرعت في سيري قليلاً. ثم، وكما يمكن أن يحدث في الحياة الحقيقية، عدت أدراجي على عجل كي أؤكد لنفسي أنني لم أكن مخطئاً، لكنني لم أجد الملصقة فاستيقظت وأنا أتصبب عرقاً.

بعدئذ رحت أطوف في العالم. ولعلي فعلت ذلك من قبل ـ أعني الطواف في العالم هرباً من خوفي ـ لكنني كنت أشعر وكأنها رحلتي الأولى. يا للرجل اللعين، هاليداي! إن كانت تلك حاله، إذن، فهو في كل مكان، إن لم يكن هو شخصياً، فنفوذه أو ممتلكاته أو رجاله ونساؤه. في هاواي كنت أجلس في أحد المشارب فقال رجل في الطرف الآخر

وعلى نحو واضح تماماً إن هاليداي يملك نصف الجزيرة. كان الضوء خافتاً وكنت ألبس نظاراتي الشمسية، على أي حال، لذلك كان بإمكاني أن أتحرك مباشرة ثم أسأله أي نصف يا ترى؟ فضحك الرجل ثم أجاب: النصف الأول بالطبع. بعد أن صعدت إلى غرفتي في الطابق العلوي شرعت أتساءل إن كان يقصد هاليداي نفسه. فقد بدا الاسم رجراجاً نوعاً ما. لكن المشكلة حينذاك، وأنت تطوف العالم لأنك خائف، هي أنك تميل للشرب كثيراً. بطاقات الرصيد نعمة لكن حينما تريد أن تنتقل كثيراً في العالم عليك أن تكون دقيقاً للغاية فيما يتعلق بالمواعيد والتواريخ، ولم أكن كذلك، فوقعت، صدق أو لا تصدق، في مشكلة نتيجة إهمالي للتوقيت الدولي رغم أنني مازلت أجهل لماذا. إذ من تراه يستطيع فهم التوقيت الدولي، أكثر من قبطان طائرة؟ أتذكر أنني في حينه زدت الأمور سوءاً حين زعمت أن الخطأ كله هو خطأ هاليداي. ذلك الحادث المؤسف كان سيئاً تماماً، إذ كشف ستري وجعل مني مادة إذاعية، كما أوقعني في مأزق أيضاً. رغم أن انطلاقة طويلة مني جعلتني أختفي خلف المنعطف وقد انزلقت معظم قبعتي البانامية على وجهي. الأسوأ من ذلك هو أنني بعد يومين وجدت نفسي أمشي في قرية ذات مناخ أبرد بكثير. لا يهم أين هي. كنت أسير في القرية وفجأة تنبهت من غفلتي وقد أجفلت تماماً إذ أن إحدى قطع الغسيل المنشورة على حبل أمامي إنما كانت كنزة كتب عليها أوّل أشكان. بعدئذ أيقنت أن الصدمة التي

أصابتني أخلت بتوازني تماماً وإن كان ذلك لفترة مؤقتة. كذلك كنت كما سبق وقلت، أشرب أكثر من المعتاد وكان الجو قبل ذهابي إلى تلك القرية كثيف الضباب باستمرار ما عدا اليومين اللذين سبقا ذهابي مباشرة. ولابد لي من أن أذكر أن الصدمة الإضافية كان لها تأثير الضربة القاضية فقد عكفت على الشراب من جديد رغم أنني كنت قد أقلعت عنه مدة ثمان وأربعين ساعة تماماً ولا أتذكر ما حدث بعد ذلك، فقد أنقذني من تلك الحالة شاب لطيف جداً غير فضولي يعمل في السفارة. لقد أدرك تماماً حاجتي الماسة لأن أتخفى فلا يراني السيد هاليداي أو ريك. كما قبل مني شيكاً مقابل أشياء مختلفة بدا أنني مضطر لدفع ثمنها رغم أنني لا أذكر ما هي، ثم أوصلني حتى الطائرة.




Twitter: @alqareah

الفصل العاشر

حدث فيما بعد تغيران - فقد كان الشاب دائماً ضد قيادتي للسيارة ولو إلى فترة قصيرة - إذ كنت في جزيرة يونانية توجد فيها، تلك الأيام، أماكن نائية حيث وسائل الصحة العامة بدائية، لكنني لم أهتم بذلك، مفضلاً إياها على الإنجازات الرخامية والبلاستيكية والسيراميكية. حيث تقابل العدد الكبير من الناس، أعني في هذه الأيام وفي ما يدعى بالفنادق الجيدة حيث تلحظ أن غرفة الرجال تكون عملياً أشبه بنادٍ، إذ لا تعرف بجوار من أنت.

كانت الجزيرة - ولا داعي لإخفاء الحقيقة، فأنا أذكر نفسي - هي جزيرة لسبوس أو لسفوس حسب معرفتك باللغة اليونانية أو عدمها. ولقد اعتقدت أن العزلة والشاطئ الرملي سيوفران لي الراحة التامة من المضايقات ومن الشراب، لذلك سرت في طريقي عبر الجزيرة إلى فندق متداع وشاطئ رملي فسيح. ويالتلك الطريق! إنها لا تخطر على بال أحد، فجزء منها هو عبارة عن مجرى جف، أما الجزء الآخر فكانت عليه حجارة صغيرة لا تزيد عن حجم الكريكيت أو قبضة البنيّة ولا تصلح إلا لأن تحصب بها الغربان. أحد الأشياء الجيدة في اليونان أن خمرتها العادية لا تصلح للشرب، ولقد زرت اليونان من قبل ولفترة طويلة، كما يقولون، مثل أي شخص آخر. كنت يومها أشرب وأنا أعلل نفسي بأنني أحب شراب (الرتزينا). بعد ذلك

صرت أشرب وأنا مدفوع بذلك الوهم أيضاً. والآن يمكنني القول إنني تخلصت من ذلك الوهم باستثناء شراب كريتي خفيف أحمر لا يُصنع من الزبيب ـ ويدعى (مينوس) على ما أعتقد ـ وهو شراب يمكنك أن تشتريه بجرار فخارية مصنوعة بمهارة وتستطيع أن تأخذ منها واحدة أو أكثر معك.

على الشاطئ كنت أسبح أحياناً، وأحياناً أستلقي على ظهري وعيناي مغلقتان مستمتعاً بشعور يخالجني وهو أنني لا أعرف ماذا يكتبون أو يقولون عن روايتي «خيول في الربيع» وأنه لا أحد يعرف أين أنا، لذا لا يمكنني بأي شكل من الأشكال أن أعرف كيف ينهش السيد هاليداي والسيد ريك الناس الآخرين بأنيابهما ومخالبهما.

كنت قلقاً نوعاً ما حول ما سيقوله الناس، حيث أن رواية «خيول في الربيع» تشتمل على ما يمكن أن يفهم الناس خطأ أنه الحب الحقيقي، وهم لن يقبلوا ذلك رغم أنني لم أستطع أن أقول إنه موجود كي أتحاشى هاليداي. مع ذلك، وكما يقولون، الجهل نعمة أو راحة. وهكذا بقيت في الماء الضحل أياماً عديدة مستلقياً على ظهري، على وجهي قناع وأنبوب صوت بجانب أذني. كنت أراقب مختلف أنواع المخلوقات البديعة الألوان اللامبالية في سكناتها وقفزاتها الفجائية وعادتها في أن تتجمع وتتزامل بين الوجبات. في الماضي، كان هناك على ما أعتقد (بناء على معلوماتي الضئيلة فيما يتعلق بعلم الآثار تحت المائية) مرفأ في أحد أطراف الشاطئ إذ أنه ما يزال ظاهراً تماماً تحت سطح الماء، نظراً لأن الجزيرة،

بالمصطلحات الجيولوجية المتداولة، تصعد وتنزل مثل يويو[1]. كان المكان مليئاً بالأسماك الصغيرة غير المؤذية. إنها صغيرة لأن كل ما هو أكبر منها قد أكله الصيادون الذين بات عليهم أن يبتعدوا عدة أميال داخل البحر قبل أن يجدوا شيئاً. هذا المرفأ المغمور ـ أفكر فيه وكأنه مرفأي ـ ليس غريباً أو مثيراً كالنوع الذي تراه عند «ريف الحاجز الكبير» أو عند إيلات على البحر الأحمر. أقول ذلك وقد رأيتهما كليهما فهو ليس غريباً مثلهما، لكنه مرفأ أكثر نبلاً، إن لم تعتبر الكلمة سخيفة.

أما الفندق المتداعي فلا يأتيه في العام ثلاثة سياح تقريباً، وما تبقى من العام يسكنه يوناني يحاول بيع تلك الصور المأخوذة، على نحو لا يصدق، لشابات يُعزف لهن من الجندولات، وأحياناً يبيع أشياء لا يعلمها إلا الله.

حسن. بعد قضاء وقت لا محدود هناك وجدتني أرجع على مهل إلى الشاطئ من الجهة الخارجية لمرفأي المغمور، حين حدث فجأة أن امتلأ قناعي بالماء ـ وهذا يحدث لنا نحن ذوي اللحى الطويلة، حيث لا يستطيع المرء أن يضغط بشكل كاف على شاربيه ليمنع دخول الماء. ولسبب ما ـ أنا الذي كنت في ماء عمقه حوالي تسع بوصات ركعت وخلعت القناع بحركة تدل على نفاد الصبر. في تلك اللحظة رأيت رجلاً ينحني ويعدل قناعه، ويرفعه إلى جبينه، ويصرخ صرخة عالية قائلاً:

---

(1) اليويو لعبة مؤلفة من قرص مزدوج محزوز مزود بسلك يشد إلى يد المرء بحيث يمكنه قذف القرص ثم إعادته وهكذا.

«مستحيل! بلى، إنه هو! ألست محظوظاً؟! إنك مطلوب وإنني أستحق مكافأة نيوزكرونيكل».

«ابتعد يا جوني، ابتعد، أنت مخطئ، ألا لعنة الله عليك!».

«أنا أعرف تلك اللحية ذات الشعب المتداخلة في كل مكان. لقد أصبح وجهك مكشوفاً يا عزيزي وعليك أن تلبس شعراً مستعاراً تصل إحدى خصله إلى أسفل وجهك. أستطيع أن أرى أنها بدأت تبرز».

جلست ممسكاً بقناعي وأنبوب صوتي، فقد كان ذلك يعني نهاية العطلة. ثم ضممت ركبتي إلى صدري ونظرت إليه بعبوس قائلاً: «هل هناك فائدة في أن أطلب منك أن تبقي فمك مغلقاً؟».

لف جوني جسمه الطويل داخل الماء ثم جلس قبالتي.

«حسن يا ويلف، ذلك يعتمد علي ـ أليس كذلك؟ الحقيقة، أنا منزعج كثيراً حول القضية بحيث لا أستطيع التفكير بشيء سواها. فأنا الذي تعوزني الحقيقة أتساءل ـ».

«نعم، نعم، الشيء ذاته كما في المرة السابقة».

«ويلف، علي أن أقول هذا اليوم عيد بالنسبة إلي».

«انتقل للموضوع».

«حسن، إن كانت لا تزعجك التشكرات، فماذا تفعل هنا؟».

«إن كان الأمر كذلك فماذا تفعل أنت؟».

«واحدة بواحدة، فأنا لن أخبرك إن لم تخبرني أنت، لكن، بجد، يا ويلف، عملك الأخير ذلك (خيول في الربيع)».

«لا أريد أن أسمع. ألا لعنة الله عليك! لماذا بحق الشيطان يمكن لشخص أن يسمع أخبار سوء حتى في صحراء خالية؟».

«لكنه مثير جداً يا عزيزي. اقتباس، إنه إنساني للغاية، انتهى الاقتباس. تانك الشخصيتان الفتيتان والعجوز اسبي ـ لا، لا يمكن أن يكون بأي شكل من الأشكال بعيداً في تكوينه عن خصائصك ومزاياك الحقيقية؟ وإلا كيف عرفت عنه ذلك القدر كله، يا ويلف؟ مع ذلك، أنت لم تفكر يوماً بأن تكون واحداً منا؟ مزيج أنت، بالطبع. انطوائي ويمكننا القول إنك في الأيام الأولى كنت تجريبياً على نحو أقل؟».

«لا أريد أن أسمع عن ذلك الكتاب اللعين».

اعتدل جوني ثم رقد على ظهره، وقال، وهو غير قادر على تجنب توجيه ضربة صغيرة.

«حسن يا ويلف، لا أظن أنك ستكون كذلك بعد قليل».

فأحسست بدافع لا يقاوم لأن أسأل «كم كان رديئاً إذن؟».

«أوه ويلف، من قال إنه رديئ؟ صدقني إنه عندما فاض النبع وأصبحوا على يقين من حبهم أحسست بالدموع تترقرق في عيني. أجل لقد ترقرقت دموعي».

ضحك ضحكة فاترة ثم بعد انتظار فترة قليلة وركوع على ركبتيه رأى جوني أنه يمكن أن يفوته شيء من المرح فقال صارخاً.

«بكل بساطة لا يمكنك أن ترحل يا ويلف! فأنت لا تستطيع الحصول على سيارة من المرفأ قبل يوم غد، فهذا اليوم هو يوم السبت، إضافة إلى أنه يوم القديس المحلي الذي ينبغي ألا يفوتك بأي حال! فصلاة الابتهال ستكون رائعة. ليباركنا الله وليباركهم وإلى جهنم، أيها الأتراك ـ أؤكد لك أن الصدى العام كان غير سيء البتة. بالطبع، نحن نعرف تلك المخلوقات التي تتقن مهنة الطعن بالسكين، أليس كذلك؟ ليليان والأخوان هنري. أحد الشباب هناك قال إنه معجب به جداً، وهو شيء لم يفكر في أن يقوله لك. هيا! لقد أضعت لك يومك، أليس كذلك؟».

«أمر سيء، لكن من تراه يكترث طالما أن النقود كانت جيدة؟».

«لست أنت يا عزيزي بالتأكيد، إذ حتى ليليان قالت إنك عندما حاولت أن تجعل الشخصية أكثر حرارة وجدت نفسك في مكان لا يبلل الماء فيه ظهر البطة؟».

«لقد تصيدت شيئاً أقوله، وأعتقد أنني كنت أحاول أن أكون أميناً».

«بعد كل شيء ـ لابد من أن تكتب كتباً رديئة إن أردت أن تكتب كتباً جيدة».

«ثابر على ذلك يا ويلف. إنه للوهلة الأولى، يبدو أشبه بترجمة ضعيفة عن الفرنسية، لكنك على الأقل، نلت استحسان فتى إيمي».

«أية إيمي؟».

«إيمي ابنتك من زوجتك ليز. كذلك، ذلك الشاب الذي تجولت معه فترة من الزمن، ذلك الأكاديمي الأمريكي».

«تكر! ألا يزال في أوروبا؟».

«لقد حصلت على تمديد له لفترة من الزمن، أسبوع على الأقل. إنه ضخم الجثة، أليس كذلك؟ هل تعتقد أن بالإمكان إقناعه بأن يكون قاسياً فظاً؟ حينذاك ستكون المشكلة مع هؤلاء الأمريكيين الكبار، فهم سيستمرون في رشِ واستعمال مزيلات الروائح اللاجنسية بشكل إيجابي خلافاً لصيادينا المحليين. هل جلست يوماً في الاتجاه الذي يأتيك منه ريحهم؟ إنه ليكفي لإيصال المرء للرعشة».

«ماذا كان يفعل مع إيمي؟ أعني ـ من أين حصل على نقوده؟ إنه متزوج من... لقد كانت عطلته التي يأخذها كل سبع سنوات قبل أربع سنوات فقط. ربما حصل على صفقة جيدة. يا عيني! يا عيني!».

«ألا تعرف؟».

«أعرف ماذا؟».

«تلك الفتاة الصغيرة الجميلة...».

«هيلين ـ أعني... ماري لو ـ».

«صحيح، آها! إذن من هنا ينبع ذلك الدفء الذي نلمسه في كتابك «خيول في الربيع». نعم، لدينا شيء، أليس كذلك؟ شيء بالغ الجور، حسن، لقد عادت إلى الولايات المتحدة. فقد كتب تكر الرسالة إلى أحد المحسنين وهو مليارديرٍ فحصلت على وظيفة سكرتيرة لديه أو باحثة أو شيء ما. شيء ما على ما أظن».

«هاليداي!».

«ذاك هو الاسم».

وعدت بخيالي إلى وايسولد، حيث كنت أجلس أمام ماري لو، الملهمة حقاً. لا، يا ويلف. السيد هاليداي مغرم جداً بالنساء.

بليونات، ترليونات. ماري لو مهتمة بعلم الفلك. كوادرليونات، نقود كافية لأن تبدأ صفقة كبيرة. إنه قادر على شراء ماري لو بماله، لا بأطراف باريس[1] الطرية ـ فتاة تلتقي بها متأخراً، فتاة تنساها تماماً، تلك القطعة منك انشطرت، عينة نادرة. إنه قادر على أن يشتري ويلف، يلاحقه حيثما يذهب ويرسل في طلبه. اهرب والبث في مكانك فإنه في النهاية سوف يتوصل إليك. بإمكانه أن يبقى ساكناً وينتظرك إلى أن

---

(1) باريس، عشيق هيلين الذي خطفها إلى طروادة وكان ذلك سبباً في إشعال حرب طروادة.

تصل. إنها الطهارة المعروضة للبيع، القداسة، الجمال الذي لا شبيه له، آه، كم أحزن عليها، فتلك الدائرة التي حاولت أن تكملها مع ريك لتجعله صلباً ماذا حل بها؟ فها هو الآن يبدو هشاً محطماً على نحو لا يمكن إصلاحه.

«ويلف؟».

«أنت تعرف، عندما تنفتح الدائرة ولا تعود المرأة تنظر إلى الداخل، حينها يمكن أن تنظر إلى الخارج، إلى شخص آخر وتغدو مختلفة تماماً ـ ربما شخص ساحر الحديث ليس ثقيل الجسم بل خفيفاً كالهواء، شخص بارع في المغازلة..».

«أتعرف؟ أنت في منجى!».

«هاليداي».

«علي أن أقول يا ويلف ـ الشمس قوية جداً، أليس كذلك؟ ربما...».

«ماذا تعرف عن هاليداي؟».

«لقد حان الوقت لأن نجلس تحت واقية».

«لعل ريك ترك له رسالة على أحد مكاتب المديرين الفخمة، والكثير منها يتعلق بتقدير الخدمات المكرسة منذ ذلك الحين فصاعداً للزوجة ماري لو تكر...».

«مليار واحد على ما أظن».

«هيا يا ويلف لا نستطيع أن نستغني عنك ـ أليس كذلك؟».

بهذا المبلغ من النقود يستطيع ريك أن يسخر المخابرات المركزية الأمريكية، والأمن الاتحادي، السكوتلانديار ودوائر الأمن الأخرى كلها لتتبع أثري. وهذا ما يبرر قلقي الذي ظهر في كثير من الأماكن، قلقي بالنسبة إلى جوازات السفر وما إلى ذلك.

«النطر بأجنحتنا الصغيرة يا ويلف، فهي موجودة، يا عزيزي».

«طر أنت يا جوني أيها اللوطي، إن كنت قادراً على ذلك».

«لا هذا شيء فظيع».

«إنني أعني ذلك».

«علي أن أقول لك يا ويلف أنه رغم حبي الشديد لك، فإنك تكيد لي. ترى لماذا يجب على المرء أن يتظاهر بعدم الاكتراث بالمجتمع في الوقت الذي يخشى حتى الموت من رأي نقدي...».

«حسناً، ألست أنت ذا رأي نقدي، وإن كنت كذلك، كيف تراك تتعجب؟».

«رجل متوحش».

كان من الواضح أن هاليداي أخطر من ريك، فهو، بالنتيجة، وبكل ما لديه من مصادر معلومات لم يكن مضطراً لأن يخمن. فقد كان بكل بساطة يعرف سيرة حياتي وكان بإمكانه أن يوصلها إلى مطبته تلك، ريك تكر.

«من يعرف سيرة حياتك؟».

كان جوني واقفاً على العتبة الأمامية للفندق. وكان قد كف عن سحبي من رسغي رغم أنه كان ما يزال ممسكاً به، محملقاً في وجهي إلا أنني نفضت يدي من يده قائلاً:

«أريد أن آخذ دوشاً».

«لم يأت الماء بعد كما تعلم».

«أريد أن أرقد».

فأومأ جوني برأسه بكل جد ورزانة.

«هذه هي التذكرة، الدورة الثانية للطبيعة العظيمة، راجع ماكبث».

«ها.... الخ....».

وكان جوني ما يزال يومئ برأسه عندما ابتعدت عنه.

لقد كنت متعباً من السباحة، كما كنت أعلم أن أي ملابس أرتديها ستكون لزجة من الملح والعرق، فجلست على حافة فراشي مصمماً على ألا أفعل شيئاً. وهكذا استلقيت دون حراك بل قلما كنت أتنفس أو أفكر أو أحس فقد كيفت نفسي مع حالة من العدم، حالة من الاسترخاء المتعمد كالبطليموس الذي يكون المد قد تركه خلفه. لكنني خرجت من هذه الحالة بطقطقة مكربة ـ طقطقة ربما كانت مسموعة ـ أشبه بارتفاع الستارة لإدخال ضوء النهار. كنت أتذكر بريسكوت، رغم أنني

لم أكن أعرف الرجل إلا من خلال رسائله والمخطوط الذي تركه ليعذبني به. فقد كان ذلك المخطوط سيئاً، سيئاً إلى حد يدعو لليأس، مع أنه كان يحوي أفكاراً جيدة وقد أخبرته بذلك لكنه استمر في تعذيبي سنين عدة بطلباته وأفكاره.

أخيراً كان علي أن أتجاهله، لكن الفكرة الرئيسية في روايتي الرابعة كانت هي الفكرة الجيدة الوحيدة التي يحويها مخطوط بريسكوت اللعين.

وبالطبع، كانت الفكرة قد عولجت بشكل لائق تماماً، لكن مع ذلك! أقسم إنني منذ كتابتي لرواية «السهل اللامحدود» وصاعداً لم أفكر ببريسكوت أو بمخطوطه أو بالمحاولة في أن يكون هناك ارتباط به وهو أمر مألوف بالنسبة إلى أي كاتب يريد أن يقدم شيئاً للجمهور.

ترى هل كنت قد تذكرت؟ هل كان ذلك كله من عمل اللاشعور الذي لم تكن ليز تعتقد أنني أعرفه، أم تراني سرقت الفكرة عامداً متعمداً عند نقطة من النقاط؟

على حد علمي لم يكن بريسكوت قد نجح في نشر المخطوط الذي أرسله لي مع أن له كتباً كافية تحمل اسمه ومن المحتمل أن يكون الآن مشهوراً مثلي. هل سيتذكر ذلك ثم يشير إليه في إحدى مقابلاته؟

وهكذا، حين تحول العصر إلى مساء أبرد قليلاً خيل إلي أنه ليس هناك تصرف سخيف أو مهين أو إجرامي تصرفته في حياتي ولم يعد كي يخزيني ويكويني.

أخيراً نزلت إلى الطابق السفلي، وبما أنه كان الفندق الوحيد في ذلك المكان فقد كان من المحتم أن يكون جوني بانتظاري، وهكذا بادرني قائلاً: «يالله! أنا أحتفظ بجرتي الخاصة في المشرب. إنه نبيذ يُشرَب، نبيذ المينوس هذا! لكن علي أن أقول، يا عزيزي، إن رحلاتك الشهيرة التي تقوم بها هي وحدها التي تحافظ على شكلك على نحو معقول رغم الطريقة التي تغتصب بها الزجاجة؟».

«شهيرة؟».

«أنت وامبروز بيرس. اقتباس، أين تراه ويلفرد باركلي الذي صدرت روايته الحديثة «خيول في الربيع»؟ انتهى الاقتباس».

«آه. أغلق فمك. ترى إن وصلت الأمور إلى هذا الحد، فما عساك تكتب أنت نفسك؟ كتاب مصور ضخم عن سكان قوس قزح؟ عن سابهو؟».

«تستخف بي؟ لدي، بالحقيقة كتاب جاهز الآن لكنني لم أقرر بعد هل أسميه «سيدات ليغوس أم سابهو المحترقة؟» والواقع، أود من كل قلبي لو أن أحداً كان قد حرق الفتاة القذرة فعلاً لكن لا شيء معروف عنها، لا شيء إطلاقاً. بالإضافة إلى ذلك، فإن القصة ذات طابع تاريخي وأنا لا أشعر أنني مبدع».

«هذا أحسن عمل لك حتى هذا التاريخ».

«أضحك أو لا تضحك، لكنني عندما ألتفت إليه أشعر وكأن نوبة غضب تتملكني!».

«أنت لست باحثاً كلاسيكياً».

«أنا باحث في شؤون الجنس، وأنت لن تصدق المعلومات التي استطعت جمعها من صديقاتي النساء، هذا إن تركنا جانباً أعمال التخمين. أنا أعلم أنك ستقسم أن لا تسرق الفكرة، لذلك أسألك: من أجل ماذا تظن أن سيدات العصر الحجري كن يستعملن تلك النقوش الأنيقة الصغيرة لأمنا الأرض؟ لقد حصلت على شيء من فقه اللغة وبإمكاني أن أدعي الآن أن كلمة «السبوس» مشتقة من كلمة «أولسبوس» وهي كلمة إغريقية قديمة تدل على ما تدعوه الإعلانات هذه الأيام بالمساعدة الجنسية. ترى كيف ترتب أمورك في تجولاتك يا ويلف؟ ألا تزال متخذاً موقف المبشر؟».

«وكيف أنت؟».

«المرء لا يطلب شيئاً مستديماً».

ثم لاذ بالصمت فوجدتني، خلال ذلك الصمت، أنجرف في تأمل موحش لم أتنبه منه إلا على كلام جوني.

«لماذا أنت سئم من هذا كله؟».

كانت قد عادت إليه حماسته مرة ثانية، ومرة ثانية راح يتفحص مختلف المناطق المرئية من وجهي باحثاً عن معلومات، فخطر ببالي أن خطوته التالية هي أن يخبر ربك عن

مكـان وجـودي. بعـد ذلـك يمكـن أن يبيـع المعلومـات إلى الصحافة أو إلى أي وسيلة من وسائل الإعلام اللعينة.

«أين هو الآن؟».

«من هو يا ويلف؟».

«ألست محظوظاً؟ تكشف كل ما لديك! وأسفاه! ما من أحد عـرض علـي أن يكتـب سـيرتي بـل علـي أن أفعـل ذلـك بنفسي، تلك المهمة الصعبة، ذلك النوع مـن الاسـتمناء الأدبي الذي يتعين عليك فيه أن تقول ما ـ».

«في حالتي...».

«نعم، نعم، أعلم أنك ستزعم أنك بـلا أيـة ميـول مثليـة شأنك شأن ذلك الشاب السخيف كيتس أتذكره؟ أظن أن ذلـك في ليا، عزيزي، عزيزي ويلف! يجب أن تأخـذها لتـصدر بهـا أعمالك الكاملة. دعني أر ـ نعم عن عذوبة الجنيـات، الحـور، الإلهات، ليقل الشعراء المجانين ما يحلو لهم لكن لـيس بينـهن جميعاً من ساكنات الكهوف، البحيرات، الـشلالات، مثلـك، أيتها المرأة الحقيقية!».

يا له من اقتباس مبتـذل! فـالمرء يـستطيع أن يـرى لمـاذا سميت تلك المدرسة بمدرسة كوكني. كانت جرتي قـد جـاءت فبـدأت أشـرب، وكانـت تلـك الـذكريات مثـل ديـدان تنـهش لحمي. ريك يطـاردني، الديـدان تنـهش، وهاليـداي العمـلاق يخطط لهذا كله، فكرت في سري أن التـوتر يـزداد في داخلـي

لأنني توقفت عن الكتابة، لكن المشكلة هي أن رأسي كان خالياً من كل شيء ما عدا تلك الأفكار التي أطلقها جوني سيت جون جون الذي كان مستمراً في الكلام سواء أصغيت أم لم أصغ.

«حذار الدودة».

وتنبهت بإجفالة مرعبة. هو الذي قالها لا أنا! وبالطبع، تبين لي حينذاك أنني وأنا أفكر صامتاً تفوهت بشيء ما عن الدودة، لكن في حينه بدا ذلك مرعباً وكأنه تحضير أرواح، إذ بدا لي أن كل من في العالم سواي باستطاعته أن يرى، لو أن لديه طريقة من طرق الوصول، وأنا المنطوي على نفسي، الجاهل، المحاط بجلدي، أنا وحدي من لا يملك أية هوائيات كتلك التي يملكونها ويمدونها لتلمس قرارة نفسي.

«أية دودة؟».

«تلك التي تطير في الليل، في العاصفة الهادرة... ألم يكن بريتين ذكياً على نحو رائع؟ إنني أحسد الموسيقيين، ترى ألا تحسدهم أنت؟ فهم كالرياضيين ليسوا مضطرين لأن تكون لهم أية علاقة بالسياسة وما شابه، بل يحلقون عالياً مع السحاب».

«أي دودة؟».

«يا ولدي العزيز، الديدان تأكلك حياً، هل أعطيك تشخيصاً كاملاً؟».

«لا».

«أنت ترى أنك أشبه بذلك النوع من الحيوانات التي يسميها علماء الحياة عادة ذات التعظم الخارجي بينما معظم الناس من ذوي التعظم الداخلي، أي عظامهم في الداخل. فأنت يا عزيزي، ولأسباب لا يعرفها إلا الله، كما يقولون عن الأجسام المجهولة الهوية، أمضيت وقتك في اختراع درع عظمي على ظهرك، مثل السرطان أو البزاق. وهذا مرعب كما ترى، ذلك أن الديدان تدخل إلى الداخل، آه، يا عمتي جيميما! لقد احتلت المكان، أخذته لنفسها. لهذا، نصيحتي إليك أن تقبل ما أقوله وتتخلص من درعك، من هيكلك الخارجي، من قشرتك الصلبة قبل أن يفوت الأوان».

«أهناك اقتراحات؟».

«يمكنك أن تجرب ـ دعني أر ـ الدين، الجنس، التبني، أعمال الخير، لكنني أظن أن الجنس هو الأفضل في مثل هذه الظروف. فبعد كل شيء، حتى الحلزونات تتجمع معاً، مع أنني أعترف بأنني لا أعلم كيف تفعل ذلك تماماً. ربما هو الجماع الناقص ذاك الذي يسمح فيه للذكر بالاستمرار دون أن يتفجر، شريطة أن يكون تحت الماء».

«السلمون وما شابه ذلك».

«تماماً هكذا. أنت قرأت، ولا شك، تلك القصيدة الصغيرة التي كتبتها «مجلة الآداب» الإنسان سمكة مضحكة، مجرد سمكة، لكنها سمكة عجيبة، سمكة مقدسة، سمينة متميزة للغاية حيث ينسكب منيّها إلى آخره، شعر جيد أليس كذلك؟».

«لا».

«اللعنة عليك، أنت غبي طبعاً، وليس لديك إذن موسيقية، هذا ما كنت أفكر فيه دائماً».

«أنا متعب».

«كما كنت أقول أنت بحاجة إلى رفيق. أنت ترى، يا عزيزي، أنني أعرف شيئاً أو شيئين وأنت تعتقد أنني شيخ عجوز. غريب الأطوار، وأنا كذلك بالطبع، إضافة إلى أشياء أخرى. إذ لا أظن أنني سأجرب حساء الحلزون، فسيكون فيه مخاط ثانية. أليس الطعام اليوناني مقرفاً تماماً؟ آه، لولا سابهو اللعينة ـ لكن أنت على الأقل، بحاجة إلى امرأة، أم أنك من النوع الذي يكتشف نفسه في وقت متأخر من الحياة ويبحر نحو رفيقة شابة لطيفة؟».

«آه، بالله عليك. أغلق فمك!».

«كل ما كان ينبغي أن يخرج منك ذهب هباء. نعم، يا عزيزي، خرج منك في المعركة، في النضال، نعم، أنت بحاجة إلى امرأة».

«هل هناك واحدة في ذهنك؟».

«هناك المريضة... الخ».

«راجع ماكبيث».

«هل تعلم ما قاله أبولو؟ حسناً، طبعاً تعلم. اعرف نفسك فربما أمضيت هذه السنين كلها دون أن تعرف نفسك إطلاقاً. إنك بحاجة إلى رفيق، فابدأ من القاع، ابدأ بكلب».

«أنا لا أحب الكلاب».

«الديدان تحت درع المحارة ليست مجرد سادية إنسانية، كما ترى، إنه الشعر الفني الخالص ووحده من يكون فوق، يمكن أن يكون مبدعاً على ذلك النحو».

«أنا متعب من الكلام عن هاليداي. أعني ـ».

«آه، حسناً، كنت دائماً كاتب نثر... أليس كذلك؟».

«بالسليقة».

«وأين ذهبت سليقتك المشهورة تلك، إن سمحت لي أن أسألك؟».

«أنا عجوز، وأنا أولي أسرع فأسرع».

«إلى أين؟».

وكان لابد من أن أصرخ على ما أعتقد.

«حيث يولي الجميع أيها الأحمق!».

أعتقد أن باستطاعتي أن أتذكر ما قاله بعد ذلك كلمة كلمة، إذ توجد في ذهني صورة واضحة جداً عن وجهه وهو يقترب مني عبر طاولة العشاء الصغيرة، يقترب، يقترب إلى درجة استطعت معها أن أرى أنه كان قد خطط حاجبيه بقلم الرصاص.

«ويلف، يا عزيزي، مرة أخرى، ورداً للدين، أقول لـك استشر قسيساً أو ابتعد. وإن لم تفعل ذلك، فعلـى الأقـل ابتعـد عن الأطباء الذين يعملـون بالرتـل وإلا سيـسوقونك إلى مـصح للأمراض العقلية قبل أن تستطيع القول وداعاً».

* * *

الفصل الحادي عشر

ليست هذه قصة حياة، بل أنا لا أعرف ما هي تماماً فهناك فجوات هائلة لا أتذكر ماذا حدث فيها وفجوات أخرى أتذكر أنه لم يحدث فيها شيء.

لكن إن لم يكن ذلك كله سيئاً تماماً، كمحاولة للحصول على نوع من التناسق في هذه المجموعة من الأوراق، فإن الفترة التي تلت لسفوس وجوني فترة مشوشة لم يبق في ذهني عنها سوى النتف وذلك بسبب الحالة التي كنت فيها. أتذكر أنني في الليلة نفسها وبعد أن قام جوني بذلك ا لتشخيص المضحك، قررت أنه ينبغي أن أبتعد مهما كلف الأمر، لكن بدلاً من ذلك صرت أتخبط كالأبله في ضباب «مينوس» من يوم إلى آخر ولا أرى إلا قليلاً صديقي جوني، ذاك الذي لم يكن الإفراط في الشرب يعد ضمن رذائله الكثيرة. أخيراً دبرت أمر انتقالي إلى المطار ثم طرت (معطياً عنواني القادم: رندربست، بلوم فونتاين ـ جنوب إفريقيا). وإني لأشكر الله على الطائرات! إنها تستطيع أن تغير المنظر كله أمامك خلال جزء ضئيل من الوقت كما يتغير يوم ينفخ في الصور. في الطائرة أذكر أنني جلست بجانب أحد الشبان، شاب كندي على ما أظن، ورحت أهذي حول روعة الطيران لأنك إن طرت ما فيه الكفاية ستتحطم ذات يوم ولابد. وإذا ما تحطمت في طائرة نفاثة فإن الموت سيكون فورياً وذلك أكثر مما يحلم

بـه الإنـسان، (يوليـوس قيـصر) راجـع المـسرحية. لكـن ذاكـ الكندي كان من النوع الذي يدعوه جوني بالجبـان، فلـم يحـب أن يذكره أحد بأننا معلقون نتيجة تطبيق مجنون لقوانين الطـيران فوق مساحات هائلة من الميـاه العميقـة القـذرة، فـذهب وغيّـر مقعده. حسن، كنت أعلم أن أثينا ستكون محشوة بالنـاس مـن بريطانيا العظمى أو الولايات المتحـدة. لـذلك وبكـل بـساطة، غيرت طـائرتي ثم طـرت إلى جنـوب إفريقيـا ناسـياً أن جنـوب إفريقيا هي التي سجلتها كعنوان قادم لي. تذكرت ذلك وأنـا في الطريق إلى هناك فصممت أن أعود على الطائرة نفسها. لكنني ـ وهنا تبدأ نتـف الـذكريات تتـضح ـ نزلـت في بيـت للتمـريض بطريقـة مـن الطـرق. إذ كانـت تنتظـرني مواجهـة واضـحة مـع الديدان الحارة الحمراء تحت قوقعتي وكانت ثمـة طبيبـة لطيفـة ستخرجها لي من خلال مختلف الشقوق التي أرتـني إياهـا بـأن عرضت علي سرطاناً حياً من سوق الـسمك. بعدئـذ بـت أفكـر أحياناً بأن ذلك مجرد حلـم. طبعـاً، كانـت الطبيبـة قـد تركـت الحرارة في داخلـي، لكـنني ظننـت أن باسـتطاعتي أن أتحمـل ذلك. كما شعرت أن مناخاً ألطف قد يجعـل الحـرارة محتملـة. وهكذا رحت أغيّر، وبتغيير وجهتي من مكان إلى آخر كنت أمر ببعض الأقطار التي لم أكن قد قصدتها من قبـل. كـذلك طـرت إلى روما (واضعاً عنواني القادم: شانغرى لا، كاتمندو ـ نيبـال) لكن ما كدنا ننزل حتى تذكرت ريك في سـاحة نافونـا، لـذلك عدت أدراجي على جناح السرعة آخذاً طيـارة محليـة ثم سـيارة أجرة في النهاية. وقد سقتها ببطء إذ لم أكن قد عـودت قبـضتي كثيراً على القيادة بالسرعة المتوقعة.

الآن علي أن أخبركم عن تلك الجزيرة رغم أنني لا أرغب في ذلك، فهي ما تزال تسبب لي رعشة لكن علي أن أحكي عن الجزيرة لأنها النصف الأول من رحلتي، أما النصف الآخر فسوف أذكره فيما بعد. والحقيقة، علي كي أفعل ذلك أن أشد أعصابي لبعض الوقت كما أنني لا أستطيع أن أفعل وأنا صاح. آه. أنا أعلم أنني سأنزل في الصباح إلى المطبخ كي أعد الزجاجات الفارغة دون أن تكون هناك ليز، تنزلق خلفي كشبح شرير ذائع الصيت، ولا ريك ينقب في صندوق القمامة. ربما كان الرجل يتجول في الخارج ليراقبني، وبما أن ليز كانت قد قطعت شجرات السنديان فقد كان باستطاعتي أن أنظر عبر المرج من مكان جلوسي إلى الدغل الواقع على الجانب الآخر من النهر، أو أود أن أفعل ذلك لو استطعت لكنني لم أكن قادراً على فعله إذ كانت الساعة الثالثة من صباح ذات يوم، وكان ذلك هو المكان الذي تأتي منه حيوانات الغرير لتضايقني أنا وريك أيضاً.

حسن. أخذت معدية ونزلت إلى المدينة حيث أطلقوا النار بلا وعي على رئيس الشرطة في الشارع الرئيسي أمام ناظري. لقد كانت المافيا وأعتقد أن هاليداي كان يستخدمها. لذلك أخذت معدية أخرى دون أن أقصد العودة من حيث أتيت ورحت أندفع إلى الأمام ودوماً إلى الأمام ثم وجدت نفسي ومعي سيارة على رصيف في شارع أضيق من أن أسوق فيه. لم أكن أحب النظر إلى كتل الأبنية المتجمعة ولا إلى الزريبة والمشرب والفندق الذي يشبه الدكان والذي كان يدعى

فندق مارينا، فانطلقت سيراً على الأقدام إلى قلب المدينة لأجد فندقاً أكبر وأفضل فيه مشرب محترم بدلاً من لوح الخشب ذاك المرفوع على دعامتين قذرتين قديمتين. وصلت إلى بوابة، فتحتها ومشيت نحو بعض البيوت التي بدت توحي إلي وكأنها تخفي وراءها واحدة من تلك الفيلات الإيطالية التي تتحول دائماً إلى فنادق. كان علي أن ألاحظ أن تلك البيوت ليس لها نوافذ، لكن يالي من أحمق! حسن، وصلت إلى ما يشبه ممراً طويلاً. مشيت فيه، وبالطبع رأيت أنه كان هناك جثث قديمة أُلبست كامل ثيابها وأسندت إلى الحائط إذ لم يكن بإمكانها الوقوف دون ذلك. وعندما خرجت من هناك كنت أرتجف. لكن الشيء الغريب فيما يتعلق بذلك الارتجاف أنه حين كان ينبغي أن يتوقف، لأنني لم أعد خائفاً أكثر من المعتاد، فقد استمر. وهكذا وقفت بين تلك البيوت عديمة النوافذ ثم صرخت بهم.

«الأرض تهتز».

ولقد كانت كذلك. فإخبار الأحياء أو الأموات عن الاهتزازات في تلك الجزيرة كان أشبه بأن تأخذ فحماً إلى نيوكاسل، إذ لا أحد يهتم. حسن. أخيراً وجدت فندقاً ذا نوافذ ليس فيه جثث ظاهرة للعيان ما عدا الساقي الذي لم يكن قد استخدمه أحد منذ سنين. أحضروا لي حقيبتي من السيارة وسهرت طول الليل على حافة فراشي انتظر توقف الارتجاف، لكنه لم يتوقف. لابد أن أكون قد نمت، لكن الشيء الذي

حدث هو أنني إما أن أكون قد اخترعت اللاوعي أو أنه كان موجوداً لدي رغم كل ما كانت ليز تقوله عني فقد حلمت، والله يعلم كيف حلمت! في الصباح تناولت إفطاري ولابد، إذ أتذكر أنني رحت أتجول في الجزيرة فوجدت أنها مؤلفة من مسحوق الزجاج البركاني الناعم تبرز منه كالسكاكين قطع من الزجاج الأسود تشبه مجموعة من المسلات. إنه مكان ممتع للناس العاديين، لكنه ليس لك إن كنت مشدوداً بمفصلة. ترى هل كانت المفصلة هناك؟ أجل، بالطبع كانت هناك نظراً لما حدث فيما بعد. في لحظة من اللحظات قررت أن أحتسي القهوة والقهوة فقط. وقد أمضيت الصباح وأنا أشرب إلى درجة استهلكت سطلاً منها. ولكي أبقى صاحياً قررت أن أذهب في نزهة متجنباً وسط المدينة، الوسط الميت، ها...الخ عادات الدفن الصقلية.

وهكذا خرجت متمسكاً بالجدران بحذر، كان ثمة تل كبير فبدأت أسير نحوه. نعم أنا أعلم تماماً أن ذلك يبدو نوعاً من الجنون وقد كان الواقع كذلك. بدأت أقترب منه وكأنني رجل عجوز، أعني مثل رجل في سني حسب ما قالت ماري لو ـ لماذا، هو ليس أكبر منك سناً! يا لها من كاذبة تلك الفتاة! لقد خدعت بها، إنه أكبر سناً من الكنيسة التي يبول فيها. كانت الشوارع قذرة نوعاً ما حتى بالنسبة لمنطقة كتلك المنطقة وسرعان ما رأيت ـ أن البناء الذي بان في القمة كان كنيسة بل ربما كاتدرائية. ولما كنت أشعر بالحرارة الشديدة في جوفي

فقد ظننت أنني أستطيع تبريدها بكأس رغم أن الفرصة للحصول على شيء آخر غير تلك المادة الفظيعة التي قدمتها المافيا في حوالي عام /1900/ كانت ضئيلة للغاية. بعد فترة اضطررت لأن أتوقف وأنا ألهث، لكن بغض النظر عن طول الفترة الزمنية لتوقفي وانتظاري ظللت أشعر بالحرارة داخلي وخارجي فقد كان النهار شديد الحر، كذلك لم يكن النهار عادياً بل نهار متوهج، ليس عبارة عن ضوء شمس على الإطلاق بل هو جو فيه مصدر توهج. فكرت في البداية أن ذلك قد يكون بسبب المشروب، لكن أدركت بعدئذ أن علتي ليست في الشرب وسوء حالتي ليس مرده الشراب بل هو شيء آخر ـ أنني موضع مطاردة، أعني، موضع تجسس وأن عدم وضعي نهاية لتلك المسألة يخل توازني وأحكامي بعض الشيء، أما بالنسبة إلى المشروب فلم أكن أشعر بأي أثر من الآثار التي يتركها خلفه وكانت علامة سيئة، بل حتى دائرة البحر المحيطة بالجزيرة، كان منظرها غريباً، نحاسياً. كان أحد سكان الجزيرة يهبط التل فمر بي وهو يرسم شارة الصليب كما تفعل دمية آلية. بعدئذ رأيت ما كان في الأعلى، ولماذا كانت الجزيرة تهتز، فعند نقطة ما في الأفق، لا يعلم إلا الله أين كان اتجاهها، كانت هناك سحابة من الدخان الأسود أشبه بسحابة ناتجة عن انفجار ميغاطن.

بإمكانك أن تقول ما تشاء، لكن اهتزاز الأرض أسوأ ولا شك من الارتجاف، فهو يقضي على آخر ذرة من شعورك

بالأمان، أعني إحساسك بأن قدميك ستجدان في نهاية المطاف شيئاً صلباً تقفان عليه. لكن الأرض وهي تهتز تجعلك تشعر بأنها جزء من كرة مجنونة طائرة في الفضاء، كرة هائلة الضخامة على وشك السقوط. لا، تجعلك تشعر بثوران شيء يتجاوز كل حد. لكن، إن كنت تبحث هنا عن وصف للمخاوف التي يسببها ثوران بركاني أو زلزال فإنك لن تجده. إذ، كما أرى الآن، بت أبعد بكثير من أن أفعل شيئاً سوى أن أرى الشيء كله وكأنه إهانة شخصية أو ضريبة. على أي حال، كانت الاهتزازات، أعني اهتزازات الأرض، قد تلاشت حين خرجت من ذلك المكان إلى أعلى التل وبالطبع لم أكن حينذاك أكترث إن كانت الجزيرة، بكل ما فيها من قطع زجاجية حادة كالسكاكين، قد غاصت في البحر أم لا.

كان هناك مدرج واسع يصعد إلى الأعلى، ليس واسعاً بالمدى وحسب ـ إذ كانت الدرجات تبدو وكأنها تبلغ السماء ـ بل واسع أيضاً بالعرض كأنما الدرجات مخصصة لسير الحمير. كان بإمكان سرية عسكرية أن تسير عليها، بالنسق. كما كانت الدرجات مناسبة، منخفضة، قليلة الارتفاع، عريضة، واسعة أو بالمصطلح المعماري، يمكنك القول إنها كانت عميقة.

وهكذا صعدت، والأخ الحمار يحتج فتلك الدرجات كلها إنما صنعت خصيصاً لراحته، إلى أن وصلت الفسحة المنبسطة أمام الباب الرئيسي للبناية الضخمة. كان ذلك هو

الباب الغربي ومن المحتمل أن أفترض أن ما حدث بعد ذلك لا يمكن أن يحدث في أي مكان آخر، لكن من يدري؟ لقد كانت هناك سيدة عجوز جالسة خارج باب يتوسط أبواباً ثلاثة على كيس من القش وهي تغزل خيطاً رفيعاً. لا، لم تكن المرأة راهبة بل عجوز وضعت هناك كي تتأكد من أن السياح الذين يزورون ذلك المكان كل عشر سنوات تقريباً لا يحملون معهم آلات تصوير، لماذا؟ لأنهم لا يحبون التقاط الصور، وهم على حق كما أن عملهم مناسب تماماً. كان ذلك نوعاً من التغيير إذ وجدت أناساً يعرفون كما أعرف أن التقاط الصورة يأخذ شيئاً منك. لذلك تكلمت معها بلغتي الإيطالية المكسرة مؤكداً لها أنني لست من ذلك النوعِ من الناس الذين يحملون آلة تصوير معهم. لكن كان واضحاً أنها لم تفهمني. إذ لم تنطق بشيء سوى ما يمكن أن يتكلموه في الجزيرة. مع ذلك، ولكي أظهر أنني راغب في الكلام فقد أشرت إلى سحابة الدخان التي في الأفق ورفعت حاجبي، عندها شرعت ترسم شارة الصليب على صدرها قاطعة بذلك إيقاع الغزل ثم قالت «بركان!». كانت المرأة تعرف تلك الكلمة تماماً، فاطمأننت، إذ أن تلك السحابة لم تكن قنبلة على الأقل. قلت لنفسي بعد أن قادتني المرأة إلى الداخل، ها قد وصلت مكاناً جميلاً، يا ويلف ستكون بعيداً عن طرق السيارات إلى أن تعود المعدية وتصيبك لعنة ريك وهاليداي وعصابتهم المافيا. دخلت. كان المكان مظلماً، مظلماً جداً حتى بالنسبة لكنيسة.

عند ذاك أدركت أنني ما أزال لابساً نظارتي الشمسية

الكبيرة الحجم ثم استنتجت أنني لم أخلعها منذ بضعة أيام حتى عندما كنت أجلس على حافة السرير أو ربما وأنا أحلم. والغريب أنني وأنا واقف داخل ما يشبه مقصورة خشبية تمهيدية تقع بين الباب الداخلي والباب الخارجي فكرت أن ذلك يعني أنني لم أغفل منذ بعض الوقت لذلك خلعتها ثم اندفعت فاتحاً الباب الداخلي منزلقاً عبره.

كان المكان كاتدرائية فعلاً إذ كان باستطاعتي أن أرى عرش الأسقف فيها. بعدئذ تقدمت إلى الأمام خطوة أو خطوتين ثم تطلعت حولي فرأيت في الحال أن الزجاج لا يستحق نظرة أخرى. تقدمت إلى الأمام مسافة قليلة أخرى فلاحظت أن السقف أفضل ما في الكاتدرائية. إذ كانت الأجزاء المثلثية مليئة بالموزاييك القديم تماماً، والموزاييك كالزجاج كلما كان أقدم كان أحسن. سرت إلى الأمام خطوة أو خطوتين ظاناً أن باستطاعتي أن أجتاز الجزء الفاصل بسرعة ثم أركز ناظري على الأجزاء الجيدة، وفي تلك اللحظة سقطت قطعة من الموزاييك عند قدمي محدثة اهتزازاً.

حين سقطت تلك القطعة القذرة من الحجر الأزرق على بعد متر واحد أمامي، كنت أقف على قدمي اليمنى وكنت على وشك أن أنزل اليسرى، لكنني أبقيتها في الهواء ثم نظرت إلى الحجر. كان حجمه لا يزيد عن نصف بوصة مربعة، وقد رقد تماماً أمامي فأنزلت قدمي اليسرى ثم توقفت. الجبال تقذفني بقنابل مدفعية، والكنائس ترميني بالحجارة. حسن، فكرت وأنا

أتذكر ما كان قد حدث لأنني لم أعر انتباهاً لتحذير الجبل، بأن على المرء أن يسير بحرص هنا. فأنت لا تريد أن تسقط عن الحافة. بل الأكثر من ذلك، كان ثمة شيء ما يتعلق بتلك الكاتدرائية. إنه الجو، فقد رأيت بعد أن رفعت النظارات الشمسية، أن المكان ما يزال أشد ظلمة مما ينبغي أن يكون، كما رأيت الشمس نحاسية في الخارج ومعظم النوافذ بسيطة تماماً. إنه ما يمكنك أن تسميه بالغياب الكامل ليسوع الرحيم اللطيف. لم أحب المكان ففكرت في أن أغادره لكنني عرفت أنني لو فعلت ذلك فسوف أجد نفسي فترة طويلة من الزمن وأنا غير قادر على نسيانه، لهذا تابعت.

كم من الزمن دام ذلك؟ لا أدري، فقد جلست على قاعدة عامود لحظة من الزمن وكان الجو حاراً في الداخل بالمقارنة مع البرودة التي تكون عليها الكنائس. كنت أشعر بضيق داخل صدري وكأنني مرفوع إلى الأعلى على أطراف أصابعي، الأمر الذي جعل جلوسي أمراً لا قيمة له البتة، فتابعت التقدم رغم قطعة الموزاييك التي سقطت أمامي. وصلت إلى الجناح الشمالي فواجهتني الكاتدرائية هناك بكل اتساعها وهناك كان تمثال فضي للمسيح لكن بشكل من الأشكال بدت الفضة كالفولاذ، بتلك المسحة المخيفة من اللون الأزرق. كان التمثال أطول مني قامة عريض الكتفين، منفرج الساقين مائلاً إلى الأمام كتمثال يوناني قديم. كذلك كان على رأسه تاج، وكانت عيناه من الياقوت أو العقيق الأحمر أو من الزجاج البسيط الأحمر الذي ـ كان يشع

كالحرارة التي في صدري. ربما كان هو المسيح، وربما كانوا قد توارثوه أباً عن جد في تلك الأنحاء ثم اكتفوا بتغيير الاسم. لعله كان بلوتو، إله العالم السفلي ـ هيديز ـ وهو يخطو خطاً واسعة إلى الأمام. وقفت هناك فاغر الفم مرتجف الجسم. فقد عرفت في لحظة مدمرة أنني طيلة حياتي، كإنسان راشد، كنت أؤمن بالإله وأن تلك المعرفة هي رؤيا إلهية تجلت أمام عيني فتغلغل الرعب حتى نخاع عظمي، إذ شعرت أنني مطوق، غارق، محاصر، على وشك الدمار، منجرف إلى عدم التحمل الشامل، فاغر الفم، صارخ، مرذول، مصعوق. لقد عرفت خالقي فهويت أرضاً.

أعتقد أن المرأة البدينة التي كانت تغزل قرب الباب الخارجي هي التي وجدتني. ربما لم تسمع صراخي وهي في ذلك المكان، بل ربما لم تكن تصغي إذ كانت أذناها تصيخان السمع لذلك الهدير الجوفي الخارج من الجزيرة الأخرى. لكن ربما جاءها وقت قامت فيه بإحدى جولاتها في المكان، تتفقد إن كنت لم أهرب بأحد أطباق الكنيسة، فوجدتني. أدركت أنني في المستشفى ولم يكن علي أن أبدأ التذكر، فقد كانت ذاكرتي حاضرة. كنت راقداً تراقبني راهبة وهي تلعب بمسبحتها بالطريقة نفسها التي كانت تغزل بها السيدة العجوز. أنا لا أدري إن كان الأمر عادياً أن تراقبك راهبة. ربما الأمر كذلك إذ أنني سقطت في كاتدرائية فاعتقدوا أنهم يتحملون مسؤولية خاصة تجاهي أو شيئاً من هذا القبيل، أنا لا أدري ما جرى تماماً ولم يكن ذلك بالمهم كما لا أظن أن المستشفى كان جيداً جداً.

هناك رقدت ـ أوه! رقدت لمدة طويلة طويلة كما رأيت أشياء كثيرة بوضوح تام كما لو أن ضوء اليوم السابق، إن كان هناك يوم سابق، كان قد ملأني بتوهج رهيب. لم أستطع أن أفكر بشيء أو أرى شيئاً إلا الحقيقة. لقد رأيت أنني، منذ البداية، كنت موضع تخطيط، وأن لي مكاني بين الأشياء وأنه بغض النظر عما فعلته أو ما سأفعله فقد خلقت نتيجة عدم التحمل المخيف ذاك، وعلى صورته. من المحتمل أن تدرك عما أتحدث مع أنه خير لك أن تفعل ذلك. لقد رأيت أنني واحد أو ربما الوحيد من المكتوب عليهم أن يكونوا ملعونين. رأيت هذا بحرارة وبشكل واضح ففي جهنم لا توجد أجفان.

جاء قسيس وتمتم فضحكت، الأمر الذي أزعجه وجعل الراهبة ترسم شارة الصليب كما لو أنها مدفوعة بقوة بخارية. النكتة التي رأيتها بوضوح هي أن القسيس لم يكن قسيساً إطلاقاً ذلك أن جميع قساوسة عدم التحمل الحقيقيين كانوا قد ماتوا منذ آلاف السنين، كما رأيت أنه كان أشبه بمن يمثل دوراً في مسرح. بعدئذ غادر، ربما ليزيل طلاء وجهه! بعد القسيس جاء الطبيب. وكان أحسن قليلاً، إذ أمسك بكلتا يدي ثم عصرهما هازاً رأسه. ففهمت أنه يريد مني أن أعصرهما ثانية ففعلت. ثم تفحصني وقال كلمة وهو عابس. ولما رأى أنني لم أستطع فهمها قال كلمة أخرى.

مريض، مريض؟

أنا مريض جداً! ها... الخ... ظننت أنني عرفت قصده فحاولت أن أتكلم. ما نوع مرضي!. لكنني لم أستطع النطق، فقد كان لساني معقوداً لكنه ابتسم ابتسامة عريضة هازاً رأسه، مربتاً ثم ذهب. وعندما عاد في المساء قال لي كلمات جديدة.

«أنت مصاب بصدمة خفيفة» الأمر الذي جعلني أضحك ثانية وأنا أفكر بمدرس الحنطة. غير أن الطبيب واصل هز رأسه والابتسام مختبراً انعكاسات ذلك علي، فكانت نتيجة تلك الاختبارات إقناعي بأنها صدمة خفيفة مع أنه كان بإمكاني أن أقول له إن المدمنين مثلي لا يصابون بصدمات فهم يتعرضون إلى مخاوف من نوع آخر. فهم بين الحين والآخر يصادفون جمالاً باهراً، جائزة أولى، شيئاً لعيناً مقدراً عليهم أن يصادفوه، عدالة إلهية بلا رحمة، وكان شعاري الآخر:

«في الخمرة اللذة».

تذكري لهذا كله ظل يلهبني. وحتى الساعة الثالثة صباحاً كنت ما أزال أفكر متأملاً، رزيناً كحجر بارد، أعني متأملاً بالمعنى التقني، متأملاً الواقع الشامل. هم يقولون بعض الصدمات ـ حسن، ليس هناك (يقولون) فأنا أعرف من التجربة أن بعض الصدمات الخفيفة تجعلك تتكلم كلمة عندما تعني أخرى. هم يقولون أيضاً إنه لا يوجد تناسق ولا انسجام في العلاقة بين كلمتين، ولا رابطة إلا رابطة الدماغ الجسدي، لكنني أنا ويلفريد باركلي المستشار العظيم أعرف أكثر. فهناك كل الروابط ومن المحتمل كثيراً أن تقول كلمة وأنت تعني

أخرى ناهيك عن حقيقة التعصب الفولاذي القاسي، ذاك الذي جعلني أعرف أنها ليست صدمة خفيفة إطلاقاً أو إن كانت، فإن الحادث لم يكن أكثر من عرضي.

ماذا يهم؟ كنت أرقد في ذلك الفراش القاسي دون أن تراقبني راهبة، مهملاً تماماً، مسموحاً لي أن أتأمل طبيعة الحشرات المقدر مصيرها سلفاً، أو الأسواق التي ترتقي إليها صعداً، أو المحار والسرطانات والشبان النكدين، باحثاً عن لحظة إرادة أساسية، إرادتنا أعني، دون أن أجدها، مدركاً أننا ـ وأعيد ذلك ـ لم نخترع أنفسنا. وأنه، في هذا المأزق الأبدي، ليس ما تفعله هو المهم، بل المهم هو ماهيتنا نحن، وماهيتنا ليست ملك أيدينا.

كنت راقداً، أقول ذلك بوقاحة الملعون الذي ليس لديه شيء يفقده، لذلك ليس مضطراً لأن يعلل نفسه بمحاولة غير مجدية للتأثير بالتعصب الإلهي، بعالم الأموات الفولاذي، والتقدم إلى الأمام. أقول كنت راقداً هناك، أما النقلة نفسها التي نتجت عن (الصدمة الخفيفة) فقد كانت اللغة، لغتي الطبيعية التي اتخذت وبصورة عفوية تماماً شكل الترانيم أو الترانيم المضادة إن أحببت، شكل التجديف الطبيعي الذي تتخذه حالتنا. لماذا هذه جهنم وأنا لست خارجها (راجع مارلو) إنها أشبه بالمحاولة العفوية التي يضع بواسطتها نوع معين من الزنابير بيوضه لتصبح يرقات وهذا كله يجعلك تحس كل الإحساس بأنك لا تتوقع شيئاً آخر. يا لها من سخرية لابد أن

تبدو معقولة جداً، حكيمة جداً! ذلك أنني خلال ذلـك الوقـت كنت أبدو، ولابد، مجنوناً تماماً أتمـتم لنفـسي بلغـة لم تكـن حتى لغة إنكليزية، بل شكلاً من أشكال لهجتي المحلية.

على كل حال، تجاوزت تلك الحالة وبـدأت محـاولاتي لتعلم لغة أجنبية مـن جديـد. إنهـا اللغـة الـتي اسـتعملها الآن. ولفترة من الزمن تعلقت بمقاطع منفردة فكان هذا ممتعـاً تمامـاً أو كان لابـد أن يكـون كـذلك لـو لم يكـن الـضيق مـا زال في داخلي يرن، كما أظن، مثل وتر قيثار فولاذي يعزف عليه. هـذا ما ظننته إذ كنت أدرك منذ مطلع حياتي أن 99% من هـذه اللغـة مجـازي والآن أشـك في هـذا الواحـد بالمئـة. علـى أي حـال مارست هذه اللغة الأجنبية لتحل محل ما يدعى بتمتمـاتي. لقـد كانت صعبة بل كانت أشبه بنقل مقطع من هنـا إلى هنـاك ودون ذلك لا تساوي شيئاً. كانت أشبه بالعمل لتشذيب تمثال أو رسم صور معقدة، لا أن تقول شفتاك كلمـة «شـراب» عنـدما يفكـر عقلك بـ«شروق الشمس».

كنـت أنتـهك تعليمـات المستـشفى بحالـة تقـارب تلـك الحالة التي يدعونها الجنون أو الهذيان وهي الحالـة الـتي يعـود إليك فيها كل ما حملته في داخلك من قبل من مادة دينية.

في إحـدى اللحظـات وجـدت نفـسي وقـد عـدت إلى الفندق ثم وجدت نفـسي في عربـة أجـرة ثم في معديـة، وكـل مرحلة من هذه المراحل منفصلة تماماً كصور في إطاراتهـا كمـا أنها ليست هامة بالمقارنة مع وتر القيثار الـذي كلمـا شـد أكثـر

فأكثر ازدادت نغمته إطراباً. رغم ذلك كله واصلت التمرين على مقاطعي المنفردة. وعلى تلك المعدية (حيث كنت أراقب سفينة سياحية إيطالية، قال الإيطاليون إن اسمها كرستوف كولمبو، لكن فيما يتعلق بسيرة حياتي، أعني سيرتنا، لن تجد المكان المضبوط أو التاريخ المضبوط بدقة) حاولت أن أفكر بتلك الكلمة (نهاية). قلتها بصوت مرتفع فكان ما قالته شفتاي هو كلمة (خطيئة). وهذا ما جعلني أضحك بطريقة غير متزنة وأنا أتأمل العلاقة بين هذه الكلمة الجديدة والحرارة في جسمي والوتر الفولاذي، والرؤيا، وكل تلك الأشياء التي ستكتشفها سيرة حاولت جاهداً أن أغطيها بما يشبه الرقص. أوه! تلك الكلمة جعلتني أضحك تماماً، إنما بات لدي على الأقل، سيماء كلمة من الكلمات وربما سأضيف كلمات أخريات في المستقبل رغم أن ذلك كان أشبه بالمشيء على جليد رقيق.

«خطيئتي».

لفظت ذلك بشكل حسن، لكن طبعاً، كانت غلطة عدم التحمل التي ارتكبتها عن عمد هي التي جعلت المصيبة فادحة. حاولت ثانية، دون أن أبالي بأن أكون أنا الأحمق الذي حلت به المصيبة فقلت: «ليس. الإثم. أنا. الإثم».



الفصل الثاني عشر

ليس لدي القلب أو الشجاعة لأن أعيد قراءة تلك الكمية الكبيرة، فقد كان وقتاً سيئاً والذاكرة نفسها تغريني بالزجاجة التي أتوق لتجنبها. انظر إلى تلك الخرق القديمة البالية وهي تتجول وقد أدركت لتوها أن العجوز الذي تعرفه تراه دون أن تهتم بماهيته. لم أكن أبالي بأن أتجول كثيراً إذ لم يكن لدي ما أفعله، أنا لا أستطيع أن أفسر ذلك بل عليك أن تأخذه كحقيقة واقعة، أجل، لم يكن هناك ما أفعله، أرجوك انظر إلى النكتة! ها هوذا ويلفريد باركلي بكل ما في العالم من رغبة لأن يشق طريقاً إلى بابه (ليس في الوطن). ها هوذا ويلف العجوز ومعه كل ما يشتاق إليه الشبان، معه من النقود بمقدار ما ينفق وأكثر، وقد أصبح عجوزاً طبعاً، لكنه لم يكن واعياً أنه كان يصرخ وأنه غير متزوج، إن كانت تلك هي الكلمة المناسبة وأنه ربما كان سلعة قابلة للزواج لو كان يستطيع الإقامة مدة طويلة في مكان واحد. لقد كان قادراً أن يركب، يطير، يناسب، يجلس، يقف، يمشي، صحيح الجسم والعقل أمام تلك المزعجات والعالم مفتوح أمامه، أقول، كان ويلف يعيش حالة من الحرية التامة، تلك الحرية التي يجب أن يحذر الناس منها. الحرية يجب أن تحمل للحكومة إنذاراً صحياً كإصابات السرطان! علموا ذلك في المدارس، اصرخوا به من على منصات الخطابة. انهض وقل ذلك أيها السيد الخطيب،

اسمعوا، اسمعوا، لكن مهما كان الأمر يجب أن لا تصدقيه أيتها العذراء اللطيفة!

هل هذا ما أحاول أن أنقله!

حسن، هناك حرية وحرية. وإنني، بصعودي إلى السطح، إن جاز القول، شرحت نفسي إلى مختلف الأجزاء التي حاولت في الحال أن تتجمع معاً يهددها بالخطر الوتر الفولاذي. أول شيء جربته هو الإغماء التخشبي ذاك الذي وجه ضربة مباشرة لكبرياء باركلي. لم أستطع تحمله ولم أستطع التظاهر بأني لم أكن كذلك. كانت هناك مسألة المرحاض، والخبراء في مملكة الإغماء التخشبي قادرون أن يتجاهلوا ذلك أيضاً بحيث يمكن لعبيدهم المطيعين أن يجففوهم بالمناشف أو بما يسميها ريك بالحفاضات. أما أنا فلم أكن جيداً لدرجة كافية في ذلك المجال، وهذا كل ما في الأمر. لكن على الرغم من ذلك كانت كل رغبتي (وهنا ترى شطئان الحرية الأكثر وحشية تتراجع) أن أنهض وأذهب إلى المرحاض بل كان علي أن آكل وأشرب لا مسكراً بل شاياً، قهوة، عصير ليمون أو أية مادة تبل الريق. كما أنني لم أستطع تجنب التفكير في أن الفتيات ممتعات. حسن، لسن ممتعات وحسب بل كثيراً من الأشياء الأخرى. كذلك اكتشفت كراهيتي المرعبة للواط. وحين توصلت إلى معرفة أن الإغماء خسارة ما حقة فكرت في أن أجرب الهزل. أجل، الهزل هو ما فكرت فيه ثم قلت لنفسي: عش سنك يا رجل، أنت فقط في الستينات وبإمكانك أن تستمر مواجهاً شبابك، دون أن تنظر إلى الوراء إلا بين الحين

والآخر. ارتكب. فذلك الفعل يجب أن يبقى لازماً. سر في طريقك أيها العجوز وارتكب. ارتكب مجدداً. وحيث لا يوجد ما تفعله يمكنك أيضاً أن تفعل شيئاً ما. امرح أيها المبجل، الأمر الذي جعلني أفكر بأشد الموبقات التي يمكن أن أرتكبها لكن لكوني ابناً مسيحياً حقيقياً من أبناء القرن العشرين فسوف تظن أنني طورت مادة جديدة مضحكة مع الفتيات أو الصبيان لكن ليس الأمر كذلك. فكرة الارتكاب تلك جعلتني أضحك في ذلك الوقت، لكن ليس الآن، بالطبع، ليس بعد ما حدث منذ ذلك الحين. فأنا الآن، حيث ضوء الفجر الخافت خلف الغابات الواقعة وراء النهر وحيث ستبدأ قريباً جوقة الفجر عملها مع أنني لن أسمعها بسبب قرقعة هذه الآلة التعيسة. علي أن أحصل على آلة صامتة وأن أترك آلات صامتة هنا وهناك، إذ يكون أسهل دائماً أن أحصل على آلة حيثما أكون من أن أجر واحدة معي.

حسن، مرة أخرى، هذا الارتكاب، فقد توصلت إلى نتيجة مفادها أن العمل الذي يتناسب مع طبيعتي المكتشفة مجدداً كل التناسب هو أن أقتل كلب جوني، بل كلبي إن كنت تحب (نعم، أعرف أنك ستكون قد نسيت كلب جوني. انظر إليه ثانية).

واصلت التفكير فرأيت أن القتل المباشر هو عمل صبياني وغير جدير بنا كلينا، غير جدير بالصورة والأصل. ما كنت بحاجة إليه إنما هو شيء ذكر على الصعيد الفلسفي أو بالأحرى اللاهوتي. صدقني، إنني فكرت طويلاً وتفكيراً جدياً

لدرجة أنني كنت أصل أحياناً إلى حافة الإغماء التخشبي مع ذلك لم تكن النتيجة استنتاجاً جامداً قاتماً مثل اكتشاف علمي كذاك الذي يدعى أنه نتيجة حسابات إحصائية، بل كان تجلياً من التجليات انفتح أمامي على منظورات عجيبة جعلتني أشهق إعجاباً مثل راهبة. راجع وردزوورث.

كان من الصعب أن أجد ريك، فقد كنت أتجول في هذا البلد أو ذاك، ربما كنت في البرتغال وربما لا، أجريت اتصالاتي بالهاتف وتكلمت مع وكيلي وناشر كتبي. طبعاً، كان ريك قد اتصل بهما كليهما لكن لم يكن أحد يعرف مكانه الحالي، كما قالا، بل كانا يعرفان مكانه السابق ولابد أننا تركنا الأقمار الصناعية تردد أصداء أصواتنا فترة من الزمن. ذلك أدهشني، فقد كنت أظن أنهم ربما جروه إلى جامعته، لكن ذلك لم يحدث. فحسب أقوال وكيلي كان طليقاً وأنه يجد كل الدعم لكي ينجز العمل المتعلق بي وأن هاليداي هو الذي يدعمه. أعطيت وكيلي عنواني البريدي القادم في روما ثم ذهبت إلى هناك! لا، لم أعد أرغب في تجنب ريك، بل بالأحرى كانت لي حاجة ماسة إليه لإتمام الأمور ولابد أنهم هتفوا يبحثون عني في إنكلترا أيضاً. إذ وجدت على عنواني البريدي القادم أطناناً من الرسائل من الناشرين ومن وكيلي ومن ليز وأشياء تافهة لا يعلم إلا الله من أين جاءت. استأجرت تاكسي وأخذتها كلها في أكياس إلى فندق رخيص بالقرب من اللاروتوندا.

كان من الصعب علي أن أتفحص تلك الرسائل كلها بالتفصيل لذلك تركتها مرزومة في مكانها وهتفت إلى وكيلي، حيث أعطيته رقم هاتفي واسم الفندق الذي أقيم فيه إذ لم أعد أبالي بأن يكشف غطائي. بعد ساعة جاءتني رسالة من الناشرين الذين كانوا قد عرفوا حينذاك أين يوجد ريك. إنه يحاضر في جامعة هامبورغ. رسمت خطتي وانطلقت رأساً إلى سويسرا وعندما ابتعدت عن روما مسافة كافية، توقفت ثم هتفت له من كشك هاتف في محطة وقود، فتوصلت إليه بعد عشر ثوان وهي فترة قصيرة تماماً حتى في حالة الكلام الفوري. لم يكن قد استطاع الإمساك بي منذ سنين رغم محاولاته كلها.

عندما فكرت بعدد المرات التي رأيته فيها أو تذكرت رؤيتي له وهو يتعقب أثري ضحكت ثم ضحكت بصوت عالٍ حين خطرت لي فكرة وهي أن صوتي وحده هو الذي يصل إليه من المجهول.

«أين أنت يا ويلف، أين أنت؟ ابق على الخط، لا تذهب».

«لن أذهب».

«لكنك فعلتها كثيراً، بل كنت تغلق الهاتف!».

«لا تكن أحمق».

«أين أنت إذن؟».

«دعني أقل لك، إنني على طريق عام».

«في أوروبا أم في الولايات المتحدة؟».

«طريق عام، الآن اصغ يا ريك، يا صديقي القديم. أريد أن أراك».

«حسناً، بالتأكيد، بالتأكيد؟ يا إلهي! أحقاً هذا أنت؟».

«سأقابلك في مكان يعرفه كلانا».

«أي مكان، يا ويلف! يا إلهي!».

«ذلك الفندق في وايسولد».

ثم خيم السكون فترة من الزمن، حتى أن الفتاة التي على الخط ظنت أنني انتهيت فتطلعت إلي، وهي تتساءل فيما إذا كنت قد أتلفت شيئاً.

«أنا بانتظارك يا ريك».

«حسناً يا ويلف».

وقررت أنه حان الوقت لأن أرش شيئاً من طعم فقلت:

«كنت أفكر في السيرة يا ريك».

«يا إلهي، يا ويلف ذلك أشبه ـ أشبه بالإنقاذ أجل، أنت تنقذني يا ويلف، وقد استغرق ذلك مني سبع سنوات».

«سأكون هناك يوم الخميس، اتصل بالسيد هاليداي ليعطيك تذكرة الآن».

«وايسولد ليست بعيدة، استطيع أن أتدبر أمري بدونه».

«كيف حال ماري لو يا ريك».

فتوقف عن الكلام ورأيته بعين خيالي وقد رجعت ذقنه إلى الوراء. ليس ريك بالمتحدث الجيد بالهاتف، لكن أخيراً جاءني صوته منخفضاً دفاعي النبرة.

«بينهما علاقة جميلة يا ويلف».

«مثلنا».

ومرت فترة صمت، بعدها تابعت:

«سأكون هناك يوم الخميس لكن لا تتصل بي قبل يوم السبت فأنا أريد الانفراد بنفسي، التأقلم».

وأغلقت الهاتف فأنا لست مثل ريك، بل أجد من السهل علي أن أكون حازماً على الهاتف ـ إنه أسهل من المواجهة، لأن صوتي عند عدم المواجهة هو صوت رجل مختلف استطيع أن أستعمله كما يستعمل بعض الناس محامياً يقول كلماتهم القذرة نيابة عنهم. وهكذا عدت أسوق السيارة وفي صدري أوتار مشدودة. أذكر أنني أمضيت الليل في ذلك الفندق الضخم في مكان ما ثم صعدت الجبال وابتعدت نحو وايسولد. لم يظهر علي أنني فكرت بسكة الحديد كثيراً تلك المرة وكان ذلك أمراً غريباً. في الفندق لم يستقبلني الهر ادولف كوفمان الذي ذكرت توصياته في مكان ما من هذه الرسالة، بل استقبلني ابن أخيه، المختلف تماماً عن عمه ادولف كوفمان، والذي رحب بي، بعد أن تفحص سجلات الفندق، كصديق قديم ثم أعطاني الجناح المألوف نفسه وزجاجة من (الدول)

المفتوحة سلفاً على الطاولة. ويقولون إن القيم تغيرت، لم تعد كما كانت عليه! مع ذلك كان غريباً أن أجد مدير الفندق صغير السن إلى تلك الدرجة، أما المرأة السمينة فكانت قد ماتت وتغير ديكور المشرب، وذلك كل شيء. ذهبت إلى غرفة الحمام لأرى وجهي في المرآة وياالله!! فقد رأيت نفسي لأول مرة منذ سنين، ذاك أنك إن كنت لا تغير تسريحة شعرك، لأن معظمه تساقط، ولا تحلق، فلن يكون هناك داع لأن تطارد نفسك في المرآة. نعم، لقد أحدث الزمن بعض التجعدات على معظم ما كان مرئياً. فذكرت نفسي بأن أعود إلى الاستحمام بانتظام. وقد توصلت إلى استنتاج ذكي من هذا فأخذت حماماً بارداً في الحال. ولما لم تكن هناك ملابس داخلية في حقيبتي فقد أرسلت في شراء بعضها، وقد وصلت في الحال.

نسيت أن أقول إنه كانت هناك صورة معلقة في المشرب، نظرت إليها بلا مبالاة في البداية إذ كانت من ذلك النوع الذي تراه في مجموعات الصور الرخيصة. كانت صورة للحاكم و.ف. غاتسي هانكلبرى فوست وهو جالس هذه المرة مع صديق شاب في قاعة فارتماوث هنت...

بعدئذ اكتشفت أن النادل هو عم المدير، كوفمان، العجوز المتوفى. ثم رأيتني أتأمل صورة معلقة لفت نظري فيها رجل أحمق ملتح. يجلس إلى الطاولة ويضحك ضحك المهرجين بوجه فتاة تجلس إلى الطرف الآخر. أجل، لابد أن يأتي يوم تكشفنا فيه خطايانا. فهناك واحد أعلى معه دفتر وآلة

تصوير ولا يسمح لنا أن نأخذ وضعاً معيناً، بل بكل بساطة يلتقط الصورة حسب رغبته وبما فيه مضرتنا. كانت تلك صورة ويلفريد باركلي. حسن، ويلف الشهير الذي حصل على مثل ذلك الامتياز، فعلقوا صورته هناك. تلك الصورة التي التقطت عندما كان جالساً صاحياً تماماً غير سكران وقد أخذها صديقه القديم ريك ل. تكر. ذلك الآينو الكثيف الشعر، ذلك الرجل القوي بدفئه، مزيل روائحه الفاسدة، بذبذباته المنتفخة. لماذا لم يكن هنالك صورة لها؟ فهي تشرِّف أية مؤسسة، تلك الذبذبات أعني.

والفتاة. نعم، الفتاة. إنه أمر يتعلق بالوميض. فهو يعصف بالحياة ويخطف اللون من الوجه مهما كان رقيقاً، لذلك لم تكن تلك الصورة تشبه كثيراً ماري لو تلك التي كانت تعبد رجلها الكبير القوي وتحاول قدر استطاعتها أن تكمل الدائرة السحرية ـ أوه. لا! تلك كانت الدمية، النموذج الدارج، النسخة البلاستيكية لفتاة بيضاء الوجه، سوداء الشعر، وقد تجمدت هالتها. ولى، ذهب كل ما فيها من لطف. مع ذلك يقولون لك إن آلة التصوير لا تنقل الحقيقة.

هناك كنا، أنا ويلف المهرج، الذي مازال شهوانياً رغم مرور نصف جيل على الفترة التي كان عليه أن يعرف الأمور على نحو أفضل والفتاة بأحمر شفاهها الأسود كشعرها وسيمائها المنبسطة الخالية من التعبير سوى انطباع عن ذلك الفكر المثير للاهتمام كقطعة من خيط!

وأغمضت عيني عاجزاً عن متابعة النظر إلى ذلك الشيء، إذ حتى في الصورة لم يكن ذلك الأحمق منفراً كالرجل الذي كنت قد تفحصته في مرآتي قبل قليل. فذلك يساوي واحداً ونصف! وماري لو ماذا فعلت بها سنوات من وزواج فاشل؟ سنوات مع هاليداي؟ كان ينبغي على ريك أن يلتقط لنا صورة قبل ذلك كله وبعده. لكن، بالطبع، كان الأمر كما هو مع لوسيندا. فكما أن هناك ظروفاً تحول دون حصولك على وجهين تريد أن تطبعهما على الصورة نفسها كذلك لا تستطيع أن تجمع اثنين. لهذا عدت إلى جناحي ثم غيرت ملابسي الداخلية، بعدئذ فتحت النوافذ ذات الطراز الفرنسي في غرفة الجلوس ثم نظرت إلى الخارج وأنا آخذ نفساً عميقاً ثم سرت بخطا واسعة إلى الشرفة حيث أمسكت الدرابزون بكلتا يدي وانحنيت عليه ناظراً إلى الأسفل، فشعرت بذلك الجحيم الذي أشعر به عادة، مدة خمس ثوان، ثم لا شيء سوى مقدار كبير من الفراغ وبقعة في الأسفل وجدت أنها مريحة قليلاً وهكذا قلت لنفسي:

«لقد بلغت سن الرشد».

والوقت! سوف نتفق عليه. عدت إلى غرفة الجلوس مغلقاً النوافذ خلفي. كانت الطاولة المنتصبة وسط الغرفة ما تزال تلمع كما لو أن شبح المرأة السمينة ما زال يعمل لكن ربما كانت هناك امرأة سمينة أخرى. الورقة الوحيدة على الطاولة إنما كانت لائحة طعام وضعت بجانب زجاجة (الدول). نظرت إلى الزجاجة بحذر إذ لم يكن من المستحسن

أن يأتي ريك ويجدني سكران أرتجف، كما فكرت أنني إن أردت أن أكون أنا السيد المسيطر فعلي أن أجنّد كل ما لدي من حزم وقوة إرادة. حملقت في الزجاجة ـ ليس بسهولة كما تظن، ثم ذهبت أفتش عن ملابس دافئة. أعطاني المدير كنزة وسترة تركهما الزوار، وإنه لمن المدهش أن يترك السكارى أشياء كهذه خلفهم عندما يسكرون. كان قد كتب على الكنزة (جرِّبني) مثل ما كان مكتوباً على كنزة ريك (أول أشكان) وهكذا انطلقت بكل حذر (متذكراً الطريقة التي ينبغي أن أتأقلم بها) متمشياً بعض الوقت قبل أن أسمح لنفسي بالشرب.

فالشرب يرخي السلك الفولاذي قليلاً، لكن كما أشرت من قبل أو كما سبق واستنتجت، فإن الشرب يؤدي إلى مشاكل بالتأكيد، وليس هناك من فائدة في التجريب، فالمشاكل تتفاقم مع التقدم في السن بدلاً من أن تتحسن. حبذا لو كان لي رأس شاب على كتفي عجوز... ها... الخ صعدت على طول ممر بارد زالت عنه الثلوج في الآونة الأخيرة. وكان هذا هو الممر الذي مشينا عليه معاً أنا وريك ذاك الذي قادني إليه قبل سنين.

لم يكن باستطاعتي تمييز إن كان الثلج يغطي كل شيء حولي ما عدا اتجاه المسير كما أن الضباب الذي كان يلف كل شيء حولي في ذلك الحين لم يكن له أثر الآن فبدا كل شيء واضحاً وكأنك في الفضاء الخارجي بيد أن الصحيح هو أن تلك الحاجة الماسة للتأقلم كانت قد عاودتني من جديد فمشيت ببطء أكثر وأكثر ثم توقفت دون أن أنظر حولي. بعدئذ جلست على نتوء صخري مريح بانتظار أن يرتاح قلبي وألتقط

أنفاسي، وفي الحال وجدت نفسي أصغي إلى صوت الماء. كان صوتاً مفرداً فقط، هو صوت خرير ضعيف. فتحت عيني ثم نظرت إلى الأسفل، وسواء صدقت أم لم تصدق، فقد ميزت الصخرة التي كنت أجلس عليها وميزت الدرابزون الذي كان أمامي. كذلك، كان هناك جدول، جدول مختلف بالطبع، فهو أكثر اتساعاً من جهة وخارج من ضفة ثلجية لكهف جليدي يعصر الماء عصراً تقريباً فيخرج مستوياً منبسطاً وذلك هو السبب في أنه لم يكن له أي صوت آخر سوى صوت الخرير.

تطلعت حولي، ولابد أن فكي قد سقط على صدري. لا يمكن أن أكون مخطئاً، فهناك كانت تطفو على سطح الماء أنصاف الجذوع التي كانت قد صنعت على شكل قنوات ووضعت في قلب الممر. كان الحجر هو دليل الثبات الوحيد إذ كان أكبر من أن تزحزحه سوى متفجرات أو رافعات وآلات. كان قد برز من جانب الجبل وأنا على يقين من أنه ظل كذلك حقباً جيولوجية طويلة. نعم، بالطبع آخر مرة كنا فيها هنا، سمعنا أجراس المواشي في الضباب دون أن تكون لدي الفطنة لأن أرى ما كان يعني ذلك. دونكيشوت على حصان خشبي.

كنت أفكر من تراه أول من بدأ بوضع شيء بارع على الصعيد اللاهوتي؟ ولعشر ثوان تقريباً وجدتني أشبه بالأعمى لشدة إحساسي بالمذلة والغضب ـ لم يكن ذلك غضباً من ريك، فبعد كل شيء لم يكن الأمر يتعدى واحدة من تلك اللحظات المقدّرة مسبقاً لهزلية سخيفة، كأن تدوس على رأس حصان غارق في البراز أو يلتقط أحدهم رسالة لوسيندا من صندوق

القمامة. إذ يحدث مرة كل عشر سنوات أن يمر بحياة المهرج الطبيعية فصل من فصول سيرك عادي مناسب وهكذا أضيف ذلك الفصل الذي ربما كان أحسن الفصول ـ وأنا معلق على حافة جرف، معلق في الضباب، ينقذ حياتي كاتب سيرتي الذاتية ـ وهو مرتاح، مفيد، لا ينفصل في ذاكرتي عن وجنتين متوهجتين في ساعات الأرق. يالسخرية الطبيعة! إنه ريك الذي يوشك أن يصبح وكيلاً، ريك الهدف، ريك الأ ـ فهناك حيث وجدت نفسي معلقاً ذات يوم في الضباب، كان ينبسط مرج أخضر، ترعى الأبقار فيه... وترن أجراسها دن.. دن.. دن.. دن.

وللتو اكتشفت أني كنت قد وقفت أرتجف وقد انشدت قبضتاي. فاستدرت ثم بدأت أمشي بحرص نحو الفندق ـ بحرص لأنني لم أرد أن يحدث شيء قذر لقلبي العجوز وأنا على ذلك الارتفاع كما كنت بحاجة لأن أعيش حتى يصل ريك وكان علي أن أقوم بتمارين تنفسية كي أعيد بعض السيطرة على نفسي بعد أن غدوت نصف أعمى من الهياج وغدت أذناي تصفران وقلبي يخفق وقد وصل حتى أسفل حنجرتي. لا أتذكر الممر أو الأبواب المفتوحة، بل أتذكر النظر إلى زجاجة (الدول) والقرار بأن أتركها وشأنها. قلت للمرأة البدينة الشابة التي ربما ستخدم في المشرب جيلاً أو جيلين ثم تموت، بأنني سأتأقلم ـ نعم ـ هكذا قلتها، وأن المقابلة مع ريك ستتم في العاشرة. أخبرتها هذا الخبر الصغير ولا أظن أنها فهمت شيئاً، ثم علقت لوحة على الباب تقول (الرجاء عدم الإزعاج؟) بعدئذ ابتلعت حفنة من الحبوب تقريباً وألقيت بنفسي على السرير

حيث نمت من عصر يوم الخميس حتى منتصف يوم الجمعة. استيقظت، وبعد غداء خفيف شربت معه (الدول) ظننت أنني أستطيع أن أجازف فجربت نفسي بأن خرجت إلى الممر ثانية. وبالفعل كنت قد تأقلمت قليلاً لأني وصلت الحجر في وقت قصير جداً ثم جلست هناك أغذي غضبي كما تحرك قطع الفحم في النار. لا أدري كم استغرق هذا، لكن حين شعرت أنني أخمدته عدت إلى الفندق وهناك رحت أمشي ذهاباً وإياباً في غرفة جلوسي منتظراً مجيء ريك.

كنت قد نسيت أن اليوم هو يوم الجمعة وليس السبت وكان علي أن أستشير رزنامتي لأتأكد لكن الرزنامة نفسها بدت مشوشة لذلك كان علي أن آخذ بعض الحبوب فخرجت مرة ثانية.

لم يكن صباح السبت جيداً جداً، لا، دعنا نكن أقل تكتماً مما هي العادة في إنكلترا. فقد كان صباح السبت رهيباً مخيفاً.

كان السلك في داخلي مشدوداً إلى درجة حسبت أن أي شخص آخر في المكان الذي كان فيه ثلاثة أشخاص رغم أنه كان باستطاعتي تجاهلهم ـ أقول إن أي شخص آخر كان بإمكانه أن يسمعني قادماً. مع ذلك أتذكر أنني طلبت من ابن المدير ـ بصفته مديراً ـ أن يسمح لي باستعمال آلته الكاتبة إذ لم يكن باستطاعتي أن أشتري واحدة منها في وايسولد. بعدئذ طبعت وثيقة هامة بكل عناية، ثم وضعتها في وسط طاولتي

المصقولة. وهكذا رحت أراقبها وهي على الطاولة الأمر الذي جعل الوقت يمضي. بعدئذ جلست وظهري إلى النافذة ونظاراتي الشمسية تخفي أعلى وجهي وأرشف بين الحين والآخر جرعة من (الدول) لكن ليس كثيراً فقد كنت بأمس الحاجة لنوع من التوازن.

جاءت القرعة على الباب في وقت من الأوقات بعد الظهر ولم تكن قرعة حازمة. كنت قد تركت الباب غير مقفل قصداً إذ لم أكن أرغب في أن يشاهدني أحد وأنا أجامله.

«ادخل».

نعم. لقد كان ريك وقد جاء في الوقت المحدد دون أن أتذكر ذلك. دخل بحذر. الرأس عال يصل إلى أعلى الباب والجسم كبير لكنه مختلف الشكل نوعاً ما. ربما كان صدره قد ضمر قليلاً. كان يقف تماماً داخل الباب يطرف بعينيه بسبب النور. بعدئذ راح ينظر حوله في الغرفة بحذر شديد وكأنه يشك بوجود كمين.

اختلس نظرة عبر الطاولة إلي.

«أهذا أنت حقاً يا ويلف؟».

«أجل».

اتسع فمه فظهر قدر كبير من أسنانه الأمريكية.

«أعتقد أنه كان لديك وقت للتأقلم، ويلفريد ـ يا سيدي؟».

«نعم».

رأى الورقة. يا إلهي! لقد اتسعت عيناه حتى صارتا باتساع فمه. بل كان باستطاعتك أن تتصور أنهما كانتا بلا أجفان! لا ـ آه، بالشدة ملاحظة القصصي ـ إذ كانت رموشه قد التصقت بما يحيط بها. كتلة لطيفة، ريكنا هذا.

«بالحقيقة، يا ويلف، أستطيع أن أرى توقيعك!».

«نعم».

ولما كانت عيناه غير قادرتين على أن تنفتحا أكثر فقد انفتحتا قليلاً، حينذاك أومأت إليه.

«الق عليها نظرة متفحصة يا بني. فنحن سنبقى جنباً إلى جنب، وأنا لن أتجنبك بعد الآن كما كانت الحال في نافونا».

رجعت عيناه إلى وضعهما السابق فاستطعت أن أرى أن التجعدات قد تعمقت في ما كان مرئياً من جبينه. هل أخبرتك عن شعره؟ لا. حسن. كان البروفسور تكر قد تخلى عن نصف طوله ودفعه إلى الأمام. أعني أن شعره كان مقصراً وأخف من السابق. لكن في تلك اللحظة رأيت أشياء أخرى لا يمكن أن يلاحظها إلا الملاحظ المتمرن، مثال على ذلك الملابس التي كان يلبسها فقد كان بنطاله الأبيض متموجاً عند الأسفل وكانت البنائق براقة. لقد استمتعت برؤية عينيه إلى درجة تجاهلت معها كل شيء آخر، لكن حينذاك رأيت أن في قميصه أو صدريته كما نقول هنا في الغرب، قطعة كبيرة مقطعة إلى شرائح وتمتد

على نحو واضح إلى حيث كان بالإمكان أن ترى سرته لو أن ذلك الدغل من الشعر التكري[1] لم يكن يخفيها.

حسن، إن كان لديك شعر على صدرك فلمَ لا تقول ذلك؟ حسن، بشكل من الأشكال، كان الطراز العالي لملبسه قد أرجعني رأساً إلى صفتي كبريطاني ينحدر من منطقة وسط الأطلسي التي كنت متأثراً بها.

«ألا تريد أن تجلس يا بروفسور؟».

فغاص في الكرسي المقابل الذي سمعته يحدث صريراً.

«كيف كانت روما أيها البروفسور!».

«كنت تدعوني ريك يا ويلف، يا سيدي، متى تراه كان ذلك؟».

«هيا الآن! تماماً بعد أن غادرت هذا المكان آخر مرة قبل قرن مضى، عندما لحقتني إلى روما. كان ذلك عملاً ذكياً. وهو الحظ أيضاً بالطبع».

لكن ريك لم يكن مصغياً فقد عاد يحملق في الورقة على الطاولة المصقولة كأنه يخشى أن تطير في أية لحظة، ولكي أجعل الموقف أوضح أمسكتها بيدي ورفعتها.

«ليس هناك على الإطلاق سبب يدعوك لأن تفعل ذلك يا سيدي ويلف. أؤكد لك».

---

(1) نسبة إلى تكر.

«كيف تراك تتكلم بالطريقة التي تتكلم بها الآن يا ريك؟ لقد قضيت سنوات وسنوات في إنكلترا، بلا شك».

«كيف تتكلم أنت بالطريقة التي تتكلم بها يا ويلف؟ أعني النبرة فهي مسطحة».

«دعنا نغض النظر عن الجغرافيا يا ريك. فقط أخبرني، كشي ذي أهمية، ما كنت تفعله طيلة ذلك الوقت». طرفت عيناه وقد غدتا أقل انتفاخاً.

«أين إيفورا يا ويلف؟».

«احترم سنك يا ريك، أردت فقط أن أعرف ماذا كنت تفعل هناك. حسن، أرى أنك مصمم على أن تحتفظ برأيك الخاص، لكن لم لا؟ بالنسبة للوقت الحاضر سيثيرك أن تسمع أنني تأقلمت، لقد عدت إلى ذلك المكان مرتين. كنت تعرف، أليس كذلك؟ تماماً، وأنا هناك في الضباب، معلق في الفضاء خائف على روحي العزيزة، خائف من الموت من أن أتهشم وتحت قدمي بمتر واحد فقط، يمتد مرج أخضر واسع... مرج من مروج الألب كما تقولون لو سقطت لما كنت سأذهب أبعد من متر واحد، ولو أردت أن أسقط أكثر، لكان علي أن أعبر المرج كله ثم ألقي بنفسي من جانبه الآخر. لا تهز رأسك هكذا. فقد كنت تعرف. أجل لقد ذهبت إلى هناك في اليوم السابق وقد فتشت الأرض جيداً، تعرفت عليها تماماً ثم قدتني ثانية إلى ذلك المكان ـ أوه أنا أعترف أنك ربما لم ترتب سقوط الصخرة، بل ربما حدث ذلك بضربة حظ لصالحك، أليس

كـذلك؟ الـضباب، الـصخرة، كـسر الـصخرة للـدرابزون ثم استنادي عليه؟ إنك سريع التفكير يا بروفسور، أقر لك بـذلك، ولقد سخرت مني يا ريك أيها الوغد ـ».

«لا، يا سيدي، لم أفعل ذلك ولا بأية طريقة..».

«اقتباس، يبدو أنني مدين لك بحياتي، انتهى الاقتباس».

«لكن يا سيدي، أنت قلت ذلك وليس أنا..».

«طبعاً، الحشرة القديمة ساعدت في وضع بيـضها تحـت غطائي، أنا لا أشك في ذلك، لكـن بحـق المـسيح، ألم تكـن وراء تلك الفعلة، قل لي، ألم تكن؟».

«لا...».

«لو لم يتنبني ذلـك الإحـساس العـام بـالجبن وقطعـت رحلتي وهربت، فهل يعلم إلا الله ما كان سيحدث؟».

«ويلف، علي أن أخبرك. تذكر، كنت قد سـرت الطريـق كله من قبل إلى أن وصلت إلى هوشـالبنبلك وقـد فعلـت ذلـك مرة واحدة في ضوء النهار، لكن معك كان هناك ضـباب، ولم يكن باستطاعتي أن أعرف الممر باردة باردة، أو أن أتأكـد ممـا كان خلف الضباب. فمن أجل ذلك علي أن أكون آلة حاسبة».

«كنت تعرف».

«حسن، لنقل إنني كنت أعرف، لكن كل ما كنت أعرفـه إنما كان من باب التخمين وليس اليقين. صـدقني، كنـت أظـن

أنني أجازف بعنقي هناك، يا ويلف، أجازف به من أجلك، أقسم على ذلك بشرفي».

«شرف كشاف».

«أنت تحزنني يا ويلف».

«ابك إذن، وعندما تنتهي من ذلك سوف نواصل الحديث».

أمر غريب. فما أتذكره هو أن عيني ريك اغرورقتا بالدموع فعلاً، ولكي يحقق الغاية من ذلك أخرج منديلاً من مكان ما ومسحهما به.

«بعد كل هذه السنين يا ويلف...».

«اسكت أيها الرجل ألا تريد الورقة؟».

لكنه أمضى بعض الوقت وهو ينشق ويمسح عينيه، وحين تكلم كان صوته أضعف.

«نعم يا ويلف أريدها».

«تمام! إذن احك. قدم عرضاً جيداً يا تكر».

«أنت دعوتني ـ».

«أعلم ذلك يا تكر، والآن أخبرني عن هاليداي. لا توجز، فأنت لا تخيفني، كما ترى. إنني أريد كل تفصيل من تفصيلاته الساحرة».

لكن ريك أمضى بعض الوقت قبل أن يستجمع شجاعته.

«إنه رائع ـ حسن، أولئك الذين يعرفونه ـ».

«ماري لو...».

«أنـت تعلـم أنهـا متخرجـة مـن قـسم ترتيـب الزهـور والمكتبات يا سيدي، لذلك لديها مجال واسع في مجموعته».

«إذن، فقد أصبحت ماري لو من مجموعته!».

«لا، يا سيدي، المسألة مسألة مخطوطاته...».

«ها... الخ..».

«أنا أعلم أنك غير مهتم بالتاريخ الأدبي، يا ويلف، لكن بالنتيجة، ما أنت إلا جزء منه».

«أنا لست مهتماً بالتاريخ، بالمرحلة، إذ يجب أن تـدرج كلفيفة من الورق. أخبرني عن هاليداي، أريد أن أعرف المزيـد عن هاليداي».

«مثلاً، هو سيدفع أي شيء مقابل ذلك».

«ومـد يـده نحـو الوثيقـة الـتي كتبتـها، لكـنني خطفتـها وأبعدت يدي».

«أيها الشرير!».

«لكن يا ويلف...».

«بالمناسبة، لماذا تلبس وكأنك خارج من سيرك؟».

نظر ريـك إلى نفـسه متفحـصاً ذلـك القـدر القليـل ممـا يمكنك أن تراه من ملابسه خـارج نطـاق الـدغل الـشعري. هـل

كانت ماري لو قد ذرفت الدموع على ذلك الدغل؟ هل فعلت ذلك؟ هل كان ذلك حقيقة أم خيالاً؟ ولدهشتي وجدت أنني لا أستطيع التمييز بين الاثنين.

«ما الخطأ بالنسبة إلى لباسي؟ يااللجحيم! لقد كنت ألبس هذا وأكثر حين رأيتني آخر مرة. كنت حينذاك ألبس عقدي وقد خلعته لأنني ظننت أن وايسولد ليست المكان المناسب له».

«لا تكن أحمق».

«حسن، لن أكون».

«أنا لا أعني ذلك. فآخر مرة رأيتك كنت لابساً كالخنافس. هيا يا ريك أنا أعلم كل شيء عن ذلك».

«وأنت، هيا أيضاً يا سيدي. لقد لوحت بتلك الورقة لي!».

«متى؟ أين؟».

«مراكش، أتذكر؟».

«ريك ـ».

«علي أن أقول إنك لم تكن لطيفاً جداً يا ويلف، لكن آنذاك كنت دائماً أسامح، نظراً لأنك أنت وقلة من الناس مثلك لهم امتيازات».

تفحصت عينيه بعناية فكانتا أشبه بعيني سياسي بعد أن يتعرض للكشف أكثر مما يمكنه أن يتحمل. مزيد من القلق،

الإيمان، المجاملة، الطموح، الشك، كان ثمة بياض ظاهر حول الحدقتين، وهي ليست علامة لا يمكن أن يخطئها المرء، بل هي تكشف عن درجة من التوتر، عن التوجه نحو ما سميته بالجحيم، كما يمكن أن تدل على الألم أيضاً أو الخوف. حسن، لم لا؟ فالإنسان يعض كالكلب.

«احكِ لي عن مراكش إذن، يا ريك».

«هل علي أن أحكي؟ آه، حسن. كان ذلك خارج فندق فرنسا. بحق الله يا ويلف، لابد أن ذلك مسجل في يومياتك وما عليك إلا أن تلقي نظرة عليها».

«المزيد، هيا المزيد من التفاصيل!».

طوح ريك بذراعيه على غير عادته فعلمت من ذلك كم كان يائساً.

«كنت على الشرفة، في الجهة اليسرى من الباب الرئيسي ـ الطابق الأول. رأيتني، فضحكت ولوحت لي بالورقة، ثم اختفيت في البناية ـ أية نكتة هي بالنسبة إليك! أجل، يمكنك أن تعتبرها نكتة يا ويلف!».

«كيف عرفت أن تلك الورقة هي إذنٌ لك بأن تكون الوصي الأدبي على أعمالي؟».

«وأي شيء آخر يمكنها أن تكون؟ أنا لم أكترث بالنكتة يا ويلف. فقط، كما قلت، ذهبت إلى صالة الاستقبال ولكنهم قالوا إنك لا تقيم هناك. فقلت في نفسي إنك كنت تزور شخصاً آخر. لذلك صعدت إلى الطابق الأول، أطرق الأبواب وأصيخ السمع».

«لابد أنك كنت معروفاً».

«كان بإمكانك أن تمنع حدوث ذلـك، إنمـا النكتـة نكتـة كما تقول، لكن بالحقيقة عندما ألقوني خارجاً ـ وأنا الأمريكـي يا ويلف، فقد آلمني ذلك».

«ريك».

«ها».

«متى كان ذلك؟».

فأطرق يفكر مقطباً جبينه.

«قبل ستة ـ لا، سبعة أشهر».

«آخر مرة رأيتك فيها يا ريك كانت منذ عام ونيف. كنـت تمشي نازلاً في رواق جانبي من ذلك الفندق في إيفورا، تلـبس بذلة رمادية فاتحة وتمشي في الاتجـاه الآخـر، لـذلك لم تـرني وكان علي أن أغادر حالاً».

«أبداً لم ـ».

«اهدأ، إن قلت لك إنني سأخبرك الحقيقـة مقـسماً علـى ذلك بكـل مـا أعتقـد بـه مـن حـرارة، ضـوء، صـوت، عـدم تسامح، ضرورة، ألا تصدقني؟».

«نعم يا سيدي، أصدقك...».

«ريك، إنني أقول هذا بكل القوة والدقـة الـتي أمتلكهـا. لن أقول لك إنني لم أذهب قط إلى مراكش!».

وخيم الصمت.

كانت عيناه قد جحظتا! أعني أن البياض المحيط بالحدقتين كان قد اتسع ثم بدا فجأة وكأنه يضيق. بعدئذ أطلق نفساً طويلاً وبسط يديه على الطاولة، ثم صنع، عامداً متعمداً، من عينيه شكلاً إهليلجياً عادياً أو شبه إهليلجي وقد تغطت الحدقتان تغطية جزئية. كما بدا أنه لا يريد أن يضمحل ليعود إلى حجمه الحقيقي، بعد الجهد الذي بذله كي يجعل من نفسه قادراً على التأثير. بعدئذ بدأ يبتسم ثم يومئ برأسه المرة تلو المرة.

«طبعاً أنا أرى هذا كله يا ويلف. كان شخصاً آخر إذن. فقد كنت أفكر بك كثيراً كما أن حاجتي لأن آخذ سيرتك التي كان السيد هاليداي يضغط علي كثيراً من أجلها، إضافة إلى إمساكي بالأدلة التي ترشدني إلى مكان وجودك، كل ذلك جعلني أراك في شخص آخر يشبهك ـ».

«الصياد والفريسة».

«يا للجحيم! كان لك لحية يا ويلف. لكن أولئك الأعراب كلهم ذوو لحى».

وكنت أهز رأسي على نحو متزامن مع هزات رأسه كتمثالين من البورسلين. بعدئذ ابتسمت له ابتسامة من يرغب بالمساعدة.

«أتوقع أنك كنت تتطلع إلى الشمس».

«ربما كان الأمر كذلك يا ويلف، فقد كانت الشمس في الجنوب الغربي في ذلك الوقت، تماماً بعد القيلولة وكانت الشمس فوق الفندق، تماماً فوق ذلك الرجل الذي رأيته يضحك ويلوح بالورقة لي».

«هل رأيت؟ الأمر بسيط إذن».

«لكنني الآن أعلم تماماً أين أنت ـ».

«أنت لا تعلم أين أنا، لا أحد يعلم».

«بالتأكيد يا سيدي ـ لا حاجة لذلك ـ لكن الآن يمكننا أن نبقى على اتصال وقد غدوت على ما أنت عليه ـ».

«أنت لا تعرف من أنا! لا أحد يعرف من أنا».

«لا، لا، طبعاً لا، صحيح يا سيدي، انظر، من الأفضل...».

«هاليداي الآن، إنه يعرف، ولا أحد آخر».

«من الأفضل...».

«انبحْ: عو، عو».

«لا أفهم، هل نلعب لعبة يا ترى؟».

«هذا صحيح، يا بروفسور، انبح: عو... عو».

«عو... عو...».

أطلقت نفساً طويلاً ثم عدت بظهري إلى الوراء، بعدئذ فتحت الورقة وقرأتها كلها. فبدت متماسكة تماماً، لكن

خطـرت لي فكـرة، هـي أنـه ينبغـي طبعـاً أن يـدققها محـام، فانزعجـت لـدى الـتفكير بـأنني أضـعت الكـثير مـن الوقـت والجهد، لكن، بعد كل شيء، هناك مستشارون ومحـامون في زيوريخ. رغم ذلـك شـعرت بـشيء مـن الانزعـاج مـن نفـسي فأطرقت أفكر.

«ماذا تقول الآن! إنه دورك يا ويلف».

«دوري؟».

«هذه اللعبة، أنت تعرف. عو... عو...».

«آه، تلك! أنا لا أقول شيئاً».

«لم أفهم يا ويلف».

«كل شيء سينكشف في حينه».

«تلك الورقة يا ويلف ـ».

«لن تحصل على تلك أيضاً. لا، لا تتلق الأمر علـى هـذا النحو يـا ريـك، أيهـا الـصديق القـديم. فـصديقي، ابـن أخـي المدير، والمرأة البدينة الشابة سيقذفان بك إلى الخـارج. أعـني أنك لن تحصل على هذه، لكن إن كنـت لطيفـاً، أو دعنـا نقـل رفيقاً، سـوف تحـصل علـى قطعـة جميلـة مـن الـورق موقعـة ومختومة».

«ويلف، يا سيدي أنا لا أعلم كيف...».

«إلى متى وإلى أين ـ مع ذلك ثمة تمهيدات ضرورية».

«أي شيء! إذ لم يبق لدي سوى أقل من سنتين يا ويلف. وأنت لا تعلم البتة».

«ذلك الفاسد؟».

«أي شيء! نعم يا سيدي».

«حسن، كما اتفقنا، علي أن أعرف الطاقم كله الذي يصل بينك وبين ذاك ـ الذي ـ تعرف».

«السيد هاليداي؟».

حنيت رأسي بوقار، فحك ريك أنفه ثم تطلع مرتبكاً. مع ذلك كان مرتاحاً، سعيداً.

«الأمر بسيط تماماً. لقد راهن علي كما ترى. مدة سبع سنوات بحيث أكرس نفسي لـ...».

«إلى متى سيحتفظ بماري لو؟».

«ماري لو لم تعد تعني لي شيئاً يا سيدي».

«دون حتى أن تكون قادراً على الاستفادة منها بين الحين والحين؟».

فخيم الصمت فترة طويلة من الزمن، قطعتها على نحو يساعده.

«ياله من رب عمل قاس، السيد هاليداي هذا! لو لم تكن في أعقابي طوال السنوات السبع الماضية ولو لم تتوصل للحصول على تفويض بكتابة سيرتي الناقصة طبعاً، لأنني ما

أزال على قيد الحياة ـ فكم سيكون هناك عويل وقضم من تلك الأسنان البديعة؟».

«لقد توقف عن دعم البحث، لكن اسمع يا سيدي. فأنا لست عاجزاً بل باستطاعتي أن أذهب إلى أماكن أخرى..».

«لا تكن أحمق فليس هناك سوى واحد فقط. في البداية، فكرت آه، قبل سنين وسنين إنه، كما يمكن أن تقول غافنهايم أو فولبرايت. لكن الأمر ليس كذلك. فهي لا يمكن أن تتخلى عنك من أجل المال فقط يا ريك وأنا لن أكون مشدوداً كلياً، متوتراً كلياً، لكن أنت متوتر تماماً. أترى؟».

«إن هذا أشبه بمحاولتك خدمتي وخدمته في الوقت نفسه، أشبه بخدمة الله وخدمة ماموث معاً. فاحزر أيهما».

«أنت وعدتني بتلك الورقة أو بواحدة مثلها! ولن تتراجع عن كلمتك يا سيدي».

«لن أتراجع، لكنك لم تعطني وقتاً لكي أضع الشروط. أليس كذلك؟».

«لا أستطيع التذكر. هذا مخيف».

«أنا لم أعطك هذه الورقة بعد، ولن أعطيك إياها. إذ عليك أن تفعل أشياء معينة».

«أي شيء ـ».

«سأسمح لك أن تكتب سيرة ويلفريد باركلي الرسمية المصدق عليها وانك لمحظوظ، محظوظ للغاية! كما

سأعطيك معلومات وثيقة الصلة ولسوف أعينك مشرفاً على كل ما يخصني».

«اقسم ـ».

«وسأشرف على السيرة كلمة كلمة...».

«بالتأكيد، بالتأكيد».

«كما سنلتقي في الزمان والمكان اللذين أحددهما».

حينذاك انكمش مرة ثانية.

«لكن يا سيدي، يا ويلف ـ صحتك ـ».

«أتعني أنني قد أسقط ميتاً في أية لحظة؟».

«كلا يا سيدي، لكن ذاكرتك قد لا تظل كما ينبغي، والكتّاب يشردون كما تعلم يا ويلف».

«لا، لست ممن يشردون إلى هذا الحد أنا الذي يراهن بكل ما لديه كما تفعل أنت. إنني أمسك بك بيدين ساخنتين كما ترى. أنا أعطيك إذناً، ذلك فقط. وأنت تأخذ الإذن. التزم بذلك، فقط بذلك».

«سيدي».

«غداً صباحاً سأرحل، وأتمنى أن لا أزور هذا المكان مرة ثانية ـ سأظل على اتصال بك، لكن عليك ألا تتبعني أو ألغيت الصفقة. وفي لحظة من الزمن يمكنك أن تعرفني بهاليداي».

«هذا صعب حقاً».

«لكن بإمكانك، أنت الرائع المدهش، أن تفعل ذلك فلديك المدخل».

«لا يا سيدي. السيد هاليداي لا يعطي ذلك الحق إلى أي إنسان ما لم يكن امرأة جميلة».

«أليس له أصدقاء صبيان؟ أليس له ميل جنسي للحيوانات؟ لا ثغرة، لا حب للتعذيب، للقتل؟ من أجل أي شيء بلايينه إذن؟ للحزن فقط؟ حسن يا ريك، أنت تعلم كيف أننا، نحن الناس المعروفين حقاً، نعود إلى الأشياء البدائية كي نستعيد صحتنا. أحدها ـ أوه يا عزيزي ريك، أشعر بميل لإلقاء محاضرة يطغى علي!».

«ليتك تنتظر لحظة ريثما أخرج مسجلتي ـ».

وزلق آلة التصوير من كمه.

«هذه؟».

«بالتأكيد. فهي تأخذ صوراً أيضاً. لكن يا ويلف، أنا لم أكن بقربك يوماً إلا وهذه في كمي. فقط تفوتها بعض الأشياء أحياناً، لذا من الأفضل نصبها على الطاولة».

«لا، أنت لم تسجل كلامي!».

«بلى يا سيدي، دائماً، بل حتى على العشاء، هناك في منزلك. أسفي الوحيد هو أنني لم أستطع التسجيل تلك المرة حين التقينا في تلك الليلة».

«أنا لا أصدق أذني».

«بل لقد سجلت لك في وقت أبكر من ذلـك يـا سـيدي. ليس بهذه الآلة طبعاً، بل حين كنت طالباً، ويمكـنني أن أقـسم أنه بين المرحلتين قد تغيرت نبرة صوتك».

«لا تكن أحمق أكثر مما ينبغي. أنا كالتابع، نبرتي تتكيف مع مكان وجودي وقد كنت دائماً كذلك».

«كلا يا سيدي».

«أبكر من ذلك؟ أبكر من أيام زيارتك لنا في المنزل أنا وليز؟».

«أجل، مـذ كنـت في الولايـات المتحـدة، وسـأسمعك صوتك ذات يوم».

«لا، لن تفعل ذلك. لن نتعقب آثار نفوسـنا الميتـة أو أي شيء من هذا القبيل، بل ستمـسح كـل مـا سـجلته أو تعتـبر الصفقة ملغاة».

«لكن التسجيلات لم تعد ملكي يا سيدي».

وخيم الصمت بعد ذلك فتـرة طويلـة مـن الـزمن بينمـا كنـت أحاول هضم ما قالـه. بـالطبع، كـان هاليـداي قـد وضـع يـده عليهـا واحتجزها في مؤسسة باركلي، فهـي ومـاري لـو جـزء لا يتجـزأ مـن الصفقة، الرب يعطـي والـرب يأخـذ، ملعـون اسمـه مـن يقـع عليـه اختياره. من تـراه يعـرف مكانـه؟ مـن يـستطيع مواجهتـه، مجابهتـه، مهاجمته، التغلب عليه؟ لا، لـيس باسـتطاعتنا أن نفعـل شيئاً سـوى ضرب أعوانه على جباههم بالحجارة والأمل أن تغوص إلى الداخل.

«ويلف، كنت تنوي أن تقول شيئاً».

«آ، نعم تلك المحاضرة. إنها تدور حول طقوس الانتقال. أنت تعرفها يا ريك وأنا أكلم نفسي. مثال على ذلك، أحد طقوس الانتقال يتم حين تكتشف أنك بدلاً من البحث عن مسامير ـ مسيميرات إبهامية كما يدعونها ـ في صحن سيدة ما أو منفضة أو طبق أو بندقية غني من الأغنياء معلقة فوق رفّ المستوقد، أو الرف الأعلى كما يقول المتأنفون، يمكنك أن تقصد حانوتاً وتشتري منه علبة مسامير كاملة. عند ذاك تكون على علم بما فعلت، إذ تصبح رب منزل. طقس آخر يتم حين تقتل عامداً متعمداً كائناً من الكائنات، كلباً مثلاً. الشيء بالشيء يذكر، ترى ماذا تشرب؟».

«أي شيء على ما أظن».

«بوربون[1]؟ يقولون لي إن لديهم بوربون. فودكا؟ ويسكي؟ أنا سأشرب النبيذ».

«وأنا كذلك يا ويلف».

«حين تكون لديك رؤيا ما عن الغضب الشامل، عدم التحمل ـ حسن يا للجحيم! ريك هي ليست رؤيا بالشكل الذي يرسمون هنا وهناك، في إيطاليا مثلاً، بل إنها شيء حقيقي مثلما الصخرة شيء حقيقي، وأبدية مثلما الماس أبدي. ذلك أيضاً طقس انتقالي».

---

(1) نوع من النبيذ الفرنسي الجيد.

«نعم، ويلف».

«هل تسجل؟».

«أظن ذلك».

«ولد ذكي! أشعر أنني بحاجة لبعض القهوة. هل يمكنك أن تذهب وتحضر لي بعض القهوة يا ريك؟ فقط كي نبين للآلة كم أنت ترعى الرجل العجوز».

وفي الحال اندفع مسرعاً بنوع من ذلك الحماس الذي يبديه طفل صغير تعرض للتوبيخ والصد ثم اطمأن أن المياه عادت إلى مجاريها. أما أنا فقد جلست أحملق بالآلة، ثم أحدثت بعض الأصوات المضحكة كي تسجلها بعد أن اطمأننت أن عدسة التصوير لا تعمل. أخيراً عاد ريك وهو يحمل صينية صغيرة عليها فنجانا قهوة لنا كلينا.

«كما تشاء يا ويلف».

«فقط املأ صحن الفنجان نبيذاً يا ريك».

«نعم يا سيدي؟».

«حسن، من أجل أي شيء تحسبني بحاجة للقهوة؟ لأشرب؟ طبعاً، إن تفكر بالأمر أكثر تجد أن الشاي يمكن أن يحل محله تماماً».

وضع ريك الصينية على الطاولة وقد جحظت عيناه من جديد. ثم غاص بالكرسي الآخر المقابل تفصل ما بيننا الطاولة.

«هذا طقس من الطقوس يا بني. وبعد الطقس، لا شيء يبقى كما كان من قبل، إذ يمكنك أن تذهب إلى فراشك ثم تستيقظ ثانية وتتابع ما كنت تفعله إلى أن تصبح الجحيم زرقاء ولا شيء يتغير. هذا مختلف، أليس كذلك؟ دعنا نر أين صرنا؟ أنت ستحصل على التفويض، كما قلت لك، لكن ماذا يضمن لي أن تلتزم بالشروط المترتبة عليك من الصفقة؟ لذلك عليك أن تفعل أي شيء، فقط كي تثبت تلك النقطة. مجرد اختبار ودي يا ريك. خذ أحد صحون القهوة وضع فيه شيئاً من نبيذ الدول».

ثم انتظرت باهتمام شديد، ولكنه لم يأت حراكاً.

«هيا يا ولد، فقد كنت تلاحقني، تسجل كلامي، بل تعذبني، تضطهدني، تبيعني، تشتريني، وكل ذلك من أجل أدبك القذر. فهل تنوي أن تعلن عن إخفاقك الآن؟ لماذا؟ فكر فقط بالفصل المتعلق بنبرة ويلف!».

فتحولت أنفاسه إلى حشرجة.

«إي».

«ماذا تعني بـ«إي» هذه؟».

«نبرتك، نبرة البحار الإنكليزي».

«فجة كثيراً كثيراً، يا ريك. فكما قلت أنا تابع يدور».

«لا، يا سيدي، أنا لا أعني الآن، بل أعني سابقاً».

«إذن، فأنت تعرف الكثير عنها!!».

«أنا لي إذن، أقصد كان لي إذن، وهذا هو السبب في أنني اشتغلت بالصوتيات.

لقد كنت حسناً فعلاً في ذلك الميدان، بل أنا حسن فعلاً. لكن ليس هناك مستقبل. حسن، أستاذي قال لي أن أحصل على عينة عنك لحفظها في المحفوظات. في تلك الفترة كنت أعمل في الكلية ولم يكن باستطاعتي أن أكون حيث تكون فقام أحد أصدقائي بالمهمة. لقد توصل إلى تثبيت مسجلة تحت كرسي ضيف الشرف في نادي القسم. ومنذ ذلك الحين فصاعداً لم يكن باستطاعتي أن أصدق أنك أنت حينما سمعتك. يالحروف المد تلك! ياللحن صوتكـ يا إلهي إنه أقرب إلى اللحن الصيني!».

«كانوا يصغون إلي بصمت كامل واحترام شديد».

«لا يا سيدي، لا أقصد ما قلته بل بالطريقة التي قلته بها. لكن فيما بعد ـ أقصد ذاك الذي قلته».

كان ريك يقف منتصب القامة، يمسك بحافة الطاولة وينحني إلى الأمام. «لقد استخدموا جزءاً من ذلك التسجيل لصالح الجماعة يا ويلف. فحين أنجزت مهمتي عرضوا الأشرطة في حفل جماعي. لا يا سيدي لست أنا الذي فعل ذلك. فلا تلمني عليه. أنا أخبرك فقط يا سيدي. والواقع أن ذلك الحفل كان المرة الأولى التي أستمع بها لما كنت تقوله، بدلاً من التقاط الوحدات الصوتية، إذ كنت حين ذاك قد مرضت مرضاً حقيقياً من الوحدات الصوتية».

في تلك اللحظة اكتشفت أنني كنت قد وقفت أيضاً، فجلست متثاقلاً.

«عمل شرير، شرير حقاً».

«كلا يا سيدي. إذ باستثناء الأصوات لم يكن الأمر مضحكاً إلا فيما يتعلق بالتطابق الزماني والمكاني. فقد كنت ماضياً في الكلام عن النظام الاجتماعي البريطاني ـ وقلت: البريطانيون إغريق، والأمريكيون رومان، ثم تابعت كلامك عن «المعصومية السبارطية» لجهاز الخدمة المدنية، فأعطيت أمثلة عن إخلاصه التام، شأنه شأن الموظفين المحافظين تقليدياً الذين ينظمون تأمين الصناعة لصالح الاشتراكيين. وبالطبع، حين شغلت الشريط في حفلتي، حينها فقط عرفنا تماماً الطريقة التي كان بها جهازك المدني مليئاً بالفيلبيين[1] هو الآخر. فجهازك المدني لم يسقطك في البراز وحسب بل أسقطنا نحن فتباً لك ولنبرتك، نبرة البحار الإنكليزي!».

ولشدة دهشتي وجدت أنني كنت أمسك بالطاولة من جانبي تماماً مثلما كان يمسك بها من جانبه.

«منتهى الحماقة منك يا ريك، إن تسامحني على نبرتي المعقدة هذه. لكنك تماديت، أليس كذلك؟ والآن نحن على علم، أليس كذلك؟».

كانت النار قد بدأت تخمد في داخله، وكان يفرغ شيئاً

---

(1) مفردها فيلبي: جاسوس معروف عمل لصالح الاتحاد السوفييتي في بريطانيا.

فشيئاً عائداً إلى تلك الحالة التي أرى الآن أنها ليست حالة الفارغ الجوف، الجاهل الذليل، بل حالة من لا يمكن النفاذ إلى داخله. كنا نعلم.

«لقد فضحت نفسك يا بني. النبيذ في صحن الفنجان إن أردت».

لكنه ظل ساكناً ينتظر.

تكر. تكر. ابن الزنى تكر.

«لا نبيذ في الصحن، لا تفويض بالسيرة الذاتية، لا رسائل من ماك نيس، شارلي سنو، باميلا، أوه! صندوق كامل بأشياء كهذه! قراءات مختلفة! المخطوطة الأصلية لكتاب «كلنا يحب النغم» وهي تختلف اختلافاً جذرياً عن النسخة المنشورة. صور شمسية، يوميات يعود تاريخها إلى الأيام التي كان فيها ويلف تلميذ مدرسة، أسعد أيام حياتك يا نكرة، ستكون حين تستطيع أن تنشب مخالبك فيها ـ سترضي هاليداي تماماً. وسوف تكون قادراً على النهوض عن الأرض، عن ركبتيك. أبواب السماء ستنفتح لك».

«شهرة معقولة».

«منحة دراسية».

«حفلات».

بتثاقل مد يده وبتثاقل صب الدول في أحد الصحون الصغيرة.

«ضعه على الأرض».

وللمرة الأولى في حياتي رأيت عينين تمتلئان دماً بكل ما في الكلمة من معنى. كانت هناك أوعية دموية في زوايا العينين وكانت قد انتفخت، فخيل إلي لبرهة من الزمن، أنها قد تنفجر. عندئذ ضحك ضحكة أشبه بالفرقعة، فضحكت معه. صحت به: عو... عو... فرد لي النباح وضحكنا ثم وضع الصحن على الأرض وهو ما يزال يضحك. بعدئذ ركع على ركبتيه وقد أدرك ما أبتغي منه. وكان باستطاعتي أن أسمع صوته وهو يلعق النبيذ.

«كلب رائع أنت يا ريك، كلب رائع!».

فشب على قدميه قاذفاً الصحن في وجهي، لكنني كنت أعلم من أنا فمرق الصحن بجانب أذني حيث صدم الستارة وهوى على الأرض، إلا أن السجادة كانت سميكة إلى حد يكفي لتلقيه دون أن يلحق به أذى. وهكذا لم ينكسر الصحن بل راح يتدحرج ضمن دوائر متناقصة الأبعاد إلى أن هوى أخيراً وقاعدته على الأرض فيما انهار تكر على الكرسي، وقد انكمش أكثر بكثير من أية مرة رأيته فيها من قبل، متضائلاً من كل جانب من جوانبه بحيث بدت ثيابه ذاتها وكأنها تتدلى من على كتفيه كشراع تخلّت عنه الريح. وضع وجهه بين يديه. حينذاك فقط استطعت أن أرى أنه شرع يرتعش كمن تملكته رجفة شديدة. كلب. كان يجلس هناك، منحنياً إلى الأمام، وجهه بين راحتيه مرفقاه على الطاولة الملمعة.

عدت بانتباهي إلى عدم التحمل وبكل تغطرس سألت.

كيف ذلك؟

كانت الدموع تنحدر من بين أصابعه، قطرات تتساقط بصورة مباشرة أحياناً على الطاولة لكن في أحيان أخرى كانت تمتصها الشهقات فتتطاير مع الرعشة في الهواء وبذلك تقطع نصف الطريق باتجاهي. شيئاً فشيئاً راح صوت بكائه يعلو إلى أن بات صاخباً. لا، لم أكن في حياتي كلها قد سمعت صوتاً عميقاً إلى ذلك الحد قاسياً إلى تلك الدرجة لكأنه صوت عظم يتحطم. كان قد استنفد كل ما في جسمه من رغبة فسقط مسترخياً وقد انزلق مرفقاه إلى الوراء، وانبسطت راحتاه على كلا جانبيه وتسطحت وجنته على الطاولة.

«أنت، هناك، هل تستطيع سماعي؟».

فانزلقت راحتاه عن الطاولة مرة أخرى، وكان باستطاعتي أن أتخيل ذراعيه وهما تتدليان نحو الأسفل تدق عقد أصابعه بالأرض كعقد أصابع سعدان.

«قلت، أنت، هناك، هل تستطيع سماعي؟».

«أستطيع سماعك».

ثم رفع نفسه إلى الأعلى إلى أن غدا جالساً، متكوماً، دون أن يرفع ناظريه إلي. مع ذلك نظرت إليه، فإذا بوجهه قد تبلل بالدموع وعيناه حمراوان إنما زال من أوعيتهما الانتفاخ، وبدا فيهما ما هو أشبه باللطخ.

«هل ينبغي علينا الآن؟ أظن أنني أرغب في النوم أو بشيء ما».

«لنتناول كأساً أخرى».

لكنه هز كتفه.

«لا، لا».

فأعدت النظر بورقتي من جديد.

«سأجعلك الوصي على أعمالي الأدبية، ربما بالاشتراك مع وكيلي إضافة، ربما، إلى ليز أو إيمي كما سأفوضك بان تكتب سيرتي الذاتية وأنا على قيد الحياة لكن مع تحفظات لم أضع تفاصيلها بعد».

فتثاءب ريك. تثاءب فعلاً!

«انتبه، يا بني!».

«آسف».

«بعد أن أجري الاستشارة القانونية بخصوص الصيغة الملائمة للوثيقة التي ستوقعها، سأتصل بك مرة ثانية، كي أحدد مكاناً نلتقي به. هل هذا واضح؟».

فهز رأسه.

«حسن، اتفقنا إذن. اذكرني عند هيلين إن رأيتها مرة ثانية. وانقل أطيب تمنياتي للسيد هاليداي بوصفها تمنيات صرّاف إلى صرّاف آخر. فأنا أتصور أن لديه مصرفاً».

«بل لديه مصارف».

«قل له أن يحافظ على حسن سير العمل. ذكي صاحبك، السيد هاليداي. أم أنني قلت ذلك من قبل؟».

«نعم يا سيدي».

«استعادة كاملة للذكرى يا ريك. حسن، أتصور أن الأمر انتهى، ما لم يكن لديك، بالطبع، استفسارات ما؟».

«نعم يا سيدي ـ يا ويلف. متى تقدر أنه سيحدث ذلك؟ فالوقت ـ».

«من ذهب. لكن ليس وقتي. فهو ليس من ذهب. مع ذلك، في حالتك أفترض ـ حسن ربما أسبوع أو أسبوعان أو شهر ـ أو شهران. لا أبعد من ذلك. لكن ما الفرق بالنسبة إليك؟ فليس لديك عمل ثابت. أنت أستاذ الجامعة السابق».

«لكنك قلت يا ويلف، ذكرت أن هناك تحفظات».

«نعم. تحفظات بشأن السيرة الذاتية فقط. كما تعلم. فلا تزعج نفسك بها».

في تلك اللحظة تطلع إلي بسيماء البائس المحترس.

«بودي أن أعلم يا ويلف. إن كان لا يضرك أن تذكرها».

«ذلك معقول يا ريك، فقد فكرت أنك قد تود معرفتها قبل أن تلتزم. الآن سأذكر التحفظ الأول بحيث يمكنك إمعان النظر به. سأعطي تسجيلاً حراً وكاملاً

لحياتي دون أن أخفي عنك شيئاً وبإمكانك أن تكتب ما تشاء حول ذلك. لكنك ستقدم تسجيلاً واضحاً للفترة التي عرضت فيها ماري لو علي وقبلت العرض. ستكون السيرة الذاتية، بالحقيقة، ثنائية يا ريك. وسوف نبين للعالم من نحن ـ رجال من ورق، كما يمكنك أن تسمينا. ما رأيك بهذا العنوان؟ فكر يا ريك ـ فكر بكل أولئك الذين نكبوا بقمل مثلك عشش في شعورهم، بكل أولئك الذين تعرضوا للتجسس، للملاحقة، للكذب عليهم، بكل أولئك الذين يُعرَضون على الجمهور العريض ـ سوف يُنتقَم لنا يا ريك، سوف يُنتقَم لي منهم كلهم ها... الخ... في هذه الغرفة بالذات يا بني ـ ماري لو وأنا نمضي للنوم، لإغواء الرجل العجوز، ريك تكر الذي أثق كل الثقة بأنه سيسليك. هل انتحلت ذلك أيضاً، سرقته من الشاعر القديم الذي لا تجد مانعاً أن تعلق حذاءه لا لشيء إلا لكي تقول إنك تعرفه؟ إنها تجارة يا بني. أنا وأنت. حياتي لديك. لا تقل إنك لن تفعل ذلك. فأنت مضطر لأن تلعق الصحن إلى أن تنظفه، كما فعلت بذلك الصحن الذي لم تستطع رميه مباشرة. الآن أنت تعلم، فامضِ ثم عد حين أدعوك. سأصفر لك».

بعدئذ خيم الصمت ثانية. كان لدي الوقت الكافي لأن أفكر بأن رجلاً حقيقياً له جسم ريك يمكنه أن يرفعني من قبتي ويلقي بي من فوق الشرفة فأتهشم. لكن ريك

رجل من ورق، ليس فيه أثر من قوة، وكنت في أمان. كنت في سلام. فهو لم يكن قوياً أو حاراً بل ولا دافئاً. لم يكن ريك قاتلاً، ربما كان بإمكانه أن ينتحر، إن كان بإمكانه أي شيء، لكنني شككت حتى في ذلك. فالانتحار ينجم عن علة في الصحة العقلية وريك بكامل قواه العقلية. كان ثمة جانبه الوحيد ـ لا. كان ثمة شرخ. كان ثمة مراكش.

حينذاك كان الرجل يقف ملء طوله، فرأيت أنه عاد ينتفخ بعد ذلك التفريغ. أتراه سيغدو ما يدعوه جوني (بالقاسي) ويوقع بي الأذى؟ لكن لدهشتي الشديدة وجدت أنني لم أكن مبالياً. كنت أراقبه، عيناي بعينيه، ربما للمرة الأخيرة، كما خطر لي. لقد ثبتته بكل ما في عين الإنسان من قوة وهي تنصب على حيوان. وهكذا، أطرق بناظريه أخيراً ثم استدار إلى الباب. بعد ذلك، وفي اللحظة التي وصل فيها الباب استدار فجأة منتفخ الصدر، بدلاً من أن يمضي قدماً كما كنت أتوقع، ثم أطبق قبضتيه شاداً إياهما، صارخاً بي:

«أنت يا بن الزنى! يا ناكح ـ أمه».

ثم مضى لا يلوي على شيء.

حسن، حسن، فكرت! إذن، ثمة لحظات يفاجأ فيها الإنسان حتى بحيواناته الأليفة. ففي بعض الأحيان تكون مثل البشر تقريباً، ثم يمكنك أن تقسم بأنها تدرك ما تتحدث عنه.

فيدو العزيز! طبعاً هي لا تعض قط، بل تكتفي بالزمجرة على سبيل المداعبة، تعصر يد سيدها بفكين لا يؤذيان. إضافة إلى ذلك، فهي توفر له الرفقة.

رجعت بظهري إلى الوراء ثم جلت بناظري في غرفة الجلوس التي كنا نخوض فيها مبارزتنا برماح من ورق أو في أحسن الحالات برماح عتيقة صدئة. كان الصحن ما يزال على السجادة. وكان في تلك اللحظة أشبه بتلك الأشياء التي تلقت المانا، سر القوة. لعله كان أحد الصحون الطائرة، صحناً يزور الأرض. يااللجحيم! لكن ماذا عن قطرات الماء التي كانت ما تزال على الطاولة؟ بعضها كان ملطخاً بشيء آخر كما رأيت. أما البقية فكانت قد جفت دون أن تترك سوى أثر ضئيل من تلك الأملاح التي كانت تحويها، آخذة شكل البقع. في عالم السحر، ربما كان لقطرات كهذه تأثير كبير. دموع عذراء؟ إن تستطع أن تجد دموع رجل ناضج، يا بني فاجمعها حين يصبح القمر بدراً تاماً. إنها العلاج الشافي من الضجر، الإدعاء الفارغ، السأم من الدنيا: إنها الدواء الناجع لعدم التحمل القديم ذاك الذي يولي الأدبار بتلك الوسيلة.

سكبت لنفسي بعض نبيذ الدول، ثم شرعت أتفحصه فخيل إلي أنني بشكل من الأشكال لا أريد أن أشربه وأن الشراب نوع من السخف. إذ أصبحت في اللحظة التي غاب فيها ريك عن ناظري أكثر وعياً للسلك الفولاذي في داخلي

وفي تلك اللحظة خيل إلي أنه لم يكن مشدوداً إلى أقصى درجة وحسب بل كان يحز في صدري، أعمق فأعمق. حينذاك نسيت ريك وأنا أركز على السلك الذي كف في تلك اللحظة، وبفعل قوة سحرية عن أن يكون ذا طول كبير وعرض قليل بل غدا يزداد عرضاً إلى أن أصبح على شكل شريط ثم نطاق، بعدئذ شعرت وكأنه يحكم الطوق حولي جميعاً، يطوق حتى رأسي، رأسي ذاته. حينذاك بدأت أرتعش، أصرخ، ألمس بأصابعي أزرار بنطالي مثل طفل صغير في دار لحضانة الأطفال.



الفصل الثالث عشر

هذه القطعة لا يمكن وصلها. ذلك أنني، بكل بساطة، لا أستطيع أن أتذكر تسلسل الأحداث التي أعقبت لقاءنا الثاني في وايسولد. فالبرقيات كانت تأتي متقاربة للغاية. متلاحقة للغاية. لهذا، علي أن أستعيد تذكر المشاهد وكأنما لدي بكرات فيلم تفصل بينها فجوات كبيرة. أحد المشاهد حدث في زيوريخ حيث التقيت بمحامية رغم أنني لا أتذكر كيف. حين اكتشفت تلك المحامية مضمون ذلك الاتفاق، نظرت إلي وكأنها تريد أن تشتريني أكثر مما تقدم إلي خدمة. ضئيلة الحجم كانت تلك المحامية، متغضنة الوجه، واحدة من تلك النساء اللواتي يجمعن بين القبح المفرط والأنوثة المفرطة. أنا لا أعني أنها كانت (بمنتهى القبح) فذلك يضع الموضوع مباشرة ضمن إطار من اللخبطة الجنسية وهو أمر لا شأن لنا به ولم يكن لنا شأن به. كانت تلك المحامية توحي لك بنوع من الأمان ـ ذاك النوع الذي ربما ينشأ من سير أمورك سيراً حسناً رغم افتقارك لبعض الخواص الأقل جاذبية، كالحاجة إلى الانتقام مثلاً، النجاح أكثر من الناس الآخرين، التحصن منهم أو اللامبالاة تجاههم. أنا أتذكر تفكيري حينذاك بأنه أمر رائع أنني لم أعد أنزعج بأن أكتب على نحو جميل كتاب ويلفريد باركلي نظراً لأن تلك المحامية كانت كائناً حقيقياً وغير مفيد للروائي إذ أن الروائي لا يستطيع وصف أمثالها كما أن أمثالها لا

يتحملون مشقة وصف أنفسهم، فوجودهم قائم على صمتهم أكثر مما هو قائم على كلامهم. لكنه ما يزال غامضاً في ذهني كيف جعلتني أدرك أنني لست بحاجة للوثيقة البتة، بل يمكنني ترك القضية حيناً من الزمن طالما أنه ليس لدي نية لمقابلة ريك مرة ثانية قبل أن يرتخي السلك الفولاذي قليلاً. كما أتذكر حين انتهاء فترتنا معاً حسدي الشديد لها، وهو أمر يمكنك أن ترى أن المرأة ليست بحاجة إليه!

الشيء الآخر، أو البكرة الأخرى التي أحملها من زيوريخ تدور حول مقبرة. ليست المسألة هنا هو أن شاهدة القبر كانت تحمل تاريخ ميلاد الرجل ولا شيء آخر. في وقت لاحق تذكرت التاريخ فوجدت أنه تاريخ ميلادي نفسه لا ريب في ذلك. كنت أجلس في واحد من تلك الفنادق البلاستيكية التي تلقاها في المدن الكبيرة ثم أنظر إلى تلك الشاهدة بعين خيالي فأقرأ التاريخ رقماً رقماً. وكان هناك فراغ ترك للبقية. لهذا عدت أدراجي مرة ثانية راكباً سيارة أجرة ولابد أنني صعدت عالياً كي أعبر الجبال وذلك على ما أظن ـ لأن عربة موتى كانت تلاحقني باستمرار ثم رغبت منها على ما يبدو باتخاذي طريقاً جانبياً، من تلك الطرق التي لا يستخدمها إلا رجال الغابات. هنا تعتور ذاكرتي بعض الفجوات إذ أتذكر أنني انحدرت على السطح الإيطالي فوجدت خط الشجر أمامي مباشرة. الله وحده يعلم أين كنت. بعدئذ توقفت لأنني لمست حركة ما في الأرض. فحيثما كنت، لم يكن هنالك تراب بل طين. كان الدرب عبارة عن حجارة تتخللها برك طين قذرة هنا

وهناك ونتوءات صخرية غير مريحة لسيارة الأجرة بالتأكيد. حسن، كنت أجلس على مقعد السائق وكنت أرى الجذور العتيقة وقطعاً من جذوع الأشجار أو أغصانها تبرز برؤوسها من الطين فوقي وأمامي لكن ما يلفت النظر أنها كانت تتحرك. بعدئذ رأيت أن الطين كله كان يتحرك نحو الأسفل والجلد يتمزق ثم يرتق نفسه والعصي والأشياء تتلوى كما لو أنها تتألم أو تلوح بأيديها طلباً للمساعدة وليس ثمة مساعدة على الإطلاق. لم يكن قد خطر ببالي أنه يمكن للمرء أن يواجه تيهورا[1] من طين لكن ذلك ما حدث. الأمر الذي أفقدني سيارة الأجرة فقد قطع الدرب بحيث لم يعد باستطاعة حتى الدبابة أن تعبره. بعد ذاك تعين علي أن أزحف على بطني كالحية، أتزحلق، أتسلق، أنزلق إلى أن وصلت إلى عمال إيطاليين يصلحون الطريق عند أسفل الجبل هناك، شرحت لهم أنني تركت سيارتي في الأعلى فضحكوا مني هازئين فقد كان في ظهوري أمامهم الكثير مما يثير الهزء.

ثمة بكرة أخرى تدور حول رجوعي إلى النزل الضخم ورؤيتي الحلم نفسه يتكرر المرة تلو المرة. لابد أنني أقمت هناك أسابيع، إذ كانت فيه الكثير من صفات التجريد، أعني مكان إقامتي الذي كان ينبثق على شكل بروز من الأسمنت المسلح خارج من مجهل كامل من الأسمنت المسلح. في هذا الحلم رأيت نفسي وكأنني في مراكش حيث لم أذهب البتة من

---

(1) التيهور: كل كتلة ضخمة تنزلق وتنهار مسببة الأذى ككتل الجليد أو الصخور... الخ.

قبل، وكنت أجري هرباً من ريك الذي كان يطاردني بعربة موتى. الطريق الوحيد الذي كان متاحاً لي هو أن أمر باتجاه الصحراء حيث لا توجد طرق ولا يستطيع اللحاق بي. هناك قضيت بقية الحلم. حلماً بعد حلم رأيت، وكل منها مختصر مبتسر إلى أن رأيت نفسي وقد أصبحت في قلب الصحراء تماماً، الصحراء في كل مكان وهي بالضبط لب تجربة الضيق. أعتقد أنني كنت عارياً على الدوام إذ لا أتذكر (أو أتخيل مرة ثانية) أنه كان ثمة أي ثياب. كنت أحس بالقسر. لا، ليس ذلك القسر الذي لا جذور له، لا هدف له، لا يمكن وصفه، والذي تعرفه في الأحلام والكوابيس عادة، بل هو قسر منطقي مبني على حقائق. أنت تعلم ولا شك تلك الممرات من ألواح الخشب التي يصفونها في بعض خلجان الأقاليم الحارة بحيث يمكنك بلوغ البحر دون أن يتلوث أخمص قدمك؟ حسن، هنا لم يكن أي ممر، بل فقط الرمل الذي كان حاراً جداً، بل بالغ الحرارة بل حاراً كالفرن. كذلك لم يكن ثمة سماء يمكنني رؤيتها فوق تلك الصحراء وإن كان هناك سماء، فإن انتباهي كان مشدوداً كلية للرمل، فهل تدرك الآن فكرة القسر الذي عنيت؟ يا إلهي! كم كان علي أن أنط، أرقص، أجري، أقفز للأعلى وللأسفل! إذ كان أفضل وضع لي أن أكون في الهواء إن كان الهواء هو الذي كان يمتد فوق الرمل. كان إخراج قدمي من الرمل خير ما أستطيع فعله نظراً لأنني حتى في الحلم لم تكن لدي قدرة على تعليق قوانين الجاذبية. لكن باستخدامي

لكل مالدي من ذكاء حلمي شديد، توصلت إلى حل وسط هو أن الزمن يمكن أن يكون حلاً للمشكلة. وهكذا انثنيت نحو الأسفل متحملاً احتراق قدمي ثم بدأت أحفر بيدي في الرمل وبدا من المنطقي في حينه أن ذلك العمل سيؤدي إلى صنع حفرة عميقة مدلهمة إلى حد يصيب بالمرض، مثل حفرة في الكون نفسه. لكن الرمل لم يكن حارقاً كما فكرت أنني إذا ما حفرت حفرة كافية سيتوفر لدي من الفراغ ما يكفي لوضع قدمي والتخلص من الرمل الحارق، وفي تلك اللحظة استيقظت. فعندما كنت أحرك الرمل بيدي كنت أجد أحياناً أنني أكتب لغة غريبة وأحياناً أرسم لوحات، مما أعطاني فسحة من فراغ لقدمي كلتيهما وبالتالي استيقظت. غير أن مشكلتي الحقيقية بدأت حين أخذت من الأقراص ما يكفي لطرحي أرضاً فقد كان ذلك يعني أنني لم أحلم بما كان هو لب الموضوع طبعاً. كانت الأحلام تنتظرني باستمرار كلما نمت، كما كانت تنتظرني عندما أستيقظ فتتراءى أمامي في الحانة أو تطوف هناك حول المجهل الاسمنتي الذي لم يكن باستطاعة يدي مهما حاولت أن تصنع حفرة فيه، لذلك، كان كل ما أفعله هو أن ألفت الانتباه إلي، كان علي أن أتحرك قدماً، وكانت الأحلام تتحرك هي الأخرى قدماً.

التخاطر موجود، لابد أنه موجود وإلا ليس هناك ما يفسر لماذا يجب أن تكون بكرتي التالية تدور حول المكان الذي قضيت فيه أنا وليز شهر عسل في السنة التي سبقت زواجنا.

ذلك المكان كنت أتجنبه منذ طلاقنا. أنا لست عاطفياً، ولو كنت، فأي جحيم كنت سألقي بنفسي فيه وأنا أرجع إلى المكان الذي بدأ كل شيء فيه؟ بشكل من الأشكال وجدت نفسي هناك. عرفوني بعد لأي. فقد التقط أحدهم، مستخدماً بعض الوسائل الخارقة للعادة، بطاقتي المذهبة من جواز سفري، تلك التي كانت كل ما حملته معي حين غادرت سيارة الأجرة الأخرى. هكذا إذن، وجدت نفسي في الفندق ثم انتقلت إلى فندق رخيص وجعلتهم يرسلون حقائب بريدي. لقد سرت كلا الطريقين.

نسيت أن أقول أن هذه البكرة تدور حول روما، لا، ليست روما، المركز الديني، التي نعرفها بل روما الفندق. إنك تصل إلى ساحة لا أدري ما اسمها حيث ينبثق نبع من وسط قارب صغير ثم تصعد الدرج وفي الأعلى تجد الفندق. في الأعلى أيضاً تجد كنيسة لكن الزجاج ملون والفندق مقبول، مقبول إلى حد بعيد. إنه فندق إدارته مفرطة التفهم. لقد أدخلوا سيارتي الأجرة إلى الداخل ثم أعطوني الغرفة التي طلبت، غرفة ذات شرفة، ذلك أنك حين يكون لديك أمور لا ترغب بالتفكير بها، يمكنك دائماً أن تنظر من الشرفة إلى المناظر المواجهة وتصب جام كراهيتك، طبقاً للمألوف، على تمثال فيكتور عمانوئيل على الرغم من أنه خير من معظم الآثار العمرانية الزرية الأخرى. هنا يمكنك أن ترى أنه لا ذوق لدي. ففي حالتي تلك كانت صحرائي ما تزال تعترض الطريق الذي يعبره ناظراي إلى المناظر المواجهة. هنا أمر جدير بالملاحظة،

وأعتبره نوعاً من الظاهرة التي تمثل ظاهرة بادري بيو وويلفريد باركلي، موظف المصرف. والحقيقة هي أنني حتى عندما كنت أستيقظ وأصحو، كانت قدماي تؤلمانني وكذلك يدي، الأمر الذي جعلني في الحلم أبدل يداً بيد حين أكتب أو أرسم. لكن ذلك لم يفعل سوى أنه جعل يدي كلتيهما تؤلمانني. لهذا كنت أقضي الكثير من الوقت في الحمام جالساً على حافة الحوض، صنبور الماء البارد مفتوح على رأسي وقدماي في الماء وإحدى يدي تحت الصنبور. هذا العلاج أفادني بعض الشيء، والحقيقة علي أن ألفت انتباهكم إلى حادثة أخرى من تلك الحوادث المضحكة التي تعرض لها ويلف، فقد كان على جسمه علامات كعلامات القديس فرنسيس الاسيسي إنما معكوسة إن جاز لنا القول، لكونها علامات تدل على أنه ابن زنى ناكح ـ لأمه، كما قال صديقي المفضل، وليست علامات صلاح وخير. إنني ألبسها لباس النكتة رغم أنه لا حاجة لذلك، بالحقيقة. فهي نكتة فعلاً، لكن صدقوني ليس فيها ما يضحك. فالموقف كله كان خارج يدي تماماً. إنني أتذكر ذات مساء ـ لا، هذه بكرة أخرى لا علاقة لها بتلك.

ذات مساء، حين أشرفت قدماي ويداي على الشفاء وبات باستطاعتي أن أرى خط الأفق، كنت أجلس في الشرفة وأنا أحاول تجميع الأشياء معاً. كنت قد وجدت نفسي وأنا أطوف في روما ذلك الصباح باحثاً عن معجم (شخصيات أمريكا) وكل قصدي أن أتعرف إلى شخصية هاليداي. أخيراً اكتشفت الدرج من جديد، فوجدته مليئاً بالمشردين،

الهيبيين، المنبوذين، الساقطين، الضالين، التائهين، الطلاب، مثلما هي العادة، وكل منهم يتأبط غيتاراً ويعزف عليه عزفاً رديئاً أو يحاول بيع الأشكال الصفيحية التي نشروها على الدرج من عقود أو خواتم أو أقراط أو حلي أنفية، إضافة إلى سجادات من الزهور الاصطناعية وما شابه. كان الشغل على قدم وساق لكن ما من أحد انتبه إلي أو حاول أن يبيعني شيئاً، وأعتقد أنهم كانوا سيفعلون ذلك لو بدا علي أنني قادر على شراء شيء. لكنني برؤيتي لهم أدركت كم ينبغي أن يكون شكلي خطأً وهكذا صعدت إلى شرفتي ثم وضعت رأسي بين راحتي وأطرقت أفكر. بعدئذ قررت أن استخدم دفتر يومياتي كي أجعل الأمور تستقيم علني أفهم حقيقة الداء. حينذاك، طبعاً، تذكرت أنه لا يوجد لدي دفتر يوميات وخطرت ببالي صورة سريعة (بكرة) عن نفسي وأنا أتجول هنا وهناك في سويسرا وإيطاليا أكتب يومياتي على صفحات دليل الهاتف أو الجدران أو نوافذ السيارات أو محارم المراحيض ثم أتجول حيث يوجد مكان للتجول. كذلك خطرت في ذهني لمحة لمحت بها نفسي ذلك الصباح بالذات وأنا أقلب صفحات معجم الشخصيات الأمريكية ـ ترى لماذا لم أدرك في حينه المعنى الرهيب؟ فالصفحة التي كان ينبغي أن تحوي معلومات عن هاليداي كانت فارغة، فارغة، ورقة بيضاء تماماً! أوه! في تلك اللحظة قفزت أجري بقدمين أو بلا قدمين، منقباً بناظري في الكنيسة نفسها ذات الزجاج الملون ولشدة دهشتي وجدته هناك يقف في الأعلى. شققت طريقي عائداً إلى ـ غرفة النوم

عن طريق الشرفة، ثم جلست على السرير، وهو هناك يحترق ويرتعش. بدأت أرتجف، ثم قلت لنفسي أن علي أن أبقى مستيقظاً ذلك أنني إذا ما غفلت فإنه، بكل بساطة، سيمر من السقف ويستعيد سيطرته علي. كذلك استبعدت الأقراص والشراب، بالطبع، لأن أياً منهما أو كليهما يمكن أن يجعلاني عاجزاً كل العجز عن مقاومته إذا ما أراد أن يعبر السقف إلي. هذا الاعتبار الأخير شدد الحصار علي، جعل الطوق يضيق حولي. لا أدري كم مر من الزمن علي وأنا أرتجف وأحاول البقاء مستيقظاً. كل ما أعرفه أن امرأة دخلت الغرفة كي تسوي السرير لكنني كنت ما أزال جالساً عليه ولم يكن بحاجة إلى أي تسوية، إذ أنني لم أمس الفراش، الأمر الذي جعلها تغادر الغرفة مرة ثانية. بعدئذ جاء رجل آخر لكنه جاء من الفندق وليس من السقف المجاور. لذلك لم أخف منه بل تجاهلته. في الحرب ظهرت لي بثرة، أوه! بثرة لعينة كانت، ونتيجة لجرح أصبت به. البثرة تورمت، كبرت، إلى أن جاء حين ـ وربما لنصف ساعة من الزمن ـ أحسست فيه بأن الضغط الصادر عن قلبي يدفع الصديد دفعاً شديداً باتجاه الجلد إلى درجة كان الألم معها كافياً لأن يفقد المرء رشده. أنا أتذكر أنني لم أعد قادراً على الاعتقاد بأن هناك مجالاً لأن يشتد الألم مع ذلك فقد اشتد، ومع اشتداده كان التضيق يشتد، يشتد، يشتد، إلى أن غفوت، على ما أظن، أو دخلت في حالة لم أكن فيها واعياً أو كنت بكل بساطة، قد جننت. يمكنك القول إنني كنت أحلم.

كنت أحلم بأنني أقف على السطح المجاور حيث كان هاليداي واقفاً. وكنت أتأمل الدرج في الأسفل. ضياء الشمس يغمر المكان، ليس ضياء شمس روما، ذلك الضياء الكثيف، بل هو نوع من الألق الذي يوحي وكأن الشمس في كل مكان. لم أكن قد لاحظت من قبل، لكنني في تلك اللحظة وأنا أنظر إلى الأسفل، لاحظت أن الدرج يسير وفق انحناءة متناسقة تشبه انحناءة آلة موسيقية كالغيتار أو الفيولين. ذلك الشكل المتناسق كان يوشيه ويتداخل معه، هنا وهناك: الناس، الأزهار، الجواهر المتألقة المتناثرة على الدرج. كان الناس جميعهم من الشبان والشابات وجميعهم يشبهون الأزاهير. أخيراً اكتشفت أننا كنا نقف جنباً إلى جنب على سطح منزله، بعد ذاك نزلنا معاً ثم وقفنا بين الناس مع عينات الجواهر وأكوام الأزهار التي كانت كلها تشع ألقاً من الداخل ومن الخارج. بعدئذ استنبطوا موسيقى من الدرج. إذ أمسك بعضهم بأيدي البعض الآخر وراحوا يتحركون فكانت الحركة موسيقى. نظرت فرأيت أنهم ليسوا ذكوراً ولا إناثاً أو ربما كانوا ذكوراً وإناثاً معاً ولم يكن الأمر بذي أهمية. المهم هو الموسيقى التي كانوا يصنعون. ذكور أم إناث، الأمر لا يهمني، هكذا قال، ثم أمسك بيدي وقادني إلى أحد الأطراف. هناك كانت الدرجات تنحدر، ثم تضيق وهي تنحدر باتجاه باب مصنوع من جلد طبل. اجتزنا الباب فواجهنا، على ما أظن، بحر ساكن داكن. منذ تلك اللحظة لم يبق لدي ما أتكلم به سوى المجاز والاستعارات. فقد كان البحر مليئاً بمخلوقات تغني، أما ما كانت تغنيه فأمر لا يستطيع الكلام التعبير عنه.

أفقت من نومي وأنا أبكي لا أغني، أو يستحسن أن أقول إنني كنت قد بكيت وكنت ما أزال أبكي. وسواء صدقتم أم لم تصدقوا فقد وجدت نفسي حين أفقت أكثر سكراً مما كنت حين ذهبت إلى الفراش وكانت دموعي قد فاضت إلى درجة اضطررت معها، حين عرفت مكان وجودي، لأن أتلمس الفراش كي أتأكد إن كنت قد بلت تحتي أم لا. كان غطاء السرير والوسادة مبللين بالدموع كما تصف لنا الروايات. بل حتى البثرة كانت قد انفجرت وكان الألم والضيق قد وليا إذ كنت قد عرفت طريقي أو بالأحرى الاتجاه الذي اتخذته كما أدركت أنه لم يعد من حاجة للجري. كان باستطاعتي أن أمشي مشياً، وأوفر جهد بقية الرحلة بكل بساطة. طرُق الباب ثم دخلت امرأة حاملة كعكاً هلالي الشكل وقهوة وزجاجة من نبيذ. عندما دخلت كنت أضحك، الأمر الذي أجفلها لكنني لم أستطع أن أشرح لها سبب ضحكي، فمن المستحيل أن تصدقني. لكن الحقيقة هي أن قدمي ويدي لم تكن تؤلمني ذلك الألم المبرح. كان الألم ما يزال موجوداً لكن كما لو أن طبيباً وضع نوعاً من المرهم عليها، غدت تؤلمني ذاك النوع من الألم الذي يوحي بدنو الشفاء. أنا لا أعتقد أن هناك تفسيراً علمياً، رغم أنك لو كنت عالماً لكان من المحتمل كثيراً أن ترتب تفسيراً، ولو كنت ما تزال محتفظاً بإيمانك الديني لكان من المحتمل أيضاً أن تجد التفسير المناسب، لكن يااللعنة! أنا لا أتعامل مع مجردات غامضة كالدين أو العلم، بل أتعامل مع الحياة، كما هي الحياة تماماً. أحياناً يدعون ذلك ما هو كائن

مقابل ما يجب أن يكون أي كيف ينبغي أن تكون بشرياً رغم أنك، اقتباس، مجرد سمكة لكن سمكة غريبة، انتهى الاقتباس. ذلك أيضاً لأن قدميّ ويديّ كانت تؤلمني ذلك النوع من الألم اللطيف الذي تشعر به إذا مالكزتك أربعة مرافق.

ذلك اليوم قضيته وأنا مرتد منامتي ومبذلي اللذين كنت قد أرسلت في طلبهما بعد أن اكتشفت أنه لا يوجد لدي متاع على الإطلاق. أما الأيام القليلة التالية فقد قضيتها في الفندق يحيط بي الخياطون وما شابه لكي يفصلوا لي ثياباً. كذلك بدأت التعامل مع حقائب البريد وكانت الرسالة الأولى التي فتحتها آتية من ليز. وفيما يلي أوجزها. بلغت الحال أن كابستون باورز فرّ. أنا تجاوزت الأمر الآن وأظنك تجاوزته أنت أيضاً. لماذا لا تعود؟ في اللحظة التي قرأت فيها تلك الرسالة أرسلت برقية تقول: نعم، لكن بعد بضعة أيام. فأنا أعد نفسي! سأجلس على حافة حوض الحمام ماداً قدمي في الماء ويدي تحت الصنبور البارد. فيما يجلس خياط، إن أمكنني القول، على مقعد المرحاض ونتحدث عن الحياة ومختلف الشؤون. والحقيقة أنني استغرقت أياماً وأياماً قبل أن أتوصل إلى التوافق والسعادة. ذلك أن عليك أن تكتسب الكثير من البراعة أو وجدت نفسك مجرداً حتى من قدميك. وهكذا حادثت الخياطين، الحذائين، صانعي القمصان، القبعات، الجواهريين وهي مجموعة الرجال الأشد تناغماً. كما طلبت دفتراً خاصاً لتسجيل يومياتي لكن حين حاولت القيام بذلك مالئاً إياه بذلك النوع من النثر الرائق الشفاف الذي سيجده الناس في معظم

دفاتري، آلمتني يدي أشد الإيلام فاضطررت للتوقف عن الكتابة. حينذاك بدأت أرى الأشياء تتضح أمامي. رأيت أن عدم التحمل لا يناسبني البتة وأنه ما يزال هناك كتاب ينبغي علي أو على امرئ آخر أن يكتبه، ليس يوميات بل أكثر من ذلك. وكما قال المنوم المغناطيسي قبل تلك السنين كلها، لدي استعداد تام لتقبل الإيحاء، رأيت كيف كان الإيحاء قد غير وبدل في كتبي ولاسيما (الطيور الجوارح) و(خيول في الربيع). عند ذاك بكيت كثيراً وأحسست بالخجل كله لأنني لم أكن معتاداً على البكاء والدموع. ثم تناولت الشراب وأنا أفكر أن الإقلاع الفوري عن المشروبات أمر خطر لكنني حددت لنفسي مخصصات يومية هي: زجاجة واحدة من الشراب تقريباً.

بعد ذلك كان قد حان الوقت لإلقاء نظرة على كلبي[1]. إذ لم يكن من المستحسن أن أجعله يذهب إلى المنزل قبل أن أعلم كيف سيكون وضعه مع ليز وإيمي. فخطر لي أن أحدد موعداً معه في أرخص ناد من نواديّ، أي الراندوم. كما فكرت أننا سنتحدث أنا وليز عن ريك كذلك تصورت نفسي وأنا أجلس معها إلى طاولة المطبخ تماماً كما كنا أيام زمان بأوقاتنا السعيدة وشجاراتنا.

فترة غريبة كانت تلك الفترة التي قضيتها في الفندق! فهناك كنت أجلس في الشرفة، أواجه المدينة الملونة بلون الروث، القديمة قدم الدهر، وأنا أحاول أن أفهم لماذا كان

---

(1) يقصد البروفسور ريك.

حلمي أكثر من حلم وأكثر من يقظة. بعدئذ ألقي نظرة على الدفتر وأضطر لأن أكتب، ملتقطاً قصة من قلب الفوضى، ثم أفكر بمن سيتلقاها وكيف ستكف قدماي ويداي عن إيلامي حين أنتهي - من الكتابة. بعد ذلك أعود إلى الحمام مع صينية وزجاجة، وربما أجد هناك إسكافياً جالساً على مقعد المرحاض يحمل كأساً ويروي لي أشياء ساحرة تماماً عن زبائنه فأختزن تلك المعلومات في شبكة تخزيني الذهنية ناسياً تماماً أنها لن تكون ذات فائدة لي. ودائماً يعود ذهني إلى ما يشبه الحلم. لقد بدأت أتحرك قليلاً ففسر لي الحلم، أجل، فسر لي بمصطلحات علمية، تحليلية نفسية، دينية وكذلك بمصطلحات الكينونة (تلك التي كانت آخر ما سمعت من صانع القمصان) كل الأشياء التي كان ينفي بعضها البعض الآخر أو هكذا خيل إلي. كثيراً ما فكرت بالكينونة أي ما هو كائن لكنك ستسأل لماذا هذا التركيز كله على الكينونة؟ هل أنت فوق الجدار؟ قد تسأل. أليس الواقع الموجود مناسباً تماماً لك؟ حسن، الجواب يكمن في عبقرية اللغة. فهذا ليس هو الواقع الذي تحدده المفاهيم بل إن إيراد كلمة كينونة يلغي كلمة من أسوأ الكلام الذي يعبر عن العمل اللاإرادي للوعي. لقد اخترعتها بنفسي تلك الكلمة، فالحلم لم يقع لفيلسوف بل لي أنا، فإن كل ما هو ديني، علمي، نفساني، فلسفي، مرتهن لديها، تماماً.

هو ذاك! لا، هو ذا! (Voila. Non, Voici).



الفصل الرابع عشر

أخيراً أصبحت مهيأ للخروج لكنني لم أصعد سلم الطائرة. ليس ذلك بسبب افتقاري للقدرة على الحركة فقد كنت قادراً أن أتحرك تماماً كما يتحرك رجل عجوز، أعني عجوزاً حقاً لا رجلاً في نهاية ستيناته وحسب، بل بسبب الخوف أولاً. فقد كان بودي أن أذهب إلى بيت معين لاغياً ـ أوه كم كان بودي! لقد كنت خائفاً من إنكلترا، من الربيع. وكان باستطاعتي أن أتخيل نفسي وأنا أبكي مثل فتاة واجهت مشكلة. وكذلك بسبب الضعف أيضاً لكنني قدّرت أن خير ما أفعله هو التخلص من بريدي إذ ما إن قرأت رسالة أو رسالتين منه حتى بدا لي أنه سيستغرق زمناً طويلاً. لذلك أشرفت على حرق البقية في محرقة الفندق ثم تنفست الصعداء. وكلما كنت أسأل أحد ندل الفندق إن كانوا يظنون أنه سيفيدني أن أقلع عن الكحول كلية كانوا يجيبونني دائماً: نعم، سيكون مفيداً. أنا لا أدري إن كانوا يعلمون ما يعنون تماماً بكلمة مفيد، أعتقد أنهم كانوا يعنون أنه أمر حسن وحسب. لكنني أعتقد، إذا ما أردنا الدقة، أن كل الناس يفكرون بأن الإقلاع عن الكحول أمر حسن ما عدا أولئك الذين لا يستطيعون الإقلاع عنه ويضطرون لتقديم الاعتذارات. بالنسبة إلي، كان باستطاعتي أن أقلع عنه متى شئت رغم أنني غالباً ما كنت أعود إليه بفواصل غير منتظمة، ارتدادات مؤقتة، إن جاز القول، ضمن الخطة العامة

للإقلاع عن الشراب والانطلاق من أجل الأفضل. إنها خطة حسنة وقد تمسكت بها لأكثر من ربع قرن.

لكن ـ هذه المرة! أجل، أقلعت ثانية بغية الأفضل فصارت الحياة قائمة. كنت أجد نفسي صاحياً وسعيداً، وقد ثبت لي بعد حين من الزمن أن بقاءك سعيداً باستمرار أمر كئيب مضجر لكن على المرء ألا يتذمر من الخبز ـ والزبدة، بل عليه أن يأكلها متوقعاً الكعك فيما بعد. وكان ثمة الكثير من الوقت! إذ كان يمتد ويتطاول في عمق الليل وكان كل يوم يغدو أطول وأطول فقد كنت أستلقي ساعات وساعات لا يغمض لي فيها جفن ثم أستيقظ في وقت مبكر من الصباح، دون أن أرى حلماً واحداً.

لا شيئ يستحق الذكر فيما يتعلق برحلة العودة إلى الوطن، ما يستحق الذكر فقط هو أنني حين هبطت في هيثرو، كنت خائفاً من الذهاب مباشرة إلى المنزل فقررت أن أقوم بجولة تفتيشية على نواديّ. وهكذا دخلت إلى (أثينايوم) ثم خرجت منه في الحال فقد ذكرني بذلك المكان في الجزيرة بشكل من الأشكال، على الرغم من أن الاثينايوم كان فيه، بالطبع، الكثير من النوافذ. من هناك توجهت مباشرة إلى (الراندوم) الذي وجدت أن كل شيء فيه على ماي رام تقريباً. وللمصادفة، فقد كان أول من التقيت به هناك هو جوني الذي كان يبدو أنيقاً للغاية وهو يضع شعره المستعار. رآني فهتف.

«ويلف! لابد أن هناك نوراً في النافذة!».

«ها... الخ... يا إلهي! يبدو أنك بت ثرياً تماماً!».

«وماذا عنك؟ أيمكنني أن أسأل؟».

ثم قلب بأصابعه طية صدر سترتي.

«أوه يا عزيزي! نظرة منها تكفي لإصابتي بالإغماء. كم ثمنها؟».

«لا أدري. دعك من ذلك، جوني، الساقية تنظر إلينا».

«أجل، سأتناول كأساً يا ويلف. أجل أنا أعلم أن الأنظمة هنا تمنع أن يدفع واحدنا عن الآخر. كأسي كامباري من فضلك».

«ليمون وكازوز من فضلك».

«ويلف، هل أنت على ما يرام؟».

«لقد أقلعت عن الشراب منذ فترة من الزمن. جوني، ما الذي حدث لك؟ هل عمك ذاك قد مات؟».

«ويلف، أنت لن تصدق أبداً. أنا الآن شخصية على مستوى الوطن!».

«لا تمزح!».

«أنا لا أمزح، أنا لا أمزح! أم تريد أن أصدمك؟».

«ما الأمر هذه المرة؟».

«حسن، أنت تتذكر صديقي الذي كان يعمل لدى عمتي؟».

«أيهم؟».

«ذاك الفظ الغليظ».

«ها».

«حسن. كنت أظن أننا انفصلنا على ما يرام لكن يبدو أنه أوصل الكلام على طول ـ».

«إنه من المدرسة ذاتها».

«وربما ذلك أفاد. فحسبما قلت، جربوني في هذا وذاك، في كل ما هو متاح كما تعلم، ثم، وبمحض المصادفة، جربوني في لعبة هيئة المحلفين! فكنت مذهلاً يا عزيزي! وفي اللحظة نفسها التي شعروا فيها بالحنين لأشيائنا القديمة اللطيفة، كنت أنا على أتم الاستعداد وأقسم، مركزي الآن أكبر من مركزك، بل ربما لن تصدق أنه عُرِض علي أن أتاجر بخمر الشيري! لكن ذلك للتغطية».

«ما الحقيقة إذن؟».

وكانت المرة الأولى التي أرى فيها جوني يخجل بل لقد احمر قليلاً لكنه حدق إلي ثم تهانف ضاحكاً.

«أنا جاسوس».

فضحكت أنا الآخر ثم ساد الصمت بيننا حيناً من الزمن. نظرت الساقية نحونا مستغربة وكأنما تقول في سرها كم هي قصة قذرة. أخيراً دفعته جانباً وأنا أمسح عيني.

«لا عجب إذن أنك تبدو كعشاء الكلب. أنت، جوني! أنت الذي كنت تفكر عادة بأن قولك «لي» بدلاً من «له» أشبه بإثم ترتكبه ضد الروح القدس».

«تماماً كما كان ويلفريد يقول عادة النقود حسنة، لا تنس».

«كيف كان كتابك «سابهو المحترقة»؟».

«كارثة».

«لا».

فاقترب مني جوني.

«ألا تفشي السر؟».

«طبعاً لا».

«ابنة الكلبة باعته عملياً بسعر مخفض قبل أن تنشره. أوه! العجالة هي التي جعلتني أتعامل مع امرأة بهذه البراعة».

«يا له من سوء حظ!».

«تحدثنا عن الكلاب ـ».

«صحيح، هل تحدثنا؟».

«عشاء الكلب!».

«أوه، نعم».

«هل وجدته؟».

«خذني معك، جوني».

«حسن، الآن، عمّ كنا نتحدث آخر مرة اجتمعنا فيها معاً في ذلك الفندق الذي يعود للعصر الحجري؟».

«قل لي أنت».

«كنت أقول إن عليك أن تحاول أن تحب أحداً ما وإن عليك أن تبدأ بكلب».

«آه!».

«حسن ـ هل وجدت أحداً عملياً؟ أنت ترى، لقد تغيرت. وإنني لشديد الفضول. فهيا، تكلم يا ويلف!».

«آه!».

«لا تلفلف نفسك بالأسرار والغموض متستراً بلحيتك!».

«عو... عو[1]».

«ويلفريد باركلي يسير في نزهاته مع كلب!».

«أجل، وجدت واحداً».

فدنا جوني بوجهه من وجهي وهو يشع تشوقاً وفضولاً. أخبار، أخبار، أخبار!

«ثم ـ».

«قتلته».

---

(1) صوت النباح.

رشف جوني بعض شرابه ثم تفحصني متأملاً. بعدئذ نظر عبر النافذة إلى الحديقة الصغيرة التي كانت تنعم بأشعة الشمس وتملؤها الأقاحي وبعض الأزهار الزرقاء ـ بنفسج، بنفسج رائع، ربما، ثم عاد يتأملني بنظرة رزينة هادئة.

«أمر سيء، سيء جداً جداً جداً».

في مكان ما، دق أحدهم جرس العشاء فقلت:

«حسن، سأصعد إلى زبديتي. عو... عو...».

فلم يقل جوني شيئاً.

صعدت، متجهاً بصورة آلية نحو ما كان يعتبر، عادة، مقعدي. وكان ما يزال خالياً، ذلك المقعد والطاولة التي يظللها تمثال (النفس). ذلك المقعد جلست عليه مع وكيلي ذات مرة ومع ناشري في مرة أخرى ومرة ثالثة مع كابستون باورز. تمثال النفس كان ما يزال هناك، طبعاً والنفس هي موضوعنا القيّم الوحيد، إنه من الرخام الأبيض الذي يعود لأوائل العصر الفكتوري وهو تمثال رائع بالحقيقة. كانت النفس تنظر إلى كيوبيد في الأسفل، حاملة بيدها مصباحاً كي ترى وجهه، لكن ضمن الظروف المحيطة بها كانت تبدو لي دائماً وكأنها تختلس النظر إلى قائمة الطعام أو النبيذ محاولة أن تحزم أمرها وتقرر ماذا ستأكل أو تشرب. خيل إلي أنه سيكون مكاناً مناسباً للقائي مع ريك. فهذه المرة بدا تمثال النفس وكأنه يهمس في أذني أن إبريقاً من خمر البوردو المنزلية لن يسبب لي أي أذى وكان علي أن أكافح لمقاومة إغراء تلك الخمرة. لكن، بعد كفاح مرير انتصرت الفضيلة.

كان من الطبيعي أن أستأجر سيارة وهذا ما فعلته دونما تفكير تقريباً. بعدئذ اتصلت بالمنزل فردت إيمي بالطريقة التي اعتادت أن ترد حين كنت أنسى عيد ميلادها ـ لا، لم يكن باستطاعتي أن أكلم ليز، فقد كانت مستلقية ولم يكن ينبغي أن يزعجها أحد. حسن، فكرت، لا أحد ينتظر من زوج سابق أن يعود إلى البيت دون أن يشعر بأي حرج. انظر إلى الطريقة التي أتصرف بها، إلى ترددي وحيرتي وأنا أعمل للالتقاء بها ثانية! كن رجلاً، يا بني!

وهكذا نزلت سائقاً على طريق السيارات الجديد الذي جعل المنظر العام أو ما يمكن أن أراه من المنظر العام غير متميز تقريباً. فحيثما كنت أنظر إلى ما وراء الأبنية الإسمنتية، كانت إنكلترا تبدو لي وكأنها لا تنتج شيئاً سوى النرجس الأصفر، فالنرجس الأصفر في كل مكان. كلباً سعيداً متفهماً كنت. عو... عو... يسوق عبر إنكلترا، تلامس يداه المقود بأخف الطرق الممكنة. قدماي لم تعودا تؤلمانني قط وكنت أفكر. أجل، كنت أفكر أن ذلك معقول ـ فأنا ذاهب إلى البيت!

عند الباب لاقتني إيمي، فبدت أشد قصراً وبدانة وكلوحاً مما كنت أتذكر. قبلتها على وجنة جامدة باردة فرأيت أنها كانت تبكي.

«أين هي؟».

«في الغرفة الطويلة».

ثم جعلتني أدخل بهيئة من لم يعد له شأن بقضية ميؤوس منها أصلاً. الغرفة الطويلة هي بالحقيقة غرفتان اندمجتا في واحدة. كانت ليز تقف في الطرف البعيد منها حيث الزاوية الأشد عتمة تلك التي جرت إليها ولابد حين سمعت صوت السيارة، وكانت تغطي وجهها بيديها. تقدمت صوبها فصاحت بصوت حاد.

«لا».

فاعترضت.

«كنت أود فقط أن أريك بذلتي. سيت جون كاد يغمى عليه».

«هذا أنت، لم تتغير قط. ولا شيء يؤثر فيك. لكن هذا ليس عدلاً».

«حسن... اللعنة على ذلك كله. ما الذي أردت إرجاعه، سلة من السلال؟».

«أردت إرجاعه! حسن، خير لك أن تنظر».

ثم أنزلت يديها إلى جنبيها وخطت إلى الأمام. كانت قد ولت. أعني أنني لولا الصوت والحدة لما ميزتها. فهناك، كانت تقف أمامي حيزبون معروقة ليس فيها سوى الجلد والعظم. كانت الحياة قد ولت عن شعرها المشهور فغدا متلبداً، كتلاً غير قابلة للوصف. وكانت قد تعودت أن تعبس وتتجهم إلى درجة بدا جبينها حتى في اللحظة التي لم تكن فيها بحاجة

للتجهم والعبوس محفوراً بالأثلام والأخاديد. أما وجنتاها فكانتا جوفاوين إلى درجة بدت معها وكأنها حملت فيهما بعض ظلال الزاوية المعتمة. لكن الأمر الأشد فظاعة وهولاً هو تلك الدوائر حول عينيها، دوائر قاتمة مزرقة إلى درجة بدا رأسها معها أشبه بجمجمة عارية من كل لحم أو جلد في وسطها شق رهيب من أحمر شفاه فاقع حيث ينبغي أن تكون الشفتان. رفعت ليز يدها مرة ثانية لامسة تجويف وجنتها اليمنى وكأنما تريد أن تتأكد بنفسها من الأسوأ فرأيت أنها في تلك اللحظة كانت قد دهنت أظافرها بلون أحمر قرمزي مماثل للون ذلك الشق وسط الجمجمة.

«بحق الرب، ماذا كنت تتوقع يا ويلف؟ ماري لو أو ما شابه؟».

«إذن، فقد أقام معك؟».

«أظن أنه كان يمثل الجزء الصعب من المسألة كلها. تدري؟ إن عاملتك بجد سأضطر لأن أضحك».

«نعم، نعم، أفترض ذلك».

«هل تعلم؟ لا، أنت لا تعلم أنه هو وهومف حاولا إغواء إيمي... هومف لأنه كان وما يزال هومف، وريك بسببك أنت. ياللمسيح! أنا أبداً لم أصدق ذلك، لم أصدق أن الحياة يمكن أن تكون على هذا النحو. لقد حاولت أن ألقي بهومف خارجاً فلم يذهب أبعد من الغرفة الاحتياطية، فعلمت أنه في طريقه لفعل شيء حسن. الغرفة هناك إن كنت تريدها».

«حقاً، ذهب؟».

«بل قد فر. أنت لا يمكن أن تصدق ذلك» قالت وهي تشير إلى جسدها جامعة كلتا يديها على شكل كأس «لقد فر حين بدأ هذا يتداعى. ترك كل شيء وفر، تاركاً حتى بندقيته «البيزلي» وكتبه الهامة. وحين يأتي دورك، يا ويلف، لا تطلب من الأطباء أن يخبروك الحقيقة. فهم سيخبرونك».

«أنا لم أعلم بشيء».

«أنت كما أنت، لم تكبر يوماً واحداً. تسكر، تخمر، تعاشر البغايا ـ».

«لا، فقط أسكر. أما ذلك ـ».

«اخرس. طبعاً أنت ستفعل ذلك ثانية. والقضية هي أنني بحاجة إلى إنسان. ذلك هو لب المسألة وأنا لا أود معاقبة إيمي. ليس بعد. أتعلم؟ حسن، أنت لا تعلم».

«ليس تماماً».

«لقد راودتني فكرتي العظيمة تلك. فأمسكت بثوماس وضغطت عليه إلى أن حصلت على عنوانك. فكرت أنني سأعيدك إلى البيت إن كان ذلك ممكناً، إنسانياً. أنا أعلم أنه ليس لديك فكرة عن الاهتمام بالآخرين لكنك أضعف من أن تفر. إنه ابتزاز كما ترى».

«ها نحن حيث كنا من قبل، وربما أسوأ تقريباً».

«هو ذلك».

بعدئذ ساد الصمت مرة ثانية إلى درجة كان باستطاعتك أن تسمع معها غناء طيور في البستان وصهيل خيول بعيدة في الطرف الآخر من الحقل.

بعد ذاك تكلمت اليزابيث بصوت آخر، صوتها الاجتماعي التقليدي المألوف.

«ألا تجلس؟».

«حسن، أجل، إن كان ذلك ممكناً».

وهكذا جلسنا هناك، أقدامنا على البلاط الدافئ وقد جلس كل منا في مقعده، متقابلين حول الموقد الفارغ.

«أنا آسفة، ويلف. لم أقصد أن يكون ـ لا أدري ما كنت أقصد أن يكون».

«عندما تتحسنين مرة ثانية».

«كما كنت تقول عادة ها... الخ. ويلفريد باركلي، المستشار العظيم».

«يجب أن يكون هناك شيء ما ـ».

«هناك كل ما ترغب به في الغرفة الاحتياطية. استخدم ذلك الحمام. أنا استخدم الحمام الخلفي، فأشيائي كلها هناك. السيدة ولسون ستطبخ، أو يمكنك أن تخرج. فالمطاعم كلها تقدم وجبات معقولة هذه الأيام. وأنا أكره الطبخ».

«عليك أن تتغذي».

«أنا لا آكل».

«عليك أن تأكلي».

«ألا تعرف شيئاً؟ ألا ترى شيئاً؟».

«الحرب ـ».

«يا إلهي كم في ذلك من ظلم! أنت تسكر وتخمر وتعاشر البغايا وتكذب وتغش وتستغل وتتخذ وضعيات وهيئات مثل ـ وأنا التي كانت تقودك إلى السرير وتنيمك وتغطيك ـ فأصاب بالسرطان تماماً كما لو أنني أنا التي كنت أسكر طوال حياتي».

وخيم الصمت فظلال المساء كانت قد زحفت إلى أن أطبقت على الغرفة. وعبر الغبشة كنت أرى أمامي شكلاً غامضاً لجمجمة داكنة فيها محجران أسودان.

«أنت دائماً كنت تجيد الصمت، أليس كذلك يا ويلف؟».

«بسببك أنت، إذ لم تكوني تعطينني فرصة للكلام».

«هذا حسن. إنه يساعدني في استعادة اعتقادي بأنك عفن. حسن. الآن، يمكن أن تتحدث دون أن يقاطعك أحد. أيسرك ذلك؟».

فلم أحر جواباً ولم أقم بأدنى حركة. إذ، وكما هو الأمر غالباً، من المستحيل أن تقول الحقيقة والحقيقة أنني كنت

مسروراً، بل كنت ما أزال مسروراً سعيداً مذ رأيت الحلم. لم يكن ـ باستطاعة أي شيء أن يغير ذلك، ولا حتى ليز، المسكينة. كانت الحقيقة مخجلة وكان الأوان قد فات على تعلم الرحمة أو إيجاد كلب آخر.

لكن الصمت طال كثيراً فحطمته أخيراً.

«سأمكث هنا، ذلك كل شيء».

«لابد أنك صرت متديناً، تزور المرضى. أنت لا تستطيع الذهاب، أليس كذلك؟ ما عساهم كتّاب السيرة سيقولون؟ امرأة على وشك الموت حملتك صغيراً: تريد أن تظل بقربها يا ويلف لتراها وهي تنتهي. شريحة من شرائح الحياة. ليس هناك كاتب يمكن أن يكون بدونها».

«أنت على صواب».

«روبرت فاركاسون صاحب «ثقب المفتاح» يعرف ذلك، وهكذا ريك تكر أيضاً».

«عو... عو...».

«ذلك ما ظل يردده طوال ذلك اليوم. فاعتقدت أنها ولابد كلمة جديدة من الكلمات الدارجة هذه الأيام التي لم أستطع التقاطها، أنا التي لا تشاهد حتى التلفزيون».

عند ذاك راحت أصابعها تتلمس الطاولة بجانب كرسيها بحثاً عن علبة الدخان ثم أخرجت سيجارة وأشعلتها، بعدئذ دخلت مباشرة في نوبة سعال فألقت السيجارة في الموقد لكن

في اللحظة التي كفت عن السعال مضت تبحث من جديد عن سيجارة أخرى.

«أنت ما تزال كما كنت يا ويلف، لا تدخن؟ يا للرجال! حتى هومف كان يخشى هذا، هذا ـ».

«المرض، الداء».

«هذا السرطان».

«انظري ليز، سأحاول أن أشرح لك. لقد صدمني هذا كثيراً، لكنني أود أن أقدم المساعدة رغم أنني لست معتاداً على تقديم المساعدات».

«ماذا أقول؟ يا للمسيح! ما هذا؟ هل قبلوك عضواً؟ هل أخضعوك لدورة تدريبية؟ ما تحتاجه هو إعادة تكوين».

«بإمكانك أن توفري على نفسك هذا. امضي قدماً، تخلصي من هذا القيء كله وحين تفعلين ذلك سأحاول أن أقول ـ».

«ولسوف تنجح. ذلك أمر معروف عنك يا ويلفريد باركلي. عندما تتكلم لا يكون كلامك هاماً أو عميقاً بل عفوياً خالصاً ـ».

«هل ستصغين أم لا؟ فقط قولي. إن كنت لا تريدين الإصغاء سأخرس كلياً».

فسعلت قليلاً ثم ألقت السيجارة الثانية في الموقد.

«حسن، كما تشاء».

وهكذا أخبرتها أو حاولت أن أخبرها. سردت عليها كل شيء بدءاً من الاستيقاظ وأنا كالسكران دون أن أكون قد شربت إلى أن أدركت أخيراً ما معنى أن أكون سعيداً. حاولت أن أشرح وضوح الحلم وبداهته تلك التي جعلت كل شيء آخر نوعاً من السراب. وبقدر ما حاولت أن أصف ذاك الذي لا يمكن وصفه كان يبدو أسخف وأسخف.

«لقد غيرني، كما ترين. كنت أصرخ وأتشبث بالزمن كما لو أن باستطاعتي أن أوقف العملية كلها، غيرني الحلم إلى درجة أدركت معها أن الطريق الذي أسلكه، باتجاه الموت، إنما هو الطريق الذي يسلكه الجميع، وأنه ينتهي ـ على نحو صحي، سليم، هادئ ـ هنا، فما المشكلة؟».

ووجدت نفسي أقف فوقها. ولحين من الزمن حسبت أنها أصيبت بنوع من النوبة أو السكتة لكن بعدئذ رأيت أنها تضحك.

«أنت ابن زنى خالص، محض! أنت مهرج! أنت، أنت ـ».

«انظري، ليز ـ».

«أنت تتحدث عن السعادة، تفصلك سنوات كثيرة عن أجلك ـ».

«انظري، ليز ـ».

«أنت تتحدث عن السعادة، تفصلك سنوات كثيرة عن أجلك ـ».

«أنا لا أعني ذلك! بل كنت أحاول أن أقول لك إن الأمر على ما يرام».

هنا اختلط السعال بالضحك.

«إن في صدرك نوعاً من التدين الخيالي ـ».

ووجدتني أصرخ.

«لقد اكتشفت أنني جزء من هذا الكون، هذا كل ما في الأمر!».

فغدا ضحكها غريباً عجيباً.

«أنت لست جزءاً منه، أنت مرجة عشب! أنت قطعة من الأرض مدماة كلها! وها أنا ذي ـ».

ثم انفجرت باكية.

في تلك اللحظة دخل طبيبنا المحلي. ربما كانت تتوقع مجيئه، لا أدري. فقد كان هنري أستاذاً في اللباقة والذوق. حياني ـ ولعل كلمة (حياني) فضفاضة كثيراً ـ كما لو أنني كنت قد عدت من عطلة أسبوعية قضيتها في لندن، لا من غياب سنين. كما حيا ليز وكأنه لم يسمع كلمة مما كانت تقوله وهي غاضبة ولم يلحظ أثراً للدموع على وجنتيها الجوفاوين. بل الحقيقة أنه أبدى نوعاً من المرح وكأنما كان يعلم أنه رغم كل الأدلة التي يمكن أن يأتي بها المحامون والمرافعون، ورغم كل المعاناة والظلمة والموت كان الأمر مجرد لعبة وكان علينا جميعاً في نقطة من النقاط أن نتخلى عن التلبس باللباس

المأسـاوي الهـزلي الـذي ارتـديناه ونعـود إلى وعينـا الفطـري الأساسي.

نقلت أشيائي إلى الغرفة الإضافية ثم شـرعت أتفحـصها. ذات يوم كان ريك ينام هناك بمفرده، بعدئذ بات ينام مع ماري لو، ثم عاد مرة ثانية ينام بمفرده، آخـرون كثـر نـاموا هنـاك في أوقات مختلفة. إنها غرفة من غرف الأكـواخ، الموقـد فيهـا مـا يزال مرتباً وهناك نافذة صغيرة تشرف على النهر باتجـاه جزيـرة فوكسي. عندما تتساقط أوراق الأشـجار أو تتبرعم مـن جديـد كما كان شأنها في تلك اللحظة، كان باستطاعتك أن ترى حـتى المنعطف حيـث كـان ينتـصب سـد الطاحونـة. ورغـم أنهـا لم تخبرني فقد كنت أعلم أن كابستون باورز نام هنـاك أيـضاً ـ إمـا عندما أصبح مرض ليز خطيراً أو عندما بدأ سلسلة المـشاجرات الأخيرة. فكتبه كانت تنتصب على الرف (أكلة لحوم البـشر مـن ديكان، بندقية الفيلـة، البواريـد، الـذخيرة والرمـي بالبنـادق، بيزلي، التاريخ والسجلات). وفوقها كانت قطعـة أفقيـة طويلـة من ورق الجدران لم يكلح لونهـا تبيَّن أنـه كـان يعلـق بندقيتـه (البيزلي) هناك. قلبت أوراق كتبـه بانتظـار أن يـذهب الطبيـب. فوجدت فيها بعض المخططات والبيانات الرائعة. يـبين أحـدها أين ينبغي أن تسدد على النمر ـ خلف الكتف أو فـوق الكفـل، إنما ليس أبداً في الـرأس إن أردت أن تبقـى علـى قيـد الحيـاة. أقول مأثورة وأمثال. كيف تلاحق حيوانـاً جريحـاً. الرمـي رميـة قاتلة. يالله! كم هي مسكينة ليز، تعيش هذه السنين كلها مع هذا الوحش!

تركت حقائبي ونزلت إلى الطابق السفلي. هناك سمعت السيدة ولسون تفرقع وتطقطق في المطبخ فأدركت أن هنري خارج البيت وإلا لكانت السيدة ولسون ستسير على رؤوس أصابعها وتكتم كل صوت للصحون والأطباق. بعدئذ ذهبت أبحث عن ليز لكنني لم أستطع إيجادها، بل وجدت إيمي في الغرفة الطويلة.

«إذن فقد عدت لتكون مع أمي. يا للغباء!».

«أنت هنا».

«ذلك مختلف».

ثم سارت مبتعدة باتجاه المطبخ. فيما وقفت وسط الغرفة وكأنني انتظر مضيفتي. والحقيقة أنني كنت كذلك. فأي شيء كنت أبغيه سوى المصالحة أو التسوية ـ فيما كان كتاب باركلي الأخير الكبير ذو القلب الدافئ يطوف أمام ناظري من حين لآخر منذ ذلك الحلم؟ قريبين كنا وذوي قلوب حارة كالعقارب.

نزلت من غرفتها، هادئة متجهمة. كان الطبيب قد أعطاها شيئاً ما.

«آسفة، ليس عنه بل عني. ترى ألا تريد أن تجلس؟».

«علي أن أذهب مرة ثانية».

«أجل».

«لا، سأعود ثانية. إنه ريك تكر وقد وعدت ـ».

«أجل».

«سأقابله في "الراندوم". فهو لم يحصل على الأوراق، على تلك الأوراق على أي حال».

«هو مجنون كما تعلم».

«نعم».

«إذن لن يعجبه ذلك».

«حسن».

ثم خيم الصمت حيناً من الزمن. بعدئذ أخرجت ليز سيجارة ثم غيرت رأيها قائمة بحركة تدل على أنها ستعيدها إلى علبتها، غير أنها بعد ذاك ألقتها في الموقد إلى جانب سجائر أخرى.

«أمر غريب يا ويلف».

«أجلٍ. ما كان ينبغي أن نتزوج. بل كان علينا أن نكون قريبين، أخاً وأختاً. ذلك النوع من الأشياء الذي يربط دائماً، وطوال الحياة دون أن تدري كيف».

«أنا لم أقصد «نحن»، أعني أنا وأنت، بل أنت وهو. فذلك اليوم كنت أقرأ سيرة ذاتية. قالت السيدة همنجواي «ألدوس صار أحسن، ايرنست صار أسوأ» وحين قرأت ذلك فكرت بك. هي لم تقل شيئاً عن النقاد والأحقاد هل تعلم؟ أنت وريك، دمّر واحد كما الآخر».

* * *

الفصل الخامس عشر

ذهبت إلى لندن حيث قضيت ثلاثة أيام وكان بودي أن أجعلها أطول لولا أن النادي كان قد وضع قيوداً أشد بالنسبة إلى قضاء الليالي فيه. على أي حال، لم يكن باستطاعتي أن أواجه نادي (الاثينايوم) بكل ما فيه من أساقفة ومستشارين ونواب مستشارين. الراندوم معقول، فليس هناك أسقف واحد تراه عينك، لكن المشكلة أنه لم يكن ثمة كاتب واحد تستطيع رؤيته. في الأمسية الأولى لم أجد واحداً أجالسه فهتفت إلى وكيلي لكنه كان قد ذهب إلى منزله، طبعاً. إنه يعيش في الريف وقد تبينت أنني لا أعرف حتى عنوانه ـ شخص ماكر! ففكرت بدعوة فتاة لكنني وجدت أنني لا أطيق الإزعاج أو أنني بت كبير السن أو خائفاً أو شديد الحساسية. تأملت في عناوين المسرحيات التي تقدمها بعض المسارح فأدركت أنني بكل بساطة لم أكن مهتماً بها أو بالأفلام، فوقفت على رصيف البيكاديلي أتفرج على الجنس البشري وهو يمضي، كل في سبيله، بحثاً عن تسلية يقضي بها أمسية ثم خطرت لي خاطرة وهي أن ليز كانت على حق. لقد دُمِّرت بحيث لم أعد أمت لذلك الجنس البشري بل لأشباح وذكريات البشر. كان لي حلمي وقد طغى ذلك الحلم حتى على الرصيف نفسه وكان وتر الكمان إما مرتخياً أو منتزعاً. كذلك كان عدم التحمل قد تراجع متخلياً عني ورغم أنه كان ثمة بقية إلا أنه كان يمت لي

بقدر ما يمت لي أثاث الكنيسة. كان الحلم يغني ولم يكن يغني، وبما أن الغناء يبدأ تماماً حيث تغيب الكلمات فأين تكون يا ترى؟ وجهاً لوجه مع كل ما يتعذر على الوصف، يتعذر على الشرح، مع الكينونة، هناك تجد نفسك.

طفت عائداً إلى الراندوم ثم تناولت كأساً لتزجية الوقت. كانت الجلسة هادئة (فقد كان المكان خالياً إلا من غريبين يتحدثان بكل جد وهما يجلسان على البار) إلى درجة تناولت معها كأساً أخرى ثم أخرى وهلم جرا إلى أن غبت قليلاً.

في اليوم التالي زرت مكتب وكيلي حيث قمت بالكثير من إحناءات الرأس. كان يود أن يعلم إن كان هناك أي شيء طارئ فقلت له نعم لكنني في الوقت الحاضر لا أريد المناقشة نظراً لأن المناقشة يمكن أحياناً أن تثبت خطأً عاماً ـ مادة عادية ـ فقام هو الآخر بإحناء رأسه لي، الأمر الذي جعلني أدرك كم كان متلهفاً للتخلص مني. ويلفريد باركلي لن يعمل المزيد، كما تعلم. لقد استهلك استهلاكاً تاماً وهو يعيش على عائدات أعماله السابقة. لقد بات لا مبالياً كلياً. لعله آن الأوان لأن نفكر بطبعة الأعمال الكاملة. عدت إلى الراندوم حيث قضيت نهاري نائماً في الفراش ـ لا، لم أنم بسلام كما ينام الطفل، فهذا غير صحيح. في الساعة الخامسة، نهضت من الفراش، تجولت قليلاً في الغرفة ثم جلست في زاويتي أنتظر. لكن سرعان ما دخلت جو نكيل لتخبرني أن البروفسور تكر في الخارج، فدهشت لأنها لم تقل له أن يدخل مباشرة لكن كل شيء اتضح حين خرجت إلى البهو، فقد وجدته رابضاً على الأرض وقد استند بظهره إلى الساعة

القديمة. كان جذعه مكشوفاً حتى السرة لو كان باستطاعتك أن ترى تلك النقطة داخل الدغل الذي يشكله شعره كما أن قلادة ذهبية كبيرة كانت تعشش في ذلك الدغل من الشعر وقد تدلى منها كل رمز من رموز السحر ـ صليب اللورين، عين أوزيريس، شارة عنخ (ترمز إلى الحياة عند قدماء المصريين وهي على شكل T في أعلاها عروة)، صليب معقوف، نجمة خماسية وعشرات الشارات الأخرى التي لم أستطع تمييزها. حين دخلت البهو، أخرج ريك لسانه ثم كشر ضاحكاً وسعل فشعرت بشيء من الضيق لربوضه عند الجدار فترة من الزمن، الأمر الذي كان سيحل الكثير من الأشياء على المدى الطويل إلا أنه كان سيثير بعض المشكلات الآنية. لكن بعد سعاله الأولي نهض، ثم مسح شعار الراندوم عن مقعده.

«ويلف، يا سيدي، أنت تبدو رائعاً».

«قل لي كيف».

«رائعاً وحسب».

ثم ضحك منفعلاً كطفل حصل على وعد ما، نعم، هذا اليوم سنقوم بنزهة فعلاً. كان يبدو فتياً، فتياً جداً، في الأربعين، أو ربما في الخامسة والأربعين.

«وأنت تبدو رائعاً يا ريك، رائعاً تماماً هيا تعال».

ثم شققت الطريق إلى المشرب يتبعني ريك مخشخشاً بهدوء مثل عربة رفيعة الطراز.

«كأس أو كأسان في البداية يا ريك، ثم عشاء. أنت لا ترى بأساً في أن تأكل هنا، آ؟ الطعام معقول والشراب من الطراز الأول».

كان ريك يحملق حوله مسجلاً ملاحظة ذهنية عن كل الوجوه ـ الأدبية الإنكليزية المتناثرة على الجدران. كان يتعرف إليهم واحداً بعد الآخر مطلقاً صيحات انتصار خافتة.

«الكنك لست هناك، يا ويلف».

«أنا لم أمت بعد. أعطني بعض الوقت».

أخذنا كأسينا ثم توجهنا إلى الزاوية.

«الورقة يا ويلف، الاتفاق ـ».

«بعد العشاء يا ريك. ثمة زبون جيد».

«لقد مضى علي وقت طويل ـ هل أستطيع أن أهتف من هنا؟».

«طبعاً».

«إنني شديد اللهفة لأن أهتف بالنبأ السعيد مبشراً السيد هاليداي. سوف يبتهج كل الابتهاج. هل تعجبك قلادتي؟ إنني أعزو لها، ماذا أقول، أعزو لها كل التغيرات الأخيرة في حظوظي ـ».

«عزيزي ريك، إنك تتحدث مثل أي رجل إنكليزي! نعم، تعجبني قلادتك. ألم تغطس يوماً في الحساء؟».

«كانت في حقيبتي عندما... ويلف، يا سيدي، ينبغي علي أن أعتذر منك أشد الاعتذار أنا لم أكن أنا نفسي. إنه الاضطراب وحسب وأنا أرى مهمتي في الحياة أو، كما يمكن للمرء أن يقول، واجبي أن أكون العين الساهرة ـ».

«أعلم، أعلم. بعد العشاء، بعد العشاء».

«كما أعتذر عما قلته».

«حين دعوتني بابن الزنى ناكح ـ أمه؟».

وجاءت من خلفنا، عند الباب، صيحة ابتهاج. نظرت فإذا جوني سيت جون جون وغابيريل كلايتون يدخلان.

«ريك تكر، قد فعلتها!».

«أوه، مرحباً بكما».

«غابرييل، جوني، ريك. كل منكم يعرف الآخر؟».

كان غابريل يبدو إلى جانب جوني النحيل الطويل قصيراً تماماً رغم أنه لم يكن كذلك، فهو متوسط القامة عريض المنكبين بما يناسب نحاتاً تماماً، كما كان مدور الكتفين قليلاً الأمر الذي كان يجعله، إذا ما أحنى رأسه، أشبه قليلاً بالثور. كان غابرييل يعلم هذا ولم يكن يزعجه قط. وفي تلك اللحظة كان يضع قبضته على جبهته بحركة كان يعتقد أنها تحية فنان لفنان آخر بعدئذ التفت عائداً إلى الآخرين، قائلاً:

«ناكح ـ أمه. أنا أتصوره تمثالاً من البرونز. ويمكننا أن نضعه في الفجوة الأخرى مقابل تمثال «النفس». ويلف سيدفع.

وسيكون أكثر تميزاً من أن تعلق صورته على الجدار بين أولئك الفنانين والأدباء الفظيعين كلهم».

«غابرييل، يا عزيزي، ضع لنا المخطط الأولي في الحال! ويلف سيتخذ الوضعية!».

«ياللعنة! لا، هو لن يتخذ الوضعية».

«ويلف، أنا لم أرك مذ كنا في البرتغال».

«أنت تعلم يا ريك، هكذا هو يمضي حياته».

«نعم يا سيدي، أنا أعلم، وذلك أمر جدير بالملاحظة».

«لقد أنمتك في فراشك يا ويلف. كذلك أنت مدين لي بوجبة طعام.وسأسترد الدين الليلة».

«أوه يا إلهي!».

«وأنا أيضاً. ويلف، يا عزيزي. انطلاقاً من التحليلات النفاذة الموجبة لشخصيتك التي أتحفتك بها على هذا الشاطئ أو ذاك ـ».

«جوني سيت جون جون سيتحفنا بمثال عن نفاذه».

«تمثال جماعي آخر يا غابرييل، من المرمر الأبيض، خاص بالطهر».

«ها... الخ...».

«أنت ويلفريد قابل للاختراق تماماً. ولسوف تكون سعيداً تماماً بعظاتي الدينية وكذلك إذا ما دعوتك «يا سيدي

العزيز» بدلاً من «المتوحش الفظ»، ألا تريد الآن؟ كلنا لنا طموحاتنا كما كانت ـ آه... ربما، لا؟ ويلف؟ هل ماتت كل الأهواء والرغبات؟».

«أنت ذكي إلى حد بعيد».

كان غابرييل قد عاد من المشرب بزجاجتين مفتوحتين من الخمرة وقد أمسك كلاً منهما من عنقها بطريقة فيها الكثير من الذكاء.

«هذا كرم منك يا ويلف».

«هكذا أرى».

«كؤوس، جوني».

«أنا ذاهب، أنا ذاهب، أسرع من... الخ».

«أنت، ريك».

«نعم يا سيدي».

«هل أنت غني؟».

«كلا يا سيدي».

«أخشى أن يكون عصر الأمريكان الأغنياء قد ولى».

«كلا، يا سيدي، لم يول يا سيدي».

«إنني أبحث عن أمريكي غني. فالعرب لا يهتمون بالنحت إلا كميدان لاستثمار الأموال».

«هو ليس غنياً، يا غابرييل. إنه أبيض فقير مثلنا جميعاً».

«هذا الرجل يعتقد أنه فقير يا ريك. لقد حمى نفسه بالامتناع عن قول شيء لأصدقائه، طوال ثلث قرن من الزمان وهو يشرب، يتنقل من بلد إلى آخر، هذا إن لم يفعل شيئاً آخر. هو ليس مضطراً لأن يقول لهم سوى أن هناك شيئاً للبيع كي تجري عمليات النشر وتفتح المصارف أبوابها له ويقابله محررو المجلات وهم يبرون أقلامهم الرصاصية ـ».

«كفى... بحق الله، دعوني وشأني. هذه زيارة عمل. فأنا وريك لدينا أمور ينبغي أن نناقشها بعد العشاء».

«حسن، يا عزيزي، ليس بإمكانك أن تناقش أعمالاً في الراندوم وذلك لسبب بسيط هو أن البحث في الأعمال أمر مخالف لأنظمة الراندوم وقوانينه، كما تعلم. فهنا يسمح لك بأن تغوي فتاة، تصاحب رفيقة، يا عزيزي، يسمح بالمخدرات، بالمراهنات، ببيع مناصب الدولة وشرائها، بأعمال العصابات من حين إلى آخر ـ».

«لا تكن أحمق يا جوني».

«عدا عن ذلك، هناك وقت طويل «بعد العشاء» وأنا شخصياً لم أر في حياتي وقتاً لم يكن فيه الشراب عنصراً مسهلاً للعمل ـ إن كان هو عملاً، فعلاً، وليس استخداماً مقنعاً زائفاً ـ أوه طبعاً، لابد أن يكون العمل من ذلك النوع الذي يتقنع ـ».

«جوني، أنت ثمل. دعونا نتخلص من هذه الزجاجات في الحال. إنه للطف شديد شديد منكم، أنا ويلف أقول لكم ذلك».

كنت قد أحسست بالتعب فقلت ذلك إنما دون أن يكون له أي تأثير فيهم. إذ لاحظت أن ريك بدأ يفعل ما لم أره يفعله من قبل. فقد كان يشرب ليس كغابرييل بل بصورة محمومة. في النهاية صعدنا إلى الطابق العلوي من أجل العشاء. كان ريك قد بات يتحدث بشيء من العنف، وكان كلامه قد ارتد إلى لهجة الوسط ـ الغربي، تلك اللهجة الخالية من اللحن، أو إلى المكان الذي يمت إليه أصلاً. كانوا كلهم قد ثملوا أكثر وأكثر. وكان بعض كلامهم جيداً، لاسيما غابرييل. أما أنا فقد كنت صامتاً، وكان من الغرابة بمكان أن أجد نفسي الوحيد الصاحي بين الأربعة! نقطة الانعطاف جاءت حين بدأت أشرح لريك أنه إذا ما ثمل أكثر فإنه لن يستطيع أن يفهم ما سأقوله له. هنا شرع ريك، بهيئة شكوى وتذمر أكثر مما هي مشاكسة، يتحدث كي يجعلنا جميعاً نفهم أنه غير معني بالشروح والتفسيرات. كل ما كان يبتغيه هو الاتفاقية. فقلت كي أنهي الأمر على خير، وإذا جاز القول، لكي أوجهه باتجاه الحقيقة قبل أن أكشفها له، أن الاتفاقية ليست أبداً أكثر من اتفاق شفوي بين سادة محترمين (اتفاق جنتلمان)، الأمر الذي جعل جوني يضحك ويضحك، فغضبت بعض الشيء. لكن غابرييل، بما يملك من مقدرة على تحريك الأشياء، اقترح أن يكون هو وجوني شاهدين على التوقيع. وقبل أن أسترد أنفاسي كان ريك قد بدأ يشرح المسألة برمتها لهما، ماري لو وكل شيء.

لذلك اضطررت للتدخل تدخلاً عنيفاً.

«لن يكون هناك أي اتفاقية».

ففتح ريك فمه ثم أغلقه دون أن يخرج منه شيء سوى قطرات من النبيذ الذي كان يشربه.

«أنا آسف، ريك، لكن هكذا ينبغي أن يكون الأمر».

«لا، أنت لا تستطيع ـ» ثم أخذ جرعة من النبيذ ونفض نفسه وهو يرتد إلى لهجة سلسلة أواسط الأطلسي «لا يمكن أن يكون هناك اتفاقية. لقد وعدتني هناك في وايسولد، أنت تذكر. لا... ليس أنت، لا يمكنك أن تنكث بوعدك».

«اسمع، ريك، أنت أيها الصديق القديم ـ».

«قلت لا يمكن، فأنت تعلم ما يعني ذلك. لقد خاطرت بكل ما أملك. لا، أنت لا تعني ذلك يا سيدي ويلف. يمكنني أن أعتبر ذلك مزاحاً ـ».

«أنا لا أمزح».

«أنا أحذرك، ويلف باركلي. سأسجل ذلك سواء ـ انظر، يا سيدي. إنها شحاذة محض. لقد تخليت عن كل شيء. سيد سيت جون، سيد كلايتون أنتما شاهداي ـ».

«أخبرنا المزيد، يا ريك، فنحن قبل كل شيء من أصدقائه القدامى».

«لقد تخليت عن مهنتي وحياتي كما قلت لأنقذ عنقه ـ».

«لا، لم تفعل ذلك!».

«بل فعلته! هناك، في الضباب ـ».

«أنت رميت زوجتك لي ثم لاحقتني وتجسست علي. فلا تجعل غضبي يشتد».

«أنت تغضب؟ يا عزيز يا جبار. هل تدرون ما أرغمني على فعله يا سيدي النبيلين؟ لا، أنا لم ألاحقك أو إن كنت قد لاحقتك، فلم لا؟ إنها بلاد الحرية وقد كنت تعيش على هواك، تقفز إلى عربة قطار مرة، ثم إلى سيارة أجرة مرة ثانية وإلى زورق بمخر الراين مرة ثالثة ثم تنظر إلي ساخراً في مراكش، ولو ظللت مستمراً على ذلك النحو ـ كنت أنوي أن أحترم رغباتك ـ».

«هل ستصغي؟».

«أنا أحذرك، فأنا لست ضعيفاً عاجزاً».

«أوه، من أجل الرب!».

«أنا سأستخدم المادة التي زودتني بها السيدة والآنسة باركلي!».

«أية مادة؟».

«ثمة أشياء وأشياء».

«يالله! حل إيجابي للعقدة!».

«اسمع جيداً يا ريك! أنت سكران قليلاً وربما ـ على أي حال اسمع. أنت لن تكتب تلك السيرة الذاتية الخاصة. فأنا سأكتبها بنفسي ـ».

هنا أطلق ريك صيحة لم يسبق لي أن سمعت مثلها، صيحة أشبه بالعواء أطلقها ربما بالطريقة نفسها التي يعوي بها ذئب أو قيوط أو حيوان بري غير مألوف. بعد ذلك اختلطت الأشياء ببعضها اختلاطاً شديداً. أعني أنه ركع أرضاً أو بالأحرى ألقى بنفسه على ركبتيه.

بعدئذ عض كاحلي حتى خيل إلي، للحظة أو لحظتين من الزمن، أنني على وشك أن أجرب تلك القوة الذكرية الهائلة مرة ثانية، لكن بعد ذلك وجدته في حجري تقريباً ويداه تمتدان إلى رأسي... وصلتا إلى أذني اليمنى ووجنتي اليسرى فيما أعتقد أنه كان يحاول الوصول إلى عيني بإبهاميه وأصابعه التي ظلت احتياطاً لديه. حاول جوني التدخل بيننا كما حاول غابرييل ـ حسب تقديري ـ أن يبعد الطاولة نظراً لما عليها من زجاج فاشتبك مع الرجلين الجالسين إلى الطاولة الأخرى اللذين تدخلا على نحو أهوج. وأعتقد، مما يستطيع ذهني تجميعه منذ تلك اللحظة، أن موجة من الهستيريا اكتسحت الصالة الملأى بضيوف العشاء والرجال المهنيين ذوي البذلات الرزينة نظراً لأن الجزء الأكبر منهم شارك في الاشتباك ـ وهكذا انقلبت طاولات، انهمرت دموع، سقط ناس أرضاً، لوائح طعام، لوائح نبيذ، فواتير حسابات، نشرات تنظيمات. كما تطايرت نثرات مخطوطة في الهواء وبدت أشبه برقائق الثلج. كذلك جرح الزجاج البعض لكننا بصورة عامة لم نصب بأذى كبير. إذ حتى عندما نحاول فإننا نتكشف، كرجال، أننا لسنا بارعين في ذلك النوع من الأشياء. فنحن، شأننا شأن ماري لو،

إن لم يكن بطريقة أخرى، لسنا جسديين، لكن يمكنني القول إنه كان هناك بعض الخدوش والكدمات والعضات، بل ما هو أكثر قليلاً. لقد فقدت قليلاً من شعر لحيتي، كما أن إحدى أذني كانت حمراء متوهجة وذلك كل شيء. بعدئذ أسلمت نفسي للنوم دون حتى أن أرى ما حدث (لضيفي).

عندما نزلت إلى الطابق السفلي في اليوم التالي، كان سكرتير النادي يقف في الصالة حاد النظرة، قاسياً، الأمر الذي افترضت أنه طبيعي تماماً، وكان قد شطب اسمي من القائمة التي كان يحملها بيده.

«سيد باركلي، لابد من سؤالك عن تفسير لما حدث الليلة الفائتة في قاعة الطعام».

«اسأل، فذلك لا يزعجني. وأنا آسف».

«علي أن أقدم تقريراً للجنة».

«إن كانوا يريدون أن أنسحب، فسأفعل ذلك بكل هدوء».

«أنا لا أعلم، بعد، كم سيكلفنا إصلاح تمثال «النفس»».

«أنت كفؤ تماماً يا كولونيل، كفؤ كل الكفاءة في تحديد الأمور».

فاشتد تجهم الكولونيل.

«هل تعترف بالمسؤولية؟ إن كان كذلك ـ».

«أوه يا للجحيم! بطريقة من الطرق أعتقد أن: نعم».

ثم مضيت إلى صالة القهوة التي لم يكن فيها سوى النادلة والسيدة ستوني التي كانت تجلس في مكان استقبال الزبائن وتبدو شبيهة بالحجر. لم أتناول سوى القهوة، لكن حين ذهبت لدفع الحساب، انتفخت السيدة ستوني قليلاً.

«حسن، سيدة ستوني، ما رأيك بما حدث؟».

«ليس من شأني أن أعلق يا سيدي».

«أوه، هيا، إذ لن يرى واحدنا الآخر مرة ثانية لأنني أعتقد أنهم سيطردونني. فهيا، انطقي، سيدة ستوني، ما رأيك بما حدث؟».

«بقية حسابك يا سيدي، شكراً لك يا سيدي».

«الولد ولد يا سيدة ستوني، وداعاً».

وهكذا انصرفت، وأنا أفكر أن هناك ظلاً جديداً يلاحقني، جزءاً آخر من الماضي ينبغي أن أتجنبه. ذلك أنني أحسست، مع كل ما أشعر به من سعادة هانئة، أن شيئاً مني قد أهين بذلك الشجار التافه. في الكتب يبالغون كثيراً بما يمكن قراءته من سيماء الوجه ـ يبالغون بشدة ورغم أنني لم أكن مهتماً كثيراً بتذكر سيماء السيدة ستوني إلا أنه كانت هناك بعض التعابير التي كان بالإمكان قراءتها كما تقرأ أحرفاً كبيرة، وأبرز ما فيها الازدراء والكراهية.

* * *

الفصل السادس عشر

تساءلت إن كان باستطاعتي أن أتحمل الذهاب إلى المنزل لكن الطريق انفتح أمامي كما لو أن كل شيء كان عادياً. وكان ذلك مثيراً للسخرية كما اكتشفت في الحال. كنت أفكر بالخشونة التي أكسبتني إياها ليزا المسكينة. وقد خلصت إلى أنها، قانونياً، لم تكن تستطيع ادعاء أي حق علي كما أن إيمي كانت قد تجاوزت عامها الحادي والعشرين منذ زمن طويل. ما دفعني إلى (المنزل) حقاً هو هذا المخطوط الذي تقرأه، هذه المهمة التي كان علي أن أنجزها، كي أستفيد، إن جاز القول، من تلك الكتلة الهائلة من الأوراق المخزونة في الصناديق والتي لم أكن قد انتهيت منها. على هذا النحو أعددت نفسي للمواجهة.

عند الباب قابلتني إيمي، محمرة العينين.

«لقد مضت».

«من؟».

«ماما».

«إلى أين؟».

«أنت ـ أنت ـ لقد ماتت... ذلك أين».

«متى؟».

«الآن تماماً... هذا الصباح... حظك كبير... لقد فررت». وسالت قطرات كبيرة من الدموع من زاويتي عينيها المائلتين إلى الأسفل.

«لقد مرت سنون وسنون يا اميلي».

«أوه، يا إلهي!».

أفترض أن أباً غيري كان سيطوقها بذراعه ويقدم لها كتفاً تبكي عليها. لكنني لم أكن أباً بل مجرد غريب صدمه ما كان يتساقط من عينيها وأنفها. كانت تحاول أن تقول شيئاً لكنني لم أحصل إلا على القليل منه.

«أنا... أنا... لا أستطيع».

وانفتح فمها ثم أطلقت الطبيعة صرخة معولة أمامي، من هناك، من ذلك الوجه والجسد البشريين، عند ذاك مددت لها يدي لكنها لم ترها أو لم ترغب بها، إذ دارت على عقبيها وابتعدت تتعثر بدموعها، امرأة بسيطة فتية ثقيلة الخطا، ثم مضت إلى النهر حيث كانت تمضي عادة وتختفي وهي طفلة حين كان العالم يثقل كثيراً على كاهلها. أما أنا فتوجهت إلى الصالة حيث وضعت حقيبتي الوحيدة وصعدت الدرج.

كان باب مخدعنا مفتوحاً وكذلك كانت النافذة. كما كانت الستائر قد تحركت قليلاً فيما تسرب شيء من العبق من حوض الأزاهير فخيل إلي أنني أمام عينة من لامبالاة الكون، مباركة أيتها اللامبالاة! من الزاوية تحرك هنري خارجاً، وبهجته

أخف قليلاً من المألوف، أخفت قليلاً من صوته الذي كان لا يزيد كثيراً عن الهمس.

«لم تتألم. إنها الكبد كما تعلم».

محظوظة... محظوظة اليزابيث، أن كوفئت بمثل ذلك المخرج من بين تلك المخارج التي لا تحصى ولا تعد.

بعد ذاك تم كل ما ينبغي اتخاذه من إجراءات. الممرضة أو هنري أو كلاهما أتما ذلك بسرعة وبراعة. ساعتها وخاتم أمها كانا على الطاولة بجانب السرير. وكانت هي بارزة تحت الملاءة البيضاء مثل تمثال. تقدم هنري باتجاه السرير ثم التفت داعياً إياي دونما كلام. وهكذا وجدتني أسيراً لما بدا واضحاً أنه أحد طقوس الموت فتقدمت ثم وقفت بجانبه.

سحب هنري الملاءة حاسراً إياها حتى الصدر ثم أبقاها هناك. فبدت اليزابيث كما لو أنها على قيد الحياة تماماً وعلى نحو يثير الدهشة والأعصاب. كان أحدهم قد مسح ذلك الشق القرمزي الذي صنعه أحمر الشفاه وكان وجهها الخالي من الزينة يحمل نوعاً من التهديد. وهكذا سرعان ما وجدت نفسي أتساءل لماذا ينبغي أن أزعج نفسي بما حدث، إذ لم يتغير شيء... ورقة سقطت وحسب.

كانت عيناها منفتحتين على سعتهما تتحدثان إلي. فأحسست للحظة من الزمن أن العالم كله بعوم، تغطيه طبقة من ضباب.

طغت على هنري مسحة استهجان. فانحنى فوقها يفعل شيئاً ما، حيلة من حيل المهنة، إذ سحب الملاءة مغطياً إياها من جديد.

وجدت صوتي فقلت:

«بنسات، دراخمات، أوبولات[1]».

هنا وضع هنري يده تحت مرفقي ثم فتلني. بعدئذ سرنا بخطا متنظمة ونحن نهبط إلى الطابق السفلي. توجهت إلى الخزانة المناسبة ولم أعد بالنبيذ بل بالوسكي. قدمت كأساً لهنري دون أن أفكر لكنه ابتسم هازاً رأسه. عندئذ جرعت جرعة منه جرت في المجرى الخطأ الأمر الذي صدمني كثيراً مثيراً لدي عاصفة من السعال كدت معها أمرض. ربّت هنري كتفي بالأسلوب العلمي المناسب، وفي الحال انتصبت فابتسم في وجهي مبتهجاً «أحسن؟».

تفحصت نفسي. لم يكن هناك أي شك في كوني «أحسن».

«نعم. أظن ذلك».

فابتسم هنري وقد ازداد بهجة.

«سأهتم بكل شيء بنفسي يا ويلف».

«نعم، أفترض ذلك. أشكرك يا هنري».

---

(1) الأوبول: عملة إغريقية قديمة.

«حسن إذن، سأذهب الآن».

ثم انسحب وهو ما يزال يشع بهجة.

ذهبت إلى الحديقة شاقاً طريقي بين الشجيرات. هناك كانت إيمي تجلس على المقعد الحجري تختلس النظر عبر الأغصان إلى النهر، فوقفت خلفها.

«هل هناك ما يمكنني فعله؟».

«لا أدري. لقد جئت متأخراً قليلاً، أليس كذلك؟ لا, لا أظن أن هناك شيئاً».

«علينا أن نخبر الناس، الأقرباء».

«والقس أيضاً، فقد كانت كاثوليكية المذهب تتردد إلى الكنيسة من حين إلى آخر».

«أهو ذلك الشاب الذي يلبس الجينز وصدرية فيها ثقب ولها قبة كهنوتية عرضها ثِمْن بوصة».

«هو ذاك، دوغلاس. إنه رجل جيد. في الأسبوع الماضي كانت تتحدث عني أمام بعض الناس فيما بعد غمغم لي. المعاناة لا تجعل الناس يتحسنون دائماً. النزول إلى التربة يجعلهم يتحسنون».

«هل هناك شيء، أعني شيئاً يمكنني فعله لك؟».

«كما قلت لتوك، لقد مضت سنون وسنون».

«بالنسبة إلي أيضاً. لكن إن كان في ذلك ما يريحك فثمة الكثير من المال في طريقه إليك، منها أولاً، ثم مني».

إذ كنا كما قال ريك ذات يوم، قد ضحكنا كثيراً أنا وليز، والآن يمكنه أن يضيف إيمي أيضاً. كل شيء سار على ما يرام. فقد ظهر في الجنازة حشد من الأقرباء لكنهم كانوا يميلون للتجمع حول إيمي وتركي بمفردي. كذلك حضر ريك، دونما أي خجل، القداس الذي أصرت إيمي على إقامته كما حضر حرق الجثة فيما بعد. كان يجلس في المؤخرة، ينشج بصوت مسموع. وقبل انتهاء الاحتفال، اندفع خارجاً. فيما بعد، وفي المنزل، وجدت نفسي وحيداً بصورة أكثر تحديداً، بينما كان الناس يتزاحمون بكل تهذيب طلباً للسلمون المدخن وخمر الموزيل (نسبة إلى إحدى مقاطعات ألمانيا). مرة واحدة فقط، خرج عن المألوف أحد الرجال، واحد من أقربائها على ما أظن رغم أنني لا أعرفه. ربما كان رفيقاً من رفاق كابستون باورز جاء لينوب عنه إذ كانت علائم الجيش تسمه في كل مكان، هو ذو الجسم الضخم والبنية الصلبة والوجه الأحمر. من جهتي كنت على أتم الاستعداد لمحادثته بل حتى لأن أعرض عليه شراباً لكنه حدجني لبضع ثوان وهو يفتح ويغلق فمه مثل سمكة أخرجت من الماء. بعدئذ غير رأيه وعاد أدراجه إلى الحشد. حينذاك فكرت بصديقتي الإيطالية وبالقصاص الذي أنزلته بي ذات مرة. هذا قصاص كونتات[1] الوطن الإنكليزي.وقد مضى بعيداً كي يزيد من ترسيخ اعتقادي الذي اكتشفته حديثاً بأن هناك أماكن أفضل بكثير.

---

(1) مفردها كونت: السيد النبيل.

«أفكار للوطن مصدرها الخارج بالحقيقة» الأمر الذي جعلني أشعر بالغضب. ظهر دوغلاس، الشاب، من بين الحشد على نحو مفاجئ وكأنما بهدف محدد هو أن يمسح الجرح بالزيت ويصلح بعض التلف الاجتماعي ـ كان يلبس صدرية من الحرير الأسود وقبة كهنوتية أكثر بروزاً من المعتاد.

جاء إلي بنوع من الجد المراوغ سرعان ما ذكرني بريك تكر أيام كان يخجل فعلاً. وكنت ما أزال غاضباً.

«آه ـ دوغلاس، أليس كذلك؟ كيف هي الكنيسة هذه الأيام؟».

«تكافح سيد باركلي، إنها بحاجة للمساعدة».

«المال، طبعاً».

فهز رأسه بنوع من الجزم.

«كلا.. أو كلا مبدئياً».

«إن كان ما تحتاجه هو المساعدة الروحية فقد جئت إلى الشخص المناسب».

«حقاً؟».

«ستجد من الصعب كثيراً أن تصدق لكنني أعاني من جروح لا تقل عن الجروح التي أحدثتها المسامير في جسد المسيح. نعم، أربعة من جروح المسيح الخمسة. أربعة في الأسفل. لا، ليس باستطاعتك أن ترى الجروح خلافاً لما هو الشأن بالنسبة إلى بادري بيو المسكين العجوز. لكن أؤكد

لك أن يديّ وقدميّ تؤلمني إيلام الجحيم - أم علي أن أقول إيلام الجنة؟».

«لا أظن».

«أنت لا تظن أنه ينبغي على أناس مثلي أن يدعوا لأنفسهم ميزات كهذه؟».

كان دوغلاس يتطلع حوله بكثير من الضيق وكأنه، كما ظننت، كان يبحث عن إيجاد طريقة للانسحاب عله يصلح خطأه. ربما كان يود إعطائي اسمه وعنوانه.

«هلم أيها القس، ألا ترى الأمر جديراً بالملاحظة؟».

«هل أنت جاد؟».

«إن لم أكن جاداً هل تتركني وتعود إلى رعيتك تلك من الناس الآثمين؟».

«أوه، لا، أو بالأحرى - هل أنت جاد؟».

«بالتأكيد. ففي بعض الأحيان تؤلمني كأنها الجحيم».

فتفحص وجهي عن كثب.

«لابد أنك فخور بذلك».

الأمر الذي جعلني أرتد إلى الوراء، ولقد ضخم الأمر بتكشيرة من أسنان غير كهنوتية البتة.

«بالنتيجة، ثمة ثلاثة صلبان».

بعدئذ وجدت نفسي أقف هناك أنظر إلى الغرفة أمامي كأنما أنظر إلى شاشة، فالأقرباء، وقد اصطفوا رتلاً واحداً، كانوا يمرون بإيمي واحداً واحداً، وكان دوغلاس الشاب يودعها في تلك اللحظة فبدا لي وكأن تلك المصافحات والتحيات لا وجود لها هذه الأيام إلا في المآتم.

لكنني كنت قد تُرِكت وقد انجلت الأمور كثيراً! ثلاثة صلبان ـ دائرة الطيف كلها ـ لست أنا من يتحمل مسؤولية الخير والصلاح، الرعب المقنط لأن تكون قديساً! بالنسبة إلي ثمة السلام والأمان وأنا أعرف نفسي لصاً! هناك وقفت لا أنبس ببنت شفة، لا آتي حركة بينما كانوا يمضون جميعاً. أخيراً جاءت إيمي ثم قالت لي شيئاً على ما أظن لكنني لم أفهم ما قالته بالواقع. كنت قد جلست، ولابد، في لحظة من اللحظات لكنني لا أتذكر أنني فعلت ذلك. ولابد أن السيدة ويلسون قد أزالت آثار الاضطراب ذاك دون أن ألاحظ ذلك البتة، فقد أصابني نوع من الإغماء التخشبي.

في اليوم التالي قالت إيمي إنها ستبيع المنزل حالما (أنقلع) حسب تعبيرها. بعدئذ عادت إلى عملها الاجتماعي في أحد أحياء الطبقة الوسطى، وكان علي أن أعزل حاجاتي من المنزل. فوجدت أنه لم يبق لي إلا القليل من الأوراق التي كانت تزعج ليز وكابستون باورز كل الإزعاج ولا شك. فخطر لي، على ما أذكر، أنني، وربما دون تفكير، كنت قد تركت تلك الأوراق خصيصاً كي أسبب لهما الإزعاج. فنحن لا نعرف الكثير عن نفوسنا الباطنية، أم ترانا نعرف؟

جاءني ريك شاحذاً، متوسلاً، لاعناً، عاوياً، فمنعته من د خول المنزل الأمر الذي كان نوعاً من المزحة إذا ما تأملت الأمر جيداً. لكنه ظل يدور حول المنزل، نائماً حيث لا يعلم إلا الله، متلصصاً علي من حين إلى آخر من هذه الزاوية أو تلك. كنت، مذ رأيت حلمي ذاك، واثقاً ثقة كل رجل عاقل من تلك المسألة: متى يكون حولي ناس ومتى لا يكونون. ليس هناك شك على الإطلاق، فريك هناك فعلاً وهو يتجسس علي. لم يكن لديه أدنى فكرة أن بإمكاني بل ومن ضمن أهدافي أن أشفيه. إذ كنت سأحقق له حلمه، أنا ويلفريد باركلي، المستشار العظيم.

رن الهاتف فإذا به كابستون باورز، ذاك الذي لم يأت إلى المأتم إنما توفرت له الجرأة لأن يطلب كتبه ومسدسه، فأغلقت الهاتف في وجهه، وعلي هنا أن أضيف أنه كان قد أتى على كل ما كنت أحفظه عادة في قبوي من خمور.

بعد ذهاب إيمي، أمضيت بعض الوقت في نبش رزم الورق التي كانت محفوظة في صناديق الشاي، لكنني قضيت معظمه في طبع هذه السيرة المختصرة على الآلة الكاتبة والتفكير بها. أمس، أعدت، وأنا جالس، قراءة كل شيء بدءاً من ريك عند سلة المهملات وحتى دوغلاس يوم الجنازة. إنه الأثر الباقي. ها... الخ.

وإذا وضعنا جانباً التكرارات، الأسماء، النعوت، اللغة العامية، المحذوفات، فإن هذا هو تسجيل صحيح لشتى المرات التي سقط فيها بنطلون المهرج. ذلك أنه في

سني لا يمكن أن يكون هناك المزيد. وإنني لأعتقد أن خير ما قدمه من لوحات تهريجه وأذكاها هي بالتأكيد علامات الجروح تلك التي كوفئ عليها لجبنه في مواجهة الأعداء! غير أن القديس فرنسيس والمخلوقات الأخرى التي يمكن الإشارة إليها كلها لم تحصل على تلك العلامات في أيديها وأقدامها، بل كانت جروحها في الجانب الذي قضى على المسيح أو أكّد موته على الأقل. ذلك الجرح وحده ينقصني وقلما يوجد وقت أو مناسبة لأن تقدمه لي فطيرة كاستار»[1].

إنني أنوي أن أختفي من جديد. سيارة يمكن للمرء أن ينام فيها؟ عربة؟ مقطورة؟ طاسة للشحاذة تحت شجرة هندية. راع سنك يا ويلف! لقد فات الأوان على ذلك، آه، سأختفي حيث الراحة والأمان! ترى ما الذي يجعلنا على ما يرام حتى هذا اليوم! لقد أخذت أوراقي كلها من الصناديق ثم كومتها كلها في محرقة، هناك بجانب النهر. وهكذا فإنني وأنا أجلس على هذا المقعد، ليس علي إلا أن أرفع رأسي لأرى من فوق الآلة الكاتبة، تلك الكومة تنتظر هناك، جبلاً معظمه ورق أبيض، أبيض على نحو مدهش بالمقارنة مع الغابات الخضراء الممتدة على الطرف الآخر من النهر. وحين أطوي هذه المخطوطة سوف آخذ صفيحة من البنزين أرش بها المنطقة هناك ثم أشعل النار ـ طقس انتقالي لكومة من الحطام، دبابيس الورق،

(1) مزيج من الحليب والبيض يخبز أو يغلى أو يثلج.

قصاصات الشعر، الوقت المهدور، المراسلات التي لا لزوم لها، المقابلات، الأطروحات، البيانات المالية، المخطوطات، المطبوعات بلغات مختلفة، البراهين؛ الثقالة الورقية لحياة برمتها!

بعدئذ سوف أبحث عن ريك ثم أعطيه هذه الرزمة الصغيرة من الورق، كل ما يلزم، كل ما تبقى، كل ما يمكنه فضح القصص الكاذبة، اليوميات المتحيزة وما شابه. ولسوف يكون نوعاً من الموت. حرية بالحقيقة، حرية، يا لطيف؟

أنا سعيد. سعيد تماماً. لكن كيف يمكنني أن أكون سعيداً؟ أحياناً، تكون التجربة مثل الجوهرة، متألقة، مشعة، دونما كلام، وأحياناً أخرى تكون هادئة، تتجاوز كل ما عشته من تجارب بسبب هدوئها التام. أنا سعيد. ورغم أن ذلك غير معقول إلا أن هذه هي الحقيقة، إذ إما أنني تخليت عن عدم التحمل وهو أمر مستحيل، أو أنه تخلى عني وهذا مستحيل أيضاً.

كيف استطعت أن أتغير، أنا الذي تغيرت فعلاً؟ لنأخذ الشراب، مثلاً. فبعد أكثر من ربع قرن من المحاولة استطعت الإقلاع عن الشراب مباشرة ودونما جهد على الإطلاق! قد يكون شيئاً خطراً أن أكتب ذلك بناء على تجارب المرات السابقة التي سقط فيها بنطال المهرج لكنني أعلم بنوع من اليقين الداخلي المطلق أنني قد شربت كأسي الأخيرة.

من يدري؟ فمع عدم التحمل الذي تؤيده فلسفتي في الحياة، ثمة مجال لرحمة غير ملائمة تدفعني لأن أعطي ريك هذه الأوراق، رحمة يمكن بواسطتها لهاتين الظاهرتين المُرْضيتين ويلفريد تاونسيد باركلي وريتشارد لينبرغ تكر، أن تدمّرا إلى الأبد، فهل هذا ما يجعلني سعيداً؟

ريك على بعد مائة ياردة، خلف النهر يثب من شجرة إلى شجرة كهندي يلعب. سيكون بمثابة الجمهور الذي يشهد طقوسي الاحتفالية. ها هو ذا ينحني مستنداً إلى شجرة، مبصبصاً إلي مستخدماً هذه الأداة أو تلك.

لكن بحق الشيطان كيف استطاع ريك تكر أن يتدبر أمره ويحصل على الضمانة!!

* * *





William and Golding

Men of Papers

الكاتب البريطاني وليام غولدينغ الحائز على جائزة نوبل للآداب يتحفنا بعمل أدبي فذ نرى فيه المجتمع الغربي على حقيقته: مجتمع المادة المحض، مجتمع المصالح والمنافع. المجتمع الذي يُضحي فيه الفرد بكل القيّم والمُثُل على مذبح المصلحة الخاصة، يتجرد الرجل من رجولته كي يحصل على ما يبتغي، فالغاية تبرر الوسيلة وكل ما عدا ذلك هباء..

"كان الوقت قد حان لأخذ غفوة قبل تناول الغداء. خلعت ثيابي واستلقيت. كان الرجال المسنون يصرون بأصواتهم الحادة كالجنادب، مستندين إلى جدار المدينة وهم يراقبون الفتاة تعبر بهم، لا عجب أن فتاة كهذه هي لب تلك المتاعب والأحزان. لا عجب أن يرغب الشبان في أن يغامروا بكل شيء من أجلها. مع ذلك، دعها تعد إلى موطنها قبل أن تسبب الموت للمزيد من الرجال... رجال مسنون! مهرجون عجائز! أولاد زنى هرمون!"

www.attakwin.com